مجلة معهد المخطوطات العربية

علمية نصف سنوية ، محكّمة ، تُعْنَى بالتعريف بالمخطوطات العربية ، وفهرستها ، ونشر النصوص المحققة ، والدراسات القائمة عليها ، والمتابعات النقدية الموضوعية لها.

* الأفكار الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي المنظمة والمعهد ، وترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية ، ولا علاقة له بمكانة الكاتب .

* يسمح بالنقل عن المجلة بشرط الإشارة . وقواعد النشر وثمن النسخة في آخر المجلة .

المجلد ٤٠ – الجزء الثاني – رجب ١٤١٧ هـ / نوفمبر ١٩٩٦ م

معهد المخطوطات العربية

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة معهد المخطوطات العربية / معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ـ مج ٤٠ ، الجزء الثاني ، رجب ١٤١٧ هـ / نوفمبر ١٩٩٦ م . ٢٨٤ ص .

ط /١٩٩٧/ ٠١/ ٠٠٢

ردمد ٢٢٠٩ - ١١١٠
I.S.S.N 1110 - 2209

مجلة
معهد المخطوطات العربية

الفهرس

* * *

مكتبات المخطوطات في إستانبول دراسة تاريخية

د . فاضل مهدي بيات*

في تركيا اجتمع من التراث العربي مالم يجتمع في غيرها من بلدان العالم . والحق أن المعلومات المتوفرة عن هذا التراث كانت حتى بداية القرن الحالي محدودة ، لأن الفهارس التي صدرت له قليلة ، وكثير مما صدر أخذ شكل الجداول أو الدفاتر التي لا تروي ولا تبلُّ صدى ، كما أنها تفتقر إلي الدقة.

ومع مطلع القرن بدأ إصدار فهارس مفصلة ، تبنّتها جهات حكومية مختلفة ، وبعض الجهات الدولية ، وقام بها أفراد مجتهدون .

وهذا البحثُ قراءة في تاريخ مكتبات المخطوطات العامة في تركيا ، والجهود التي بذلت في خدمتها وفهرستها والتعرف بها . وقد ذُيِّل بكشّاف بأسماء هذه المكتبات وعناوينها .

---

* من كلية الآداب بجامعة بغداد .

حظيت الثقافة العربية الإسلامية باهتمام الأتراك بعد اعتناقهم الإسلام ، وتبنتها جميع الدول التركية الإسلامية ابتداءً من دولة القره خانيين[1] ونزولاً إلى دولة السلاجقة ودويلات الأناضول التي تأسست على أنقاض دولة سلاجقة الروم[2] ، وأخيراً الدولة العثمانية . واستمرت اللغة العربية – باعتبارها لغة القرآن الكريم – لغة ثقافية مشتركة لجميع الشعوب التي بقيت تحت سيطرة الدول التركية وشقت طريقها على الرغم من المحاولات اليائسة التي قامت بها بعض الشعوب غير العربية . وأصبحت المؤلفات – دينية كانت أو غير دينية – تكتب بهذه اللغة ، حتى برز علماء عديدون من الأتراك تركوا بصماتهم على هذه الثقافة .

وازدهرت اللغة العربية ازدهاراً كبيراً في ظل الدولة العثمانية بعد أن أصبح لها دور مؤثر في ولادة اللغة العثمانية ، فلا غرو إذن أن تصبح اللغة العربية لغة التدريس في المدارس العثمانية ، وكان لهذا أثره في تطور العلوم والفنون ، فصنفت أعداد عائلة من الكتب في شتى المجالات ، وازداد الاهتمام بالعلم والكتب من قبل سلاطين الدولة العثمانية ، فقام كل سلطان أو صدر أعظم أو قائد كبير ببناء مسجد وإقامة مكتبة ومدرسة بالقرب منه تابعتين له[3] ، وأوقفوا

---

(١) الدولة القره خانية هي أول دولة تركية اتخذت الإسلام ديناً رسميًا لها . تأسست سنة ٨٤٠ م في آسيا الوسطى واستمرت حتى سنة ١٢١٢م.

(٢) أهم الإمارات التي تأسست في الأناضول بعد سقوط دولة سلاجقة الروم هي : إمارات العلائية وأيدين أوغو للري وذو لغار أوغو للري ، وأشرف أوغو للري ، وكرميان أوغو للري وحميد أوغوللري، وقرمان أوغو للري، ومنتشه أوغوللري ورمضان أوغوللري وصاروخان أوغوللري .

(٣) أحمد آتش : المخطوطات العربية في مكتبات الأناضول ، منشور ضمن بحوث : دراسات فيما تحتويه مكتبات إستانبول والأناضول من المخطوطات العربية، ألمانيا ١٩٨٦ ، جـ ٣ ص ٨٢٨ . وقد سبق أن نشر هذا البحث في مجلة معهد المخطوطات، مايو ١٩٥٨ مجلد ٤ جزء ١ .

كتباً مختلفة فيها . ففي بداية دخول الأتراك إستانبول واتخاذها عاصمة للدولة زوّدت المدارس والتكايا فيها بكتب مختلفة ، ثم أقيمت مكتبات مستقلة عنها ، بل إن السلطان محمد الفاتح أوقف ألفي كتاب لمكتبتي جامع أيوب وجامع الفاتح ، كما أسّس مكتبة خاصة في قصره ما لبثت أن توسعت فيما بعد في زمن السلاطين الذين جاءوا بعده ، وسميت هذه المكتبة نسبة إلى القصر (مكتبة طوب قابي سرايي) واحتفظت بهذه التسمية حتى اليوم[١] .

وفي سنة ١٧١٩م أنشئت في هذا القصر مكتبة أحمد الثالث التي تعتبر أحد المعالم الفنية الرائعة للطراز المعماري التركي في مجال بناء المكتبات[٢] . وتعتبر مكتبة كوبريلي التي أقيمت سنة ١٦٦١ ، كما سنتناولها ، أول مكتبة ذات بناية مستقلة . وتوالت إقامة المكتبات من قبل السلاطين وكبار رجال الدولة والعلماء والأعيان . وكان قسم منها ملصقًا بالجوامع وخصص لبعضها أبنية مستقلة[٣] .

وعلى الرغم من أن المؤسسات العلمية العثمانية قد تعرضت للإهمال نتيجة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر الميلادي ، فإنها انتعشت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩)[٤] الذي يعود إليه الفضل في تطوير المؤسسات العلمية العثمانية لتواكب المؤسسات العلمية الأوربية ، وقد أسس عدداً كبيراً من المدارس والمعاهد على غرار ما كان موجوداً في أوروبا في زمنه . وقد رافق هذا ، الاهتمام بالمخطوطات العربية وجمعها حتى

(1) Meydan - Larousse, Istanbul, 1972, VII, 743 .
(2) Celal Esad Arseven : **Sanat Ansiklopedisi,** Istanbul, IV, 2028 .
(3) Meydan Larousse, VII, 743 .
(٤) أحمد آتش : المرجع السابق جـ ٣ ص ٨٢٨ .

تجمعت في البلاد التركية - كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد - « مالم يجتمع في غيرها من التراث الإسلامي » فأصبحت « المركز الأول للمخطوطات العربية في العالم بلا استثناء »[١] .

وقد أدى بناء المكتبات ملصقة أو تابعة إلى المساجد والمدارس إلى الحاجة إلى نسخ متعددة من الكتب الموجودة فيها ، لكونها كتباً اعتمدت في التدريس في هذه المدارس ، أو وضعت في متناول الطلاب ، فنشطت حركة استنساخ المخطوطات نشاطاً كبيراً ، ولهذا تكررت الكتب المتعلقة بالتفسير والحديث والفقه والصرف والنحو وسائر العلوم ، فنجد نسخاً عديدة منها في المكتبة الواحدة أو المكتبات المختلفة[٢] . وهذا التوسع في عملية الاستنساخ أدى إلى توسع المكتبات وزيادة عددها ، حتى أصبح عددها في سنة ١٣١١ - ١٣١٢ في الإمبراطورية العثمانية عدا استانبول ٢٧٢ مكتبة ضمت ٧٦٧٧٣ مخطوطة[٣] .

المخطوطات في تركيا الحديثة

لم تهمل الدولة التركية الحديثة التي تأسست على أنقاض الدولة العثمانية المكتبات التي انتقلت إليها من العهد الماضي ، بل مدت إليها يد الرعاية لتنقذ

---

(١) انظر مقدمة «رسالة المختار من المخطوطات العربية في الآستانة» لأحمد تيمور، بيروت ١٩٦٨ ص٥ .

(٢) أحمد آتش : المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٨٣٤ .

(٣) أورد ذلك الباحث التركي أحمد آتش (المرجع نفسه ص ٨٢٨ - ٨٣٠) نقلاً عن إحصائية نشرتها وزارة المعارف العثمانية سنة ١٣١٨ ، كما أورد منها جدولاً يتعلق بما تحتويه كل مدينة من المدن العثمانية من مكتبات وعدد مخطوطاتها .

المخطوطات الموجودة فيها من تخريبات الزمن والنسيان[١] . ويرى بعض الباحثين أن مصطفى كمال وأتباعه قاموا في وقت قصير ، بعد أفول نجم الخلافة العثمانية بهدم كل ما بناه أسلافهم في قرون عديدة فحوّلوا جل المساجد إلى مصالح حكومية وإدارات محلية أو متاحف أثرية ونقلوا أغلب المكتبات التي كانت المساجد تزدان بها من أماكنها[٢] . والواقع أن خير ما قامت به حكومة آتا ترك هو أنها أعادت النظر في تشكيلات المكتبات العثمانية فجمعت المخطوطات التي بقيت في بعض المكتبات الصغيرة وأودعتها في مكتبات كبيرة . كما دمجت بعض المكتبات الصغيرة في مكتبة مركزية واحدة فأصبح الإشراف عليها سهلاً وتمت المحافظة على مخطوطاتها . والحقيقة أن المكتبات الصغيرة لم يتم دمجها في إستنبول وحدها بل شمل ذلك مختلف المكتبات المنتشرة في المدن التركية الأخرى . وقد أشار الأستاذ أحمد آتش إلى وجود ٥٩ مكتبة تضم كتباً مخطوطة في مدن الأناضول ، ٣٩ منها تابعة لإدارة مكتبات الدولة ، و ١٥ منها تابعة للإدارة المحلية ، وست منها مكتبات خاصة[٣] .كما أورد الأستاذ فؤاد سزكين[٤] أسماء خمس وثلاثين مدينة تركية فيها مكتبات تضم مخطوطات عربية وشرقية ، غير أن مدينة إستانبول أصبحت لديها حصة الأسد من مجموع المكتبات التركية وذلك لاحتوائها على ما يقارب مئة مكتبة . كما ذكر أسماء

---

(١) أحمد آتش : المرجع السابق ص ٨٣١ .

(٢) محمد بن عبد الكريم : مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٦-٧.

(٣) أحمد آتش : المرجع السابق ص ٨٣١ .

(4) Fuat Sezgin : **Geschichte Des Arabischen Schrifttums,** Leiden, 1967, Band 1, P. 747 - 763 .

وانظر كذلك ترجمة الكتاب : تاريخ التراث العربي، ترجمة فهمي أبو الفضل ، القاهرة ١٩٧١ ، المجلد ١ ص ٣٥ - ٥٦ .

أربع وتسعين منها ألحق قسم منها بمكتبة السليمانية .

المستشرقون والمخطوطات في تركيا :

على الرغم من احتضان المكتبات التركية عامة ومكتبات إستانبول خاصة أعداداً ضخمة من المخطوطات فإن معلوماتنا عن هذه المخطوطات ظلت محدودة حتى السنوات الأخيرة وذلك لأن الفهارس التي صدرت عن هذه المكتبات قليلة ولا تشتمل كل المخطوطات فبقي عدد كبير من هذه المخطوطات مجهولاً . ولهذا انصرف الكثير من المهتمين بالتراث إلى معرفة المخطوطات والتنويه بها .

ولا ننسى في هذا الخصوص الجهود التي بذلها بعض المستشرقين في كشف غبار الزمن عن هذه المخطوطات وتعريفها وبيان أهميتها وذلك منذ أواسط القرن التاسع عشر تقريبًا منهم العالم الفرنسي شارل شيفر الذي بذل جهوداً كبيرة في هذا المجال . وقد أقام مدة طويلة في العالم الإسلامي وتيسر له الاطلاع على أعداد هائلة من المخطوطات ولا سيما في مدينة إستانبول . وقد اقتنى عدداً كبيراً منها أُودِع بعد وفاته في المكتبة الأهلية في باريس . كما قام باستنساخ عدد من المخطوطات الجغرافية العربية ليعرِّف بها المحافل العلمية في أوربا وتيسير دراستها ونشرها فيما بعد . ومن هذه المخطوطات : كتاب «الخراج» لقدامة بن جعفر ، وكتاب « عجائب الهند » لبزرك بن شهريار الرامهرمزي ، «وصفة جزيرة العرب » للحسن بن أحمد الهمداني وغيرها .

وبدأ اهتمام المستشرقين بالمخطوطات الموجودة في المكتبات التركية يزداد يوماً بعد يوم ، فقام أوسكار ريشر الذي تسمى فيما بعد بعثمان ريشر ، بكتابة مقالات عديدة عن مكتبات إستانبول وذلك بين سنتي ١٩١٠ – ١٩٢٤ ، كما تفرغ هلموت ريتر Hellmut Ritter بدراسة المخطوطات في مكتبات

إستانبول والأناضول لمدة تزيد على ٢٠ سنة وكان – كما يقول سزكين – لا تقتصر خدمته « على التعريف بالمخطوطات بمقالاته الخاصة وإنما كان يرى رسالته في استقدام المستعربين من أوربا وجعلهم يتولون التعريف بالمخطوطات في اختصاصاتهم ، وفي تدريبه تلامذة للعمل من جهة أخرى » وقد تلمذ على يده فؤاد سزكين الذي رافقه في مشواره العلمي هذا[1] . كما يجب ألا ننسى – ونحن بصدد إبراز دور المستشرقين – جهود العالم الألماني كارل بروكلمان في إبراز أهمية المخطوطات وتعريفها .

فهرسة المخطوطات :

في أواخر العهد العثماني قامت وزارة المعارف العثمانية بإعداد فهارس خاصة لمعظم مكتبات استانبول ، وهي بسيطة من حيث الإعداد واتُّبع في جميعها منهج واحد ، وهي على شكل جداول تشتمل على تسلسل الكتاب في المكتبة وعدد مجلداته ولغته والخط الذي نسخ به وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة وعدد أوراقه واسم مؤلفه وسنة وفاته وملاحظات متعلقة بالكتاب ، كأن يذكر فيها وصف مُرَكَّز للمخطوطة واسم ناسخها وسنة نسخها . وعلى غلاف الفهرست وتحت اسم المكتبة يدرج عادة محل المكتبة وتاريخ إنشائها وأطلق على كل فهرست منها اسم (دفتر) مثلا : دفتر كتبخانة آيا صوفية ودفتر كتبخانه أسعد أفندي ... إلخ .

وهذه الفهارس – كما يقول فؤاد سزكين – تنقصها الدقة أو إعطاء فكرة صحيحة عما تتضمنه المكتبات من كتب . وقد استعان كارل بروكلمان بدفاتر مكتبات آيا صوفية ويني جامع وكوبريلي ونور عثمانية وراغب باشا عند تأليفه

(١) انظر : فؤاد سزكين : دراسات فيما تحتويه مكتبات إستانبول ، ١ : ٩ – ١٠ .

المجلدين الأساسيين من مؤلفه تاريخ الأدب العربي[1] .

أما فهرسة هذه المكتبات وفق المناهج الحديثة فلم تبدأ إلا في بداية هذا القرن على يد بعض المستشرقين . ثم تبنت الحكومة التركية إصدار فهارس مفصلة عن المخطوطات في المكتبات التركية منها ما قامت بنشره وزارة التربية كفهرس مخطوطات مكتبة طوب قابي سرايى وفهرس مخطوطات متحف مولانا جلال الدين الرومي . كما شرعت المديرية العامة للمكتبات والنشر التابعة لوزارة الثقافة والسياحة بنشر فهارس عامة للمخطوطات في تركيا ، وقد صدر منها لغاية سنة ١٩٨٦ عشرة مجلدات تحت اسم (الفهرس العام لمكتبات تركيا)[2] . وفضلاً عن هذا فقد بذل الباحثون الأتراك جهوداً كبيرة في تعريف المخطوطات العربية وفهرستها نذكر منهم فهمي أدهم قره طاي الذي أعد فهارس المخطوطات العربية والتركية والفارسية في مكتبتي طوب قابي سرايى وجامعة إستانبول وأحمد آتش وغيرهم . وقام بعض الباحثين الأتراك بإعداد فهارس باللغة العربية نذكر منهم على سبيل المثال : الدكتور رمضان ششن الذي نشر فهارس مختلفة باللغة العربية عن المخطوطات العربية منها : نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا في ثلاثة مجلدات (بيروت ١٩٧٥ – ١٩٨٣) وفهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا (إستانبول ١٩٨٤) وفهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي (إستانبول ١٩٨٦) وقد شاركه في

---

(١) المرجع نفسه : ٩ ، وعن أسماء المكتبات التي اعتمد على فهارسها (دفاترها) كارل بروكلمان ، انظر :

Carl Brockelmann : Erster Supplement - band, Leiden, 1937, 1. 5 - 11 .

(٢) انظر مقدمة الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو لكتاب (فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي) لرمضان ششن ورفاقه، إستانبول ١٩٨٦ مجلد ١ صفحة ب .

إعداد الفهرسين الأخيرين باحثان آخران .

كما لا يفوتنا هنا الإشارة إلى الجهود الكبيرة التي يبذلها مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول ، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي الذي قام بتشكيل (وحدة المخطوطات) لتأخذ على عاتقها مهمة القيام بإعداد فهارس للمخطوطات بصورة عامة أو فهارس علمية لمخطوطات في علم أو موضوع خاص. وقد أصدر المركز بمناسبة انعقاد مؤتمر الطب الإسلامي باستانبول في تشرين الأول ١٩٨٤ فهرس مخطوطات الطب الإسلامي وفهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي[١] المار ذكرهما .

وينبغي هنا الإشارة ، بل الإشادة بجهود العلامة التركي فؤاد سزكين الذي يتولى إدارة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في ألمانيا في تسليط الضوء على المخطوطات العربية ، ويعتبر كتابه (تاريخ التراث العربي) من أروع ما كتب عن المخطوطات العربية ، وقد فاق كتاب بروكلمان لاطلاعه الواسع على الكثير من المخطوطات العربية ولا سيما في المكتبات التركية . كما قام بنشر مجموعة كبيرة من بحوث المستشرقين المتعلقة بالمخطوطات العربية ضمن كتاب سماه (دراسات فيما تحتويه مكتبات إستانبول والأناضول من المخطوطات العربية) وأصدر منها ثلاث مجلدات في سنة ١٩٨٦ .

أهم المكتبات :

أعادت الحكومة التركية في العهد الجمهوري تنظيم المكتبات التي تحتوي على المخطوطات – كما مر ذكره – ودمجت بعض المكتبات الصغيرة بمكتبات

(١) المرجع نفسه صفحة ا ، ب .

كبيرة ونقلت إليها المخطوطات من الجوامع والتكايا والأماكن الأخرى . وأهم هذه المكتبات الموجودة في إستانبول :

١- مكتبة متحف طوب قابي سرايى :

Topkapi Sarayi Muzesi Kutuphanesi

هذه المكتبة - كما مرّ ذكرها - أنشئت في قصر طوب قابي سرايى الذي بوشر ببنائه فى زمن السلطان محمد الفاتح في القرن الخامس عشر للميلاد ، ولم تحافظ بناية القصر على شكلها بل توسعت بمرور الزمن بعد أن أجريت فيها إضافات متعددة من قبل سلاطين وأمراء آل عثمان . وتمّ تحويل هذا القصر في العهد الجمهوري إلى متحف أثري(١) .

أما مكتبة طوب قابي سرايى فقد بنيت خلال المرحلة الأولى لبناء القصر أى في القرن الخامس عشر ، وهي تقع في القسم الثالث من القصر أى في القسم المسمى بميدان أندرون . وقد بنيت المكتبة على شكل يضمن بقاء الكتب التي تضمها ، بعيدة عن الكوارث التي قد تتعرض لها كالحرائق والزلازل والرطوبة . وفي منتصف قاعتها كتابة باللغة العربية تبين تاريخ إنشائها .

وتتكون هذه المكتبة من تسع مكتبات صغيرة أو مجموعات كانت موجودة في أماكن مختلفة من القصر وهي :

١- مجموعة كتب روانِ كوشكي [الكوشك بمعنى الفيللا وقد سماه الأمير شكيب أرسلان بالمغنى] . ورِوان كوشكي بناه السلطان مراد الرابع .

(1) Sanat Ansiklopedisi, IV : 2028 .

والكتب الموجودة في هذا القسم أوقفها السلطان محمد الثاني . ثم أضيفت إليه كتب أخرى من قبل السلطانين عثمان الثالث ومصطفى الثالث . وجميع كتب هذا القسم مختومة بأختام هؤلاء السلاطين . وفيه ٢٠٨٣ كتاب .

٢- مجموعة كتب الخزينة . وجمعت كتبها من أماكن متعددة وتضم أكثر من ٢٩٩٩ كتاب ، أكثرها كتب تاريخية وأدبية وبضمنها ١٤٠ كتابًا تضم روائع المنمنمات والمرقعات . وعدد هذه المنمنمات ٧٢٣٣ منها ٢٨٨٢ منمنمة تركية و ٤٣٣١ منمنمة عربية وهندية ومغولية . أما الألبوم الذي يضم مجموعة صور السلطان محمد الفاتح فيعتبر رائعة من روائع الفن الإنساني .

٣- مجموعة كتب أحمد الثالث أو مجموعة كتب أندرون : وهذه المجموعة كانت في مكتبة أحمد الثالث التي أقيمت في القصر سنة ١٧١٩ . وهي تضم ٤٩٦٨ كتاب بضمنها ٤٤٩٢ مخطوطة . وأقدم هذه المخطوطات يعود إلى القرن الخامس/ الحادي عشر . ومعظمها باللغة العربية إذ يبلغ مجموعها ٤٣٢٩ كتاب .

٤ – مكتبة بغداد كوشكي (مكتبة مغنى بغداد) . ومغنى بغداد أنشأه السلطان عبد الحميد الأول وأكمله السلطان سليم الثالث . وتحمل جميع الكتب الموجودة في هذه المكتبة ختمي هذين السلطانين .

٥ – مكتبة المدينة: جمعت فيها كتب السلطان عبد الحميد الأول والسلطان محمد الثاني وأمير دار السعادة حاجي بشير آغا وشيخ الإسلام عارف حكمت . والمخطوطات التي تضمها ، جلبت من المدينة المنورة من قبل الجنرال فخر الدين تركان خلال الحرب العالمية الأولى وعدد مخطوطاتها ٥٦٦ وجميعها عربية .

٦ – مكتبة أمانت خزينة سي (خزينة الأمانة) : أنشأها السلطان محمود الأول وروعي في حفظ كتبها الدقة والعناية وهي غير مختومة وفيها ٣١١٩ كتاب بالعربية وباللغات الشرقية الأخرى بينها نسخ من المصاحف وإجازات الكتاتيب .

٧ – مكتبة قوغوشلر : وتضم ١٢٣٥ كتاب معظمها نسخ كاملة من القرآن الكريم وأجزاء متفرقة منه فضلاً عن الكتب الدينية كالحديث والتفسير والفقه .

٨ – مكتبة محمد رشاد وثريال خانم : وتضم الكتب الشخصية العائدة إلى السلطان العثماني محمد رشاد (محمد الخامس) وكتب ثريال خانم إحدى جوارى السلطان محمود الثاني وفيها ٢٩٠٠ مخطوطة .

٩ – قسم الكتب الحديثة : ويضم الكتب التي جمعت بعد إعلان الجمهورية التركية وفيه ٢٨١٤ كتاب(١) .

وفتحت مكتبة طوب سرايى أبوابها للباحثين سنة ١٩٢٨ م . وفيها ١٤٦٩٩ مخطوطة معظمها باللغة العربية و ١٤١٤ لوحة خطية . والكتب الموجودة فيها في موضوعات شتى تتعلق بمختلف جوانب الحضارة الإسلامية . وفيها من نوادر المخطوطات العربية ما لا تحتويه أية مكتبة في العالم ، ففيها ١٦٠٠ نسخة من المصاحف نسخت في المغرب والهند وإيران والدولة العثمانية منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الثالث عشر من قبل خطاطين مشهورين . وتمّ تجليدها وزخرفتها من قبل مجلدين ومزخرفين ماهرين . وفيها مصاحف ينسب نسخها إلى الخليفة عثمان والإمام علي والحسن والحسين(٢) .

(١) فاضل مهدي بيات : المخطوطات العربية في مكتبة طوب قابى سرايى بإستانبول ، مجلة المورد ، مجلد ٤ عدد ٢ ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ٢٣٢ واستعنا في هذا الخصوص بكتاب :
Neriman Malkoç, Oztùrkmen, **Istanbul ve Ankara Kùtùphaneleri,** Ankara, 1957 .
(2) Fehmi Edhem Karatay : **Topkapi Sarayi Mùzesi Kùtùphanesi, Arapça Yazmalar Katalogu,** Istanbul, 1962, Cilt, 1, Önsöz .

وأعدت فهارس مفصلة عن محتوياتها من المخطوطات العربية والتركية والفارسية . أما فهارس المخطوطات العربية فقد صدر منها :

١ - القسم الأول : القرآن وعلومه والتفسير من رقم ١ - ٢١٧٠ .

٢ - القسم الثاني : الحديث والفقه من رقم ٢١٧١ - ٤٦٧٩ .

٣ - القسم الثالث : العقائد والتصوف والأدعية والتاريخ والسير والتراجم من رقم ٤٦٨٠ - ٤٧٨٧ .

٤ - القسم الرابع : اللغة والأدب العربي والمجاميع التي تتضمن رسائل مختلفة من رقم ٤٧٨٨ - ٩٠٤٣ .

وقام بإعداد هذه الفهارس فهمي أدهم قره طاي ، وشاركه في القسم الثاني عثمان ريشر[1] .

---

(١) قام كاتب البحث بترجمة قسم من الفهارس المتعلقة بالمخطوطات العربية في هذه المكتبة ونشرها في مجلة المورد البغدادية، تحت اسم : المخطوطات العربية في مكتبة طوب قابي سرايي باستانبول، وصدرت منها الأقسام الآتية :

١ - القسم الأول : المخطوطات التاريخية مجلد ٤، عدد ٢، ١٩٧٥ ص ٢٣١ - ٢٥٤ .

٢ - القسم الثاني : تتمة المخطوطات التاريخية مجلد ٤ ، عدد ٤ ، ١٩٧٥ ص ٢٧١ - ٢٩٦ .

٣ - القسم الثالث : كتب التراجم والجغرافية والرحلات مجلد ٥ ، عدد ٢، ١٩٧٦ ص ٢٤١ - ٢٧٨ .

٤ - القسم الرابع : علوم اللغة العربية مجلد ٥ ، عدد ٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٢٣١ - ٢٦١ .

٥ - تتمة القسم الرابع : علوم اللغة العربية ، مجلد ٥ عدد ٤ ، ١٩٧٦ ، ص ٢٤٩ - ٢٧٤ .

٦ - القسم الخامس : الكتب العلمية مجلد ٦ ، عدد ٤ ، ١٩٧٧ ص ٤٠٧ - ٤٨٠ .

٧ - صلة القسم الخامس : الكتب العلمية مجلد ٧ ، عدد ٣ ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨٥ - ٣٢٦ .

٨ - القسم الثاني من علوم اللغة العربية مجلد ٩ ، عدد ٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٣٧٩ - ٤٤٢ .

٢ - مكتبة السليمانية *Sùleymaniye Kùtùphanesi* :

وتعد من أكبر المكتبات في العالم من حيث عدد مخطوطاتها وهي تابعة لوزارة الثقافة التركية . فيها ٦٤٢٦٧ مخطوطة في مختلف العلوم والفنون : الدين والتاريخ والفلسفة والجغرافية والعلوم الاجتماعية والأدب واللغة والفنون الجميلة والعلوم النظرية والتطبيقة وموضوعات عامة. وأقيمت هذ المكتبة بعد الحرب العالمية الأولى بدمج عدد كبير من المكتبات الصغيرة والكبيرة التي تعود تواريخ إنشائها إلى القرن ١٧ و ١٨ و ١٩[1] .

وذكر فؤاد سزكين[2] أسماء ٦٩ مكتبة مستقلة ألحقت بمكتبة السليمانية مع أعداد المخطوطات فيها وأهمها : مكتبة «جامع الفاتح» (٥١٥٢ مخطوطة) ومكتبة حاجي محمود (يحيى أفندي) (٤٤٩٢ مخطوطة) ومكتبة لاله لي (٣٨١٠ مخطوطة) ومكتبة أسعد أفندي (٣٧٣٥ مخطوطة) ومكتبة شهيد علي باشا (٢٨٤٣ مخطوطة) ومكتبة جار الله ولي الدين (٢٢٠٥ مخطوطة) ومكتبة بغدادلي وهبي (١٦٣٩ مخطوطة) ومكتبة الحميدية (١٥٠٢ مخطوطة) ومكتبة جورولي علي باشا (١٤٢٦ مخطوطة) ومكتبة سزر (١٢٣٦ مخطوطة) ومكتبة رئيس الكتاب مصطفى أفندي (١٢٠٣ مخطوطة) ومكتبة يكي جامع (يني جامع) (١١٩٧ مخطوطة) ومكتبة رشيد أفندي (١١٧٨ مخطوطة) ومكتبة داماد إبراهيم باشا (١١٥٢ مخطوطة) ومكتبة حسن حسني باشا (١٠٥٢ مخطوطة) ومكتبة جامع السليمانية (١٠٣٩ مخطوطة) ومكتبة قليج علي باشا (١٠٣٠ مخطوطة) .

---

(1) M. Alpay ve S . Ozkan : **Istanbul Kutuphaneleri,** Istanbul, 1982, S. 48 - 49.

(٢) عن أسماء هذه المكتبات انظر كتاب فؤاد سزكين ، الأصل الألماني ص ٧٥٢ – ٧٦١ والمترجم ١ : ٣٧ – ٥١ .

ولهذه المكتبات فهارس (دفاتر) طبعت في العهد العثماني وبطاقات حديثة العهد من حيث التنظيم .

٣ - مكتبة جامعةإستانبول:

Istanbul ùniversitesi Kùtùphanesi :

أقيمت هذه المكتبة في سنة ١٩٢٥[١] وألحقت بها مكتبة السلطان عبد الحميد في قصر يلدز ومكتبات شخصية . وأصبحت فيها أكثر من ١٧ ألف مخطوطة، ٦٨٠٠ منها باللغة العربية . وهي أول مكتبة تؤسس في الجامعات التركية وتقع داخل حرم جامعة استانبول . وحظيت هذه المكتبة بأهمية كبيرة لاحتوائها على نفائس المخطوطات المتعلقة بثقافة الشرق والفنون الزخرفية . وفيها بعض الأجزاء من مصاحف مكتوبة على الرّق يعود تاريخها إلى القرنين الأول والثاني الهجريين . كما تضم أكثر من ٢٥٠ مصحفًا نسخت على يد أشهر الخطاطين كياقوت المستعصمي والشيخ حمد الله والحافظ عثمان[٢] . وقد أعدّ لها فهمي أدهم قره طاي فهارس مفصلة طبعت في إستانبول منذ سنة ١٩٥١ .

٤ - مكتبة الأمة (ملّت) *Millet Kùtùphanesi :*

وكان بها ست مجموعات ، أما الآن فإنها تضم مجموعتين هما مجموعة فيض الله أفندي ومجموعة علي أميري ، وتقع بحي الفاتح بإستانبول ، وقد

(١) تذكر مؤلفتا كتاب . **Istanbul Kùtùphaneleri,** S. 108 بأنها أقيمت سنة ١٩٢٦ ، وكانت تسمى مكتبة دار الفنون .

(2) Fehmi Edhem Karatay : **Istanbul ùniversitesi Kùtùphanesi, Arapça Yazmalar Katalogu,** Istanbul, 1951, Cilt, 1, Önsöz .

تأسست في سنة ١٩١٦ وفيها ثمانية آلاف مخطوط ، ٤٤٠٠ منها باللغة العربية[١] . ولكل مجموعة من المجموعتين فهرس (دفتر) مطبوع .

٥ - مكتبة كوبريلي *Koprùlù Kùtùphanesi* :

أقيمت هذه المكتبة على الطراز المعماري التركي الإسلامي في سنة ١٦٦١م من قبل كوبريلي فاضل أحمد باشا (١٦٣٧ - ١٦٧٦) عندما كان وزيراً أعظم للدولة العثمانية وأوقف فيها ما جمعه من كتب وكان مولعًا بالكتب إذ كان « يشتغل بالمطالعة والدرس بعد فراغه من أمور الدولة » . وبعد وفاته توسعت هذه المكتبة إذ أضيفت إليها مجموعتان أخريان من الكتب وهما مجموعة كوبريلي حافظ أحمد باشا وكوبريلي محمد عاصم بك . ويبلغ عدد المخطوطات فيها ٢٥٩٣ والقسم الأكبر منها باللغة العربية[٢] . وهذه المكتبة تعتبر أول مكتبة مستقلة من حيث البناء تؤسس في مدينة استانبول . أما فهرستها فقد تم إعداده من قبل الباحث التركي رمضان ششن ورفاقه وقد صدر في ثلاث مجلدات في سنة ١٩٨٦ من قبل مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول.

وهذه المكتبة ملحقة إداريا بمكتبة السليمانية[٣] .

---

(١) تاريخ التراث العربي : الأصل الألماني ١ : ٧٥٧ ، المترجم ١ : ٤٦، ٥٠.
Istanbul Kùtùphaneleri, 21 .

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ١ : ٤ - ١١.

(3) **Istanbul Kùtùphaneleri,** 47, Meydan, Larousse, VII, 547 .

٦ - مكتبة بايزيد الحكومية *Beyazit Devlet Kùtùphanesi*

تأسست هذه المكتبة في سنة ١٨٨٢ وهي تابعة إلى وزارة الثقافة ، وتعتبر أكبر مكتبة في تركيا لاحتوائها على ٣٣٥٨٠٢ كتاباً منها ١١١١٩ مخطوط[1] وقد ألحقت بها في العهد الجمهوري بعض المكتبات الصغيرة مثل مكتبة جودت باشا ومكتبة قره مصطفى باشا ومكتبة ولي الدين أفندي .

٧ - وإضافة إلى هذه المكتبات الكبيرة ، هناك مكتبات أخرى لا تقل أهمية عمّا ذكرناه ، منها :

ا - مكتبة نور عثمانية.

وهي ملحقة إداريا بمكتبة السليمانية وفيها ٥٠٥٢ مخطوطاً ، ولها فهرست قديم مطبوع في إستانبول .

ب - مكتبة حاجي سليم آغا للمخطوطات .

وهي ملحقة إداريا بمكتبة السليمانية وتقع في الجانب الشرقي من إستانبول، تمّ تأسيسها سنة ١٨٧٢ وفيها أكثر من ألفي مخطوط . وألحقت بها بعض المكتبات الصغيرة مثل كمانكش أمير خوجا .

جـ - مكتبة آتا ترك .

وهي تابعة لبلدية إستانبول وفيها ٣٢٠٠ مخطوط وألحقت بها بعض المكتبات الصغيرة التي تضم مخطوطات مثل مكتبة محمد جودت .

---

(1) **Istanbul Kùtùphaneleri,** 7 - 8 .

د - مكتبة عاطف أفندي .

تتبع إداريا مكتبة السليمانية وهي من أقدم المكتبات في إستانبول حيث أنشئت في سنة ١٧٤١ م وتضم ٣٢٢٧ مخطوطاً .

هـ - مكتبة متحف الآثار التركية والإسلامية .

وهي تابعة لوزارة الثقافة التركية وفيها ٤١٤٩ مخطوطاً . كما تضم ١٣٨٨٢ ورقة كتبت عليها آيات قرآنية مختلفة .

و - مكتبة مراد موللا (الملا مراد) .

وهي تحت إشراف مكتبة السليمانية ، وفيها ١٥٠٠ مخطوط .

ز - مكتبة جامع شيشلي .

أنشئت سنة ١٩٥٠ م وفيها عدد كبير من المخطوطات في الدين الإسلامي والتاريخ وليس لها فهارس .

ح - مكتبة وأرشيف إبراهيم حقي قونيالي .

تأسست في سنة ١٩٧٤ داخل جامع السليمية بحي السليمية ، وهي تابعة للمديرية العامة للأوقاف وفيها ٥٠٠ مخطوطة تتعلق بالدين والتاريخ .

ط - وهناك مكتبات أخرى تضم بين مقتنياتها مخطوطات عربية وشرقية منها على سبيل المثال : مكتبة معهد الدراسات الإسلامية ومكتبة معهد الدراسات التركية وهما تابعتان إلى كلية الآداب بجامعة استانبول ومكتبة كلية الحقوق بجامعة استانبول ومكتبة جريدة ترجمان التابعة إلى إدارة جريدة ترجمان اليومية

التي تصدر في تركيا على نطاق واسع . وهذه المكتبة الأخيرة فيها ١٨٧ مخطوطاً عربياً[١] .

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن هناك مكتبات أخرى تضم مخطوطات عربية أو شرقية في إستانبول ، لم نرصدها ، لعدم وجود فهارس لها ، كما أن هناك مكتبات خاصة لا نعرف عنها شيئاً .

(١) عن هذه المكتبات انظر :
Istanbul Kùtùphaneleri, 4, 22, 45, 48 - 51, 67, 136, 141, 146 .

كشـــاف

بأسماء المكتبات التركية وعناوينها

يضم هذا الكشاف أسماء المكتبات التي تحتوي على مخطوطات عربية في إستانبول وعناوينها وأوقات عملها . وقد استعنت في تثبيت أسماء هذه المكتبات بكتاب فؤاد سزكين(*) ، وما تيسر لدينا من فهارس المخطوطات التي صدرت عن هذه المكتبات . أما عناوينها فقد اقتبستها من كتاب مكتبات استانبول (Istanbul Kùtùphaneleri)، عسى أن يكون هذا العمل ، دليلاً لكل من يرغب في زيارة هذه المكتبات أو مراسلتها . وقد تركنا كلمة (مكتبة – Kùtùphane) من أسماء المكتبات . ومعظم المكتبات الملحقة بالمكتبات الكبيرة لها فهارس (دفاتر) أعدت ونشرت في العهد العثماني .

١ – إبراهيم أفندي Ibrahim Efandi

ملحقة بمكتبة السليمانية .

٢ – إبراهيم حقي قونيه لي Ibrahim Hakki Konyali Kùtùphanesi Ve Arşivi .

عنوانها :

Selimiye Camii - Selimiye, Istanbul .

٣ – أحمد الأول ← السلطان أحمد الأول.

٤ – أرزنجان Erzincan

ملحقة بالسليمانية .

٥ – إزميرلي إسماعيل حقي Izmirli Ismail Hakki ملحقة بالسليمانية .

٦ – أسعد أفندي Esat Efendi

ملحقة بالسليمانية .

(*) الأصل الألماني ١ : ٧٥٢ – ٧٦١ .

٧ – أسعد أفندي مدرسة سي (= مدرسة أسعد أفندي) Esat Efendi Medresesi .

وتسمى أيضًا شيخ الإسلام أسعد أفندي مدرسه سي .

ملحقة بالسليمانية .

٨ – أسمه خان سلطان Esmekan Sultan

ملحقة بالسليمانية .

٩ – آنطاليا ، وتسمى أيضًا : تكه لي أوغلي Antalya (Tekelioglu)

١٠ – آيا صوفيا Ayasofya

ملحقة بالسليمانية .

١١ – أيوب جامعي (جامع أيوب) Eyyùb Camii

ملحقة بالسليمانية.

١٢ – بايزيد Beyazit Devlet Kùtùphanesi

عنوانها : Imaret Sokak No: 18, Beyazit, Istanbul .

١٣ – برتو باشا Peretev Paşa

ملحقة بالسليمانية .

١٤ – برتونيال سلطان والده جامعي Peretevniyal Sultan Valide Camii .

ملحقة بالسليمانية .

١٥ – بغدادلي وهبي Bağdatli Vehbi

ملحقة بالسليمانية .

١٦ – البلدية ← أتاتورك .

١٧ – تكه لي أوغلو ← آنطاليا .

١٨ – تكية الشاذلي ← شاذلي تكه سي .

١٩ – تكية طاهر آغا ← طاهر آغا تكه سي .

٢٠ – تكية عشاقي ← عشاقي تكه سي .

٢١ – جار الله ولي الدين أفندي Carullah Veliyeddin Efendi

ملحقة بالسليمانية .

٢٢ – جامع أيوب ← أيوب جامعي .

٢٣ – جامع شيشلي Şişli Camii Kùtùphanesi

عنوانها : Şişli Camii, Sisli - Istanbul .

٢٤ – جامع محمد آغا ← محمد آغا جامعي .

٢٥ – جامعة إستانبول Istanbul Universitesi Kùtùphanesi

عنوانها : Besim Omer Paşa Cad. No. 15

Beyazit - Istanbul .

٢٦ - جـريدة ترجـمـان Tercùman Gazetesi Kùtùphanesi .

عنوانهـا : Tercùman Gazetesi, Topkapi Tesisleri. Topkapi - Istanbul .

٢٧ - حلبي عـبـد الله أفندي Celebi Abdullah Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٢٨ - جـودت باشا Cevdet Pasa

ملحقة بمكتبة بايزيد.

٢٩ - جـورليلي علي باشـا Çorlulu Ali Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٣٠ - جوروم Corum

ملحقة بالسليمانية.

٣١ - حاجي بشير آغا Haci Besir Aǧa

ملحقة بالسليمانية.

٣٢ - حـاجي سليم آغـا للمـخطوطات Haci Selimaga Yazma Eserler Kùtùphanesi .

عنوانها : ùskùdar - Istanbul .

٣٣ - حاجي محـمـود Haci Mehmut

ملحقة بالسليمانية .

٣٤ - حافظ أحمد باشا Hafiz Ahmet Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٣٥ - حالت أفندي (*) Halet Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٣٦ - حـسن حـسني باشـا Hasan Hùsnù Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٣٧ - حسن خيري Hasan Hayri

ملحقة بالسليمانية.

٣٨- حضرت خالد Hazreti Halid

ملحقة بالسليمانية.

٣٩ - حفيد أفندي Hafid Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٤٠ - حكيم أوغلي علي باشـا. Hekim oglu Ali Pasa

ملحقة بالسليمانية.

(*) نقل مترجم كتاب كارل بروكلمان الدكتور عبد الحليم النجار اسم هذه المكتبة إلى العربيـة بشكل (خـالد) (انظر : تاريخ الأدب العربي، القاهرة ١٩٧٧، ط ٤، جـ ١ ص ٢٠).

٤١ – حكيم أوغلي جامعي Hekim Oglu Camii

ملحقة بالسليمانية.

٤٢ – حميدية Hamidiye

ملحقة بالسليمانية.

٤٣ – خربوط إسكي خلق أوي Har-put Eski Halkevi

ملحقة بالسليمانية .

٤٤ – خسرو باشا Husrev Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٤٥ – دار المثنوي Darùlmesnevi

ملحقة بالسليمانية.

٤٦ – داماد إبراهيم باشا Damad Ib-rahim Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٤٧ – دنيزلي Denizli

ملحقة بالسليمانية.

٤٨ – دوكوملي بابا Dùgùmlù Baba

ملحقة بالسليمانية.

٤٩ – راغب باشا Ragip Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٥٠ – رئيس الكتاب مصطفى أفندي Reisùlkùttap Mustafa Efen-di

ملحقة بالسليمانية.

٥١ – رستم باشا Rùsteem Paşa

ملحقة بالسليمانية.

٥٢ – رشيد أفندي Resid Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٥٣ – زهدي بك Zùhdu Bey

ملحقة بالسليمانية.

٥٤ – سراز Serez

ملحقة بالسليمانية.

٥٥ – سرويلي Servili

ملحقة بالسليمانية.

٥٦ – السلطان أحمد الأول Sultan Ahmet 1.

ملحقة بالسليمانية.

٥٧ – سليم آغا – حاجي سليم آغا.

٥٨ – السليمانية Sùleymaniye Kùtùphanesi.

عنوانها : Ayse Kadin mah. Hamam Sok. No. 35. Istan-bul .

٥٩ – شاذلي تكه سي Sazili Tek-kesi

ملحقة بالسليمانية.

٦٠ – شهيد علي باشا Sehid Ali Pasa

ملحقة بالسليمانية.

٦١ شهزاده محمد Sehzàde Mehmet

ملحقة بالسليمانية.

٦٢ – صالحة خاتون Saliha Hatun

ملحقة بالسليمانية.

٦٣ – طاهر آغا تكه سي Tahir Aga Tekkesi

ملحقة بالسليمانية.

٦٤ – طرخـــان والده سلطان Turhan Valide Sultan

ملحقة بالسليمانية.

٦٥ – طرنوالي Tirnovali

ملحقة بالسليمانية.

٦٦ – طوب قابي سرايي – متحف طوب قابي سرايي.

٦٧ – عاشر أفندي Asir Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٦٨ – عاطف أفندي Atif Efendi .

عنوانها : Vela Cad. No. 44. Istanbul .

٦٩ – عـــشـــاقي تكه سي Ussaki Tekkesi

ملحقة بالسليمانية.

٧٠ – علي أميري أفندي Ali Emiri Efendi

ملحقة بمكتبة ملت .

٧١ – عمجه زاده حسين باشا Amuca Zade Hùseyin paşa

ملحقة بالسليمانية.

٧٢ – فـاتح جـامـعي (= جـامع الفـاتح) Fatih Camii

ملحقة بالسليمانية.

٧٣ – فـــيض الله أفندي Feyzullah Efendi

ملحقة بمكتبة ملت.

٧٤ – قـاضي زاده برهان الدين Kadizade Burhaneddin

ملحقة بالسليمانية.

٧٥ – قاضي زاده محمد أفندي Kadizade Mehmet Efendi

ملحقة بالسليمانية.

٧٦ – قـــره چلبي زاده حـــســـام الدين Karaçelebizade Hùsamettin

ملحقة بالسليمانية.

٧٧ – قره مصطفى باشا Kara Mustafa Pasa

ملحقة بمكتبة بايزيد .

٧٨ – قـصـيدة جي زاده سليمـان سـري Kasidecizade Sùleyman Sirri

ملحقة بالسليمانية.

٧٩ – قليج علي باشا Kiliç Ali Pasa
ملحقة بالسليمانية.

٨٠ – قنديللي رصدخانه سي Kandilli Rasadhanesi Kùtùphanesi
عنوانها : çengelkoy - Istanbul.

٨١ – كلية الحقوق Hukuk Fakùltesi Kùtùphanesi
عنوانها : Istanbul Universitesi, Merkez binasi, Beyazit, Istanbul.

٨٢ – كمانكش أميرخوجا
Kemankeş Emir Hoca
ملحقة بمكتبة حاجي سليم آغا .

٨٣ – كوبريلي Kōprùlù Kùtùphanesi
عنوانها : Divanyolu, No. 29, çemberlitas - Istanbul .

٨٤ – كوبريلي فاضل أحمد باشا – كوبريلي.

٨٥ – كوبريلي محمد باشا – كوبريلي.

٨٦ – كولنوش والده سلطان Gùlnùs Valide Sultan
ملحقة بالسليمانية.

٨٧ – كَيرسون Giresun
ملحقة بالسليمانية.

٨٨ – لالا إسماعيل أفندي Lala Ismail Efendi
ملحقة بالسليمانية.

٨٩ – لاله لي Laleli
ملحقة بالسليمانية.

٩٠ – متاحف الآثار فى إستانبول Istanbul Arkeoloji Mùzeleri Kùtùphanesi
عنوانها : Sultan Ahmet, 20, Istanbul .

٩١ – متحف الآثار التركية والإسلامية
Tùrk ve islam Eserleri Mùzesi
عنوانها : Şifahane Cad. No. 6, Sùleymaniye - Istanbul .

٩٢ – متحف طوب قابي سرايي
Topkapi Sarayi Mùzesi Kùtùphanesi .
عنوانها : Sultan Ahmet - Istanbul .

٩٣ – المتحف العسكري Askeri Mùze Kùtùphanesi
عنوانها : Askeri Mùze Harbìye - Istanbul .

٩٤ – محمد آغا جامعي Mehmet

Aga Camii

ملحقة بالسليمانية .

٩٥ – محمد جودت

Mehmet Cevdet

ملحقة بمكتبة آتاتورك .

٩٦ – محمد عارف Mehmet Arif

ملحقة بالسليمانية.

٩٧ – محمود باشا Mahmut Pasa

ملحقة بالسليمانية .

٩٨ – مراد بخاري Murat Buhari

ملحقة بالسليمانية.

٩٩ – مـراد مـلا Murat Molla

Halk Kùtùphanesi

وتسمى أيضًا (داماد زاده قاضي عسكر محمد مراد)

Damadzade Kadiasker Mehmet Murat

عنوانها : Murat Molla Sok. No. 12, çarsamba, Istanbul .

١٠٠ – مرصد قنديللي ⟵ قنديللي رصدخانه سي .

١٠١ – مسيح باشا Mesih Pasa

ملحقة بالسليمانية.

١٠٢ – مصلى مدرسه سي Musalla Medresesi

ملحقة بالسليمانية.

١٠٣ – معهد الدراسات الإسلامية

Islam Arastirma Enstitusù Kùtùphanesi

عنوانها : Istanbul Universitesi, Edebiyat. Fakùltesi - Istanbul .

١٠٤ – معهد الدراسات التركية

Tùrkiyat Enstitùsù Kùtùphanesi

عنوانها : Kimyager Dervis Paşa Sok - Beyazit - Istanbul .

١٠٥ – ملا جلبي Molla çelebi

ملحقة بالسليمانية

١٠٦ – ملّت (= مكتبة الأمة) Millet Kùtùphanesi

عنوانها : Macar Kardesler Cad. No. 85, Fatih - Istanbul.

١٠٧ – مهرشاه سلطان Mihrisah Sultan

ملحقة بالسليمانية.

١٠٨ – نافذ باشا Nafiz Paşa

ملحقة بالسليمانية.

١٠٩ – نور عثمانية

Nuruosmaniye Kùtùphanesi

عنوانها : Nuruosmaniye . Ca-

mii, çagaloǧlu - Istanbul.

١١٠ – هاشم باشا Hasim Pasa

ملحقة بالسليمانية.

١١١ – ولي الدين أفندي Veliyed-din Efendi

ملحقة بمكتبة بايزيد.

١١٢ – يحيى أفندي Yahya Efen-di

ملحقة بالسليمانية.

١١٣ – يحيى توفيق مدرسة سي (= مدرسة يحيى توفيق) Yahya Tevfik Medresesi

ملحقة بالسليمانية

١١٤ – يكي جامع (= يني جامع) Yeni Cami

ملحقة بالسليمانية.

١١٥ – يكي مدرسة (= يني مدرسة) Yeni Medrese

ملحقة بالسليمانية.

١١٦ – يوزغات Yozgat

ملحقة بالسليمانية.

١١٧ – يوسف آغا Yusuf Aga

ملحقة بالسليمانية.

استدراك

١١٨ – آتاترك Atatùrk Kitapligi

عنوانها : Mete Cad. No. 8, Taksim - Istanbul .

١١٩ – أحمد الثالث ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٠ – أمانت خزينة سي ⟵ متحف طوب قابي .

١٢١ – أندرون – متحف طوب قابي .

١٢٢ – بغداد كوشكي ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٣ – تريال خانم ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٤ – الخزينة ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٥ – روان كوشكي ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٦ – فوغوشلر ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٧ – محمد رشاد ⟵ متحف طوب قابي .

١٢٨ – المدينة ⟵ متحف طوب قابي .

* * *

فهرس
أعلام « شرح المفصل » لابن يعيش

د . عبد الإله نبهان*

شرح ابن يعيش على «مفصل» الزمخشري أكثر الشروح تداولاً وانتشاراً، ومعلوم أن الإفادة من تراثنا لن تتحقق دون فهرسته .

وقد نشر عاصم البيطار فهارس لهذا الشرح، لكنها خلت من فهرس للأعلام، وهذا ما صنعه د. عبد الإله نبهان، في محاولة منه لإكمال عمل سالفه .

ولاشك أن مثل هذا الفهرس يساعد في تتبع آراء النحاة، وأصحاب الشواهد .

* من كلية الآداب – جامعة البعث بحمص (سورية) ، نشر المعهد له : «غوامض الصّحاح» للصَّفَدي .

كتاب المفصَّل في علم العربية للزمخشري محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) من كتب تعليم النحو والصرف التي سادت حلقات التدريس أجيالاً مديدة ، وقام عشرات الشرّاح وكتبوا فيه الشروح المبسوطة والموجزة ، وتجاوزت شروحه ثلاثين شرحاً .

وأشهر شروحه وأكثرها تداولاً وأشدها انتشاراً شرح ابن يعيش النحوي الحلبي (ت ٦٤٣هـ) وذلك لأن شرحه كان صرحًا وثيق البنيان ، شاملاً للنحو العربي بأُصوله وقواعده وعلله ومسائله وخلافات أئمته ومجادلاتهم، مشتملاً على شواهده من القرآن الكريم والحديث والأثر وشعر العرب وكلامهم .

وقد عرف معاصروه فضْلَه فقال فيه القفطي : «وشرحَ – أي ابن يعيش – كتاب المفصّل للزمخشري فوصل به ما فصّله ، وفرّق على المستفيدين ما أجمله، واستقى له من ركيّة النحو ما جُمّ له، وشرّفه بعنايته وإعانته فنوّه بذكره وجمّله، وبسط فيه القول بسطاً أعيا الشارحين، وأظهر من عُونِه وعيونه ما فتح به بابًا للمادحين» ، وفضّله القفطي على الشروح الأُخرى .

ومهما كان الأمر فإن شرحه مايزال حتى يومنا هذا مرجعًا لأساتذة العربية وعلماء النحو ، فهو الكتاب الثقة الذي يُعتمد عليه ويُحتجّ به، وله مكانة الموسوعة النحوية ومنزلتها نظراً لجليل ما اشتمل عليه وغزارته ودقته وجمال عرضه ونداوة أسلوبه .

نُشر هذا الشرح في ليبسك ، واستغرق نشره عشر سنوات ١٨٧٦ – ١٨٨٦م باعتناء الأستاذ ياهن، وجعله في عشرة أجزاء .

ثم نشر في مصر في إدارة الطباعة المنيرية وكتب عليه أنه «صُحّح وعُلّقت عليه حواشٍ نفيسة بعد مراجعته على أصول خطيّة بمعرفة مشيخة الأزهر

المعمور» ، ولم يذكر تاريخ طباعته لا في الجزء الأول ولا الأخير . وهذه الطبعة المصرية، وما صوّر عنها في لبنان ، هي الطبعة المتداولة اليوم بين أهل العلم وطلبته، وهي المقصودة في إحالات العلماء والدارسين ، لذلك وجب أن يعتنى بفهرستها لتيسير مراجعتها وتسهيل الانتفاع بها ، فأصدر الأستاذ عاصم بهجة البيطار كتابه فهارس شرح المفصّل ، فهرسَ فيه الآيات والأحاديث والأشعار والأرجاز والأمثال والأقوال وموضوعات الكتاب بحسب تسلسلها في الأجزاء، ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٩٠م .

وقد رأينا أن نكمل ما بدأه الأستاذ الفاضل عاصم البيطار في خدمة هذه المعْلَمة الشامخة للنحو العربي ، فصنعنا فهرسًا لأعلام الكتاب ، لأن مثل هذا الفهرس يساعد على تتبع آراء النحاة ، ويفيد في تتبع أصحاب الشواهد ، وله فوائد أخرى عديدة يعرفها أصحاب هذه الصناعة .

الفهـــــرس

---

(١) ذكر في الشعر باسم الأخيطل .

(١) ذكر باسم ابن صقر وصحح نقلاً عن مخطوط الإدغام الكبير لأبي عمرو بن العلاء – نسخة أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ .

(١) ذكر هنا اسم الفوري ، وأظنها محرفة طباعيًا عن الجوهري .

(١) في هذا الموضع بيت نسبه ابن يعيش لرؤبة بينما نسبه سيبويه ١ : ١٦١ إلى هنيّ بن أحمر .

(٢) ذكر رؤبة ههنا بصفته قارئاً .

« ز »

---

(١) ذُكر الزمخشري في كل صفحة من صفحات الشرح باسم صاحب الكتاب، وقد نصصنا ههنا على المواضع التي ذُكر فيها باسمه صراحة .

---

(١) ذكر خطأً باسم : ابن هبيرة .

(١) هكذا ذُكر، وصوابه ابن جبير، انظر ابن جبير في حرف الجيم .

---

(١) هكذا ورد في الكتاب ، ولعل الكلمة مصحفة عن الجوهري .

---

(١) ورد في ١ : ٤٣ محمد بن الحسن لمجرد التمثيل .

(١) ورد اسمه ﷺ في هذا الموضع مع نسبه.

(١) هكذا ورد ، وصوابه ابن سيده .

(٢) هكذا ذكر العلامة الشارح ولم ينص على اسم الشاعر في المواضع التالية . وقد تتبعناها ورأينا أن المعنيّ بالهذلي لديه هو أبو ذؤيب غالباً .

(٣) أبو ذؤيب – ديوان الهذليين ص ٦ .

(٤) أبو ذؤيب – ديوان الهذليين ص ٥٣ .

(١) العبارة المحتجّ بها وردت في شعر أبي ذؤيب . انظر شرح ديوان الهذليين ٢ : ٢٢٧ وفي شعر مالك بن خالد الخناعي الهذلي، انظر شرح ديوان الهذليين ١ : ٤٤٣ .
(٢) أبو ذؤيب . انظر ديوان الهذليين ص ٥٦ .
(٣) صدر الشاهد لصخر الغيّ الهذلي كما في شرح ديوان الهذليين ١ : ٢٨٦ والشاهد بتمامه في ديوان عبيد ص ٤٩ .
(٤) أبو ذؤيب – ديوان الهذليين ص ١٢٤ .

* * *

الأثر الظاهر في وجه القمر لابن الهيثم

تقديم وتحقيق :
د. يوسف زيدان*

هذه رسالة من تراث أبي الحسن ابن الهيثم ، الذي مازال مخطوطًا . وهي تعالج موضوعًا طريفًا معالجة علمية ، وهذا الموضوع هو : تعليل الظلال التي نراها في القمر ، ويخلص ابن الهيثم إلى القول : إن الأثر الذي يظهر في وجه القمر ، هو لون القمر الذي يخصه ، ممتزجًا بالضوء الذي يحصل .

والنسخة التي اعتمدت في التحقيق نسخة فريدة ، تحتفظ بها مكتبة بلدية الإسكندرية .

---

* من كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

كلنا نعرف اسم (ابن الهيثم) ونردد ما معناه : هو أحد كبار العلماء في تاريخ الإنسانية ، قَدَّم الكثير من النظريات المهمة في البصريات ، وكان صاحب فكرة إنشاء السد العالي بمصر لكنه أحجم عن تنفيذها لصعوبة ذلك بأدوات عصره ، وكان صاحب انقلاب ثوري في نظرية الضوء والإبصار ، توفي سنة ٤٣٢ هجرية (على أرجح الأقوال) .

هذا كل ما نعرفه - تقريبًا - عن ابن الهيثم ، أما علوم الرجل ، ونظرياته (الثورية) وبحوثه في الفلك والرياضيات والطب والبصريات ، فلا نكاد نعلم عنها شيئًا ... وأشك أنه في بلادنا كلها مثقف واحد قرأ أعمال ابن الهيثم . وكيف لهذا المثقف أن يقرأ هذه الأعمال ، وأغلبها مخطوطات لم تنشر ؟

لقد قرأتْ أوروبا أعمالَ ابن الهيثم ، وترجمت معظمها إلى اللاتينية في عصر النهضة ، واستكمل العلماء هناك تلك البحوث العلمية ، فوصل الغرب إلى ما وصل إليه ... وظللنا نحن فيما نحن فيه ، نتفاخر بإسهامات الحضارة العربية ، دون أن ندري شيئًا عن حقيقة هذه الإسهامات .

على أي حال ، تلك إحدى رسائل ابن الهيثم العلمية التي ظلت (منذ ألف عام) مخطوطة لم تنشر . وهي تعالج موضوعًا طريفًا ، هو تعليل تلك الظلال التي نراها في القمر ... وقد رأينا أن ننشر هذا النص على الناس ، ونحن في عصر العلم ، ليروا كيف كان (العلم) منذ ألف سنة ، على يد ابن الهيثم : منهجيًا، رصينًا ، دقيقًا إلى أبعد حدود الدقة والموضوعية .

يناقش ابن الهيثم في هذه الرسالة ، أقوال السابقين عليه ، ويفنِّدها قولاً قولاً ، ثم يقدم نظريته المفسرة للأثر الظاهر في وجه القمر . ولا ينبغي لنا ونحن نقرأ هذا النص ، أن نحاكم ابن الهيثم وفقًا لما انتهى إليه العلم المعاصر ، بل

يجب أن نقدِّر أن الرجل كتب ذلك من ألف سنة مضت ، بمنهج لا يزال جديراً بالاعتبار .

والمخطوطة الفريدة التي اعتمدنا عليها هنا ، محفوظة بمكتبة بلدية الإسكندرية التي نقوم اليوم بفهرستها ، وهي نسخة خطية كتبت في القرن العاشر الهجري تقديراً ، وهي - كمعظم المخطوطات - تخلو من علامات الترقيم، وبعض كلماتها غير منطوقة، والهمزات غير موجودة ... إلى آخر هذه الأشياء التي عانينا منها عند قراءة المخطوطة . ومع ذلك ، فهي نسخة كاملة ، حالتها جيدة نوعًا ما ، نقدمها هنا محققةً ، للمرة الأولى ، لعلها تكون فرصة لمعرفة صفحة واحدة من كتاب العلم العربي(*) .

(*) المخطوطة محفوظة في مجلد برقم ٢٠٩٦ / د (بلدية الإسكندرية). تقع في تسع أوراق (الورقة صفحتان) مقاس ٢٠ × ١٥ سم ، بأوراقها آثار رطوبة قديمة . وهي مجلدة تجليداً حديثاً ، والظاهر أنها كانت ضمن مجموعة - إذ تحمل الورقة الأولى منها رقم ٤٧ - وتم فصلها عند التجليد . وقد كتب أحدهم على صفحة العنوان ، بقلم رصاص : تأليف الإمام المذكور ، بدون تاريخ ومكتوبة بقلم نسخ! وأسفل الورقة ختم : كتبخانة مجلس بلدي إسكندرية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم قد اختلف اهل النظر في مائية الاثر الذي يظهر
في وجه القمر وهذا الاثر اذا تومل واعتبر وجد دايما على صفة واحدة لا يتغير لا في
شكله ولا في وضعه ولا في مقداره ولا في كيفية سواده وقد تصرفت ظنون الناس فيه
وتشتت اراهم فراى قوم انه في نفس جرم القمر وراى قوم انه خارج عن جرم القمر ومتوسط
بين جرم القمر وبين ابصار الناظرين اليه وراى قوم انه صورة تظهر بالانعكاس لان سطح
القمر صقيل فاذا نظر اليه الناظر انعكس شعاع بصره عن سطح القمر الى الارض كما
ينعكس عن سطوح المرايا فظهر له صورة الارض او بعضها وقال قوم انه صورة البحار
التي في الارض ترى بالانعكاس وقال قوم انه صورة الجبال التي في الارض وقال قوم
انه صورة قطعة من الارض التي يقع عليها الشعاع المنعكس فاما من قال ان الاثر هو
الشي المتوسط بين البصر وبين جرم القمر فيعتقد ان القمر يجتذب من الارض بخارا اما لخاصية
فيه فيرتقي البخار وينعقد ويكون ابدا تحت القمر ويكون ابدا على صفة واحدة فلذلك
لا يتغير شكله ولا مقداره ولا وضعه من القمر فاما من قال انه في نفس جرم القمر فانهم
اختلفوا فقالت طايفة منهم انه شفيف يسير في جسم القمر فاذا نظر الناظر اليه راى
ما وراه فيمتزج صورة الضو الذي في موضع الشفيف بصورة السما التي من وراء
القمر فيظهر مخالفا للون الذي في بقية جرم القمر وقال قوم هو خشونة في الموضع وجرم
القمر صقيل فاذا اشرق عليه ضو الشمس لم يقبل الموضع الخشن الضو كما يقبله الصقيل
ويمكن ان يقال ان موضع الاثر خشونة بارزة واجزاوها شاخصة واذا اشرقت عليها الشمس
صارت لاجزا الخشونة اظلال على ما يليها من سطح القمر فيظلم موضع الظل والاثر الذي
في القمر هو اظلال لاشخاص الخشونة ويمكن ان يقال ان في جسم القمر تقعيرا فاذا اشرق عليه
ضو الشمس صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير والاثر هو ظل محيط التقعير ويمكن
ان يقال ان في السما موضعا او مواضع فيها بعض الكثافة كما ان المجرة فيها بعض
الكثافة الا ان في المجرة ضوا ما وليس في تلك المواضع ضو ولذلك ليس يظهر وان موضعا
من تلك المواضع متوسط بين الشمس والقمر فاذا اشرق ضو الشمس على القمر كان لذلك
الموضع ظل على سطح القمر والاثر هو ظل الموضع الكثيف من السما وجميع هذه الاراء تبطل
وتضمحل

الضوء الذي فيه قويا وإذا أشرق عليه ضوء ضعيف ظهر لونه قويا أعني أشبع وأظلم
من لونه إذا أشرق عليه ضوء قوي وبقي الضوء الذي فيه ضعيفا وعلة ذلك هي أن كل
ضوء يدركه البصر في جسم متلون فهو يدركه ممتزجا بالضوء الذي في ذلك الجسم وللقمر لون
يخصه يظهر في وقت كسوفه وخاصة إذا انكسف جميعه ويظهر أيضا في وقت كسوف
الشمس وخاصة إذا انكسف جميعها أو معظمها وهو لون مظلم وهو كأنه سواد تشوبه
حمرة وإذا اعتبر القمر في وقت كسوفه وجد لونه على ما ذكرناه وأيضا فإن القمر في الليلة
الثانية والثالثة من الشهر تظهر استدارته ويظهر محيطه مضيئا ويظهر جرمه في
وسط الاستدارة مظلما فلون القمر الذي يخصه هو لون مظلم والضوء الذي يظهر فيه
في سائر الأوقات إنما هو الضوء الذي يستفيده من الشمس إذا أشرقت عليه والضوء
الذي يحصل فيه من الشمس هو ضوء قوي والقوة القابلة للضوء الذي فيه هي في غاية
القوة وأقوى من القوة القابلة التي في الأجسام الأرضية فلفرط قوة الضوء الذي
فيه وفرط القوة القابلة فيه خفي لونه المظلم الذي يخصه ومع ذلك فإن لونه قد
كثف الضوء الذي حصل فيه ولولا ظلمة لونه لكان ضوؤه أقوى مما هو عليه يدل
على ذلك ما يظهر من ألوان الأجسام الأرضية إذا أشرق عليها ضوء الشمس ولأن
الضوء الذي في موضع الأثر ضعيف وليس هو في قوة الضوء الذي في بقية سطحه
وجب أن يتلوح لونه الذي يخصه في هذا الموضع ممتزجا بالضوء الذي فيه ولأن الضوء
الذي في هذا الموضع ليس هو في غاية الضعف وجب أن يظهر اللون خفيا فالأثر الذي
يظهر في وجه القمر هو لون القمر الذي يخصه ممتزجا بالضوء الذي يحصل فيه وإنما
ظهر في هذا الموضع دون بقية سطح القمر لأن الضوء الذي في هذا الموضع أضعف
من الضوء الذي في بقية سطح القمر وضعف الضوء الذي في هذا الموضع إنما هو لضعف
القوة القابلة للضوء التي في هذا الموضع وضعف القوة القابلة التي في هذا الموضع صح
إنما هو لزيادة كثافة هذا الموضع على كثافة بقية ما يظهر من سطح القمر وذلك ما
قصدنا تبيينه في هذه المقالة. تمت المقالة في الأثر الظاهر في وجه القمر من
• قول الحسن بن الحسن بن الهيثم، والحمد لله رب العالمين وصلى
• الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو علي الحسن بن الحسن[١] بن الهيثم :

قد اختلف أهلُ النظر في ماهية[٢] الأثر الذي يظهر في وجه القمر . وهذا الأثر إذا تؤمِّل واعتُبر ، وُجد دائمًا على صفةٍ واحدةٍ ، لا يتغير : لا في شكله ، ولا في وضعه ، ولا في مقداره ، ولا في كيفية سواده . وقد تصرّفت ظنونُ الناسِ فيه ، وتشتّتت آراؤهم[٣] ؛ فرأى[٤] قومٌ أنه في نفس جرم القمر ، ورأى قومٌ أنه خارجٌ عن جرم القمر ومتوسِّطٌ بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين إليه ، ورأى قوم أنه صورةٌ تظهر بالانعكاس – لأن سطح القمر صقيل ، فإذا نظر إليه الناظرُ ، انعكس شعاعُ بصرِهِ عن سطح القمر إلى الأرض ، كما ينعكس عن سطوح المرايا ، فتظهر[٥] له صورةُ الأرض ، أو بعضها . وقال قومٌ إنه صورة البحار

---

(١) في بعض المصادر ، كعيون الأنباء ، اسمه : أبو علي محمد بن الحسن ! وهو خطأ ، لأن «محمد» لا يكتى بأبي علي ، بل يُكنى بذلك مَنْ كان اسمه «الحسن» . وقد عُرف ابن الهيثم في الغرب ، منذ العصور الوسطى ، باسم الهازن Alhazen (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : ابن الهيثم) وهو ما أحدث تداخلاً بينه وبين عالم عربي آخر هو : الخازن .

(٢) في المخطوطة : ماثية .

(٣) في المخطوطة : أراءهم !

(٤) في الهوامش التالية سنذكر الأخطاء التي وردت في المخطوطة مسبوقة برمز (خ) ، مع ملاحظة أن جميع الهمزات ساقطة ، ولكثرة ذلك فلن نذكره فيما يلي.

(٥) خ : فيظهر .

التي في الأرض ، تُرى بالانعكاس . وقال قوم إنه صورة الجبال التي في الأرض. وقال قوم إنه صورة قطعةٍ من الأرض ، التي يقع عليها الشعاع المنعكس .

فأما مَنْ قال إن الأثر هو الشيء المتوسط بين البصر وبين جرم القمر ، فيعتقدُ أن القمر يجتذب من الأرض بخاراً ما(١) ، بخاصيةٍ فيه ، فيرتقي البخارُ وينعقدُ ، ويكون أبداً تحت القمر ، ويكون أبداً على صفةٍ واحدةٍ ، فلذلك لا يتغيَّر شكلُه ، ولا مقدارُه ، ولا وضعُه من القمر .

وأما (٢) من قال إنه في نفس جرم القمر ، فإنهم اختلفوا .. فقالت طائفةٌ منهم إنه شفيفٌ يسيرٌ في جسم القمر ، فإذا نظر الناظرُ إليه ، رأى ما وراءه ، فتمتزج(٣) صورة الضوء الذي في موضع الشفيف ، بصورة السماء التي من وراء القمر ، فيظهر مخالفاً للَّون الذي في بقية جرم القمر .

وقال قومٌ هو خشونةٌ في الموضع ، وجرم القمر صقيلٌ ، فإذا أشرق عليه ضوء الشمس ، لم يقبل الموضعُ الخشنُ الضوءَ ، كما يقبله الصقيل ؛ ويمكن أن يقال إن موضعَ الأثرِ خشونـةٌ بارزةٌ ، وأجزاؤها شاخصة ، وإذا أشرقت عليها الشمسُ ، صارت لأجزاء الخشونة ظلالٌ (٤) على ما يليها من سطح القمر ، فيظلم موضع الظل ؛ والأثر الذي في القمر هو إظلالُ أشخاص الخشونة .

ويمكن أن يقال إن في جسم القمر تقعيراً ، فإذا أشرق عليه ضوءُ الشمس، صار لمحيط التقعير ظلٌّ على باطن التقعير ؛ والأثر هو ظلُّ محيط التقعير. ويمكن

(١) خ : أما .

(٢) خ : فاما .

(٣) خ : فيمتزج ! .

(٤) خ : اظلال .

أن يقال إن في السماء موضعًا ، أو مواضع ، فيها بعض الكثافة ، كما أن المجرة فيها بعض الكثافة ؛ إلا أن في المجرة ضوءًا ما ، وليس في تلك المواضع ضوء ؛ ولذلك ليس يظهر . وإن موضعًا من تلك المواضع متوسط بين الشمس والقمر، فإذا أشرق ضوء الشمس على القمر ، كان لذلك الموضع ظلٌّ على سطح القمر ؛ والأثر هو ظلُّ الموضع الكثيف من السماء .

وجميعُ هذه الآراء تبطلُ وتضمحلُّ عند تحقيق النظر ، ونحن نبيِّنُ فساد جميع هذه الآراء ، ثم نبيِّنُ بعد ذلك ماهية هذا الأثر :

أما رأيُ مَنْ رأى أنَّ الأثر خارجٌ عن جِرْم القمر ، وأنه بخارٌ يجتذبه القمر من الأرض ، وأنه متوسطٌ بين البصر وبين جرم القمر ... فإنه ظاهرُ الفساد! وذلك أنه لو كان الأمر كذلك ، لكان يختلف موضعُ الأثر من سطح القمر عند المواضعِ المختلفة من الأرض في وقتٍ واحدٍ ؛ لأنَ كل جسمٍ متوسطٍ بينِ البصر والمُبْصَرِ ، فإن له اختلافَ منظر، وليس يوجد الأمرُ كذلك ، بل يوجد الأمر : إذا نُظر إليه في الليلةِ من أول الليل إلى آخره ، من المواضع المختلفة من الأرض ، رُؤيَ في موضعٍ واحدٍ بعينه من سطح القمر ، فلو كان الجسم المتوسطِ في نفس جسمِ السماء ، أيضًا ، لا في الهواء ، بَعْدَ أن يكون بينه وبين القمرِ بُعْدٌ ما ، لم يكن بدٌّ من أن يتغير موضعه من سطح القمر في الرؤية ، إذا نُظر إليه من موضعين مختلفين من الأرض ، وخاصةً إن كان البعد الذي بين الموضعين بعدًا متفاوتًا . فأما إذا كان المتوسط في الهواء ، ونُظر إليه في وقتٍ واحدٍ من موضعين من الأرض ، يكون البُعد الذي بينهما متفاوتًا ، وأُدرك الأثَرُ من أحد الموضعين في وسط سطح القمر ، فإنه من الموضع الآخر يرى خارجًا عن جرم القمر ، ولا يرى في القمر شيء من الأثر ، لأن الجسم المتوسط بين البصر والمُبْصَر ، كلما كان أبعد عن المُبْصَر، كان اختلاف منظره أكثر . وأيضًا ؛ فإنه

إذا كان الأثر بخاراً يجتذبه القمرُ وكان وضعه – أبداً – من القمر وضعًا واحداً؛ فإنه إذا كان القمر قريبًا من الأفق ، ونظر الناظر إليه ، فليس يكون ذلك البخارُ متوسطًا بين بصر الناظر وبين القمر ؛ وإن كان متوسطًا بين بصره وبين القمر ، فليس يكون موضعه من القمر هو موضعه الذي كان يراه ذلك الناظر في وقت كونِ القمر في وسط السماء ، أو قريبًا من الوسط ، من أجل اختلاف المنظر ، فليس الأثر الذي في القمر لشيء متوسطٍ بينه وبين القمر .

فأما مَنْ رأى أنه صورة تظهر بالانعكاس ، فإنه يبطُل بما نذكره : وهو أن الانعكاس يكون على زوايا متساوية تحدث بين خطوط الشعاع وبين السطح الصقيل ، وإذا كان ذلك كذلك ؛ فإن القمر إذا اختلف وضعه من البصر، اختلفت زوايا الانعكاس التي تحدث بين خطوط الشعاع الخارجة من البصر وبين سطحه، وكلما بَعُدَ القمر من وسط السماء ، اتسعت الزوايا التي تحدث بين الخطوط الأُوَل التي تخرج من النظر إلى القمر ، وبين الخطوط المنعكسة عنها؛ وإذا اتّسعت هذه الزوايا، تغيَّرت المواضع التي ينتهي إليها الشعاع المنعكس. فإن كانت هذه الشعاعات تنتهي إلى سطح الأرض ، فإنما تنتهي إلى مواضع مختلفة من الأرض ، وإذا كانت الشعاعات تنتهي إلى مواضع مختلفة من الأرض ؛ وكان الأثر إنما هو صورةُ البخار وصورةُ الجبال ، فقد كان يجب أن يختلف شكل الأثر ! لأن أشكال الجبال وأشكال محيطات البحار في المواضع المختلفة من الأرض ، مختلفةٌ، وليس يوجد شكلُ الأثر في الأوقات المختلفةِ ، مختلفًا ؛ وقد كان يلزم أن يعرض هذا الاختلاف في الليلة الواحدة، عند البصر الواحد ، لأنه كلما بَعُدَ القمر من سمت الرأس ، تغيرت أوضاع الشعاعات

الخارجة إليه [1] من البصر ، واتّسعت الزوايا التي بين الشعاعات الأُوَل، وبين الشعاعات المنعكسة . وأيضاً ، فإنه إذا قُرُبَ القمرُ من أفق المغرب ، أو كان قريبًا من أفق المشرق ؛ فإن الشعاعات التي كانت تنعكس إلى الأرض تصير خارجةً عن الأرض ، لأنه إذا كان القمرُ قريبًا من الأفق ، تكون الشعاعات الخارجة إليه من البصر مائلةً جدًا عن سطحه ، فتكون الشعاعات المنعكسة عنها مائلةً أيضًا عن سطحه ، شديدةَ الميل ، ويكون ميلُ الشعاعات المنعكسة، إلى ضدِّ الجهة التي فيها الأرض ؛ فيلزم من ذلك ، ألا تقع الشعاعات على سطح الأرض، فيلزم من ذلك أن يكون القمر : إذا كان قريبًا من الأفق – أيَّ جهةٍ كان من جهات الأفق – ألا يظهر فيه شيء من الأثر ، إن كان الأثر هو صورة الأرض ، أو البحارِ[2] ، أو الجبالِ ، أو شيءٍ من الأرض يظهر بالانعكاس؛ وليس يوجد الأمر كذلك ! بل يوجد الأثرُ الذي في القمر ، أبداً في القمر ، في موضعٍ بعينه من سطح القمرِ ، كان القمرُ في الأفق ، أو في وسط السماء ، أو فيما بين ذلك . وأيضًا ، فإنه إذا كان ميلُ القمر على سمت الرأس ، وكثيراً ما يعرض ذلك في المواضع التي عَرْضُها أقل من المُجْتَمع من غاية ميل الشمس مع غاية عرض القمر ، فإن شعاع البصر الذي يخرج إلى وسط سطح القمر يكون عموديًا [3] على سطح القمر ، فينعكس على نفسه ، فيرجع إلى البصر ، ولا يدرك به شيء من سطح الأرض ؛ وتكون الشعاعات الخارجة إلى بقية سطح القمر ، ينعكس أكثرها إلى مواضع خارجة عن الأرض ، وهى الشعاعات التي

(١) الكلمة في هامش المخطوطة ، مما يعني أن النسخة قوبلت على نسخة أخرى .

(٢) خ : البخار .

(٣) خ : عموداً .

تنعكس من محيط القمر من المواضع البعيدة عن وسطه، والتي تنعكسُ إلى الأرض ، إنما تنعكس من وسط سطح القمر ، ومن حواليْ القمر ، فتكون الصورة التي تظهر ، إنما تظهر في وسط سطح القمر فقط! فلو كان الأثر الذي يرى في القمر ، هو صورة تظهر بالانعكاس ، لقد كان يجب أن تُرى الصورة في وقت كون القمر على سمت الرأس في وسط سطح القمر فقط؛ وليس يوجد الأمرُ كذلك ، أعني أنه ليس يوجد الأثرُ في وقتٍ من الأوقات في وسط سطح القمر فقط، فليس الأثرُ الذي في القمر ، صورةً تظهر بالانعكاس.

وأما رأيُ مَنْ رأى أن الأثر في نفس جرم القمر ، وأنه شفيفٌ يسيرٌ في جرم القمر ، فإنه يُنْتَقَضُ بكسوف الشمس ، وذلك أن كسوف الشمس إنما هو بتوسُّط القمر بين الأرض وبين جرم الشمس ، فتستتر الشمس بالقمر . فإن استتر جميعُها ، انكسف جميعُها ؛ وإن استتر بعضُها ، انكسف ذلك البعض. وهذا المعنى يظهر بالحس ظهوراً بيِّناً ، لأنه إذا انكسفت الشمسُ ونظر إليها ناظرٌ، فإنه يجد جرم القمر في وجه الشمس ؛ ومتى اعتُبر ذلك ، وُجِدَ على ما ذكرنا... فإن لم يستطع الناظرُ النظرَ إلى الشمس ، فإنه إذا وضع طستًا في موضع مُنْكسِف الشمس ، وسكب فيه ماءً صافيًا، وصبر إلى أن يسكن الماء؛ ثم نظر في الماء ، فإنه يرى القمر بالانعكاس ، ويجده في وجه الشمس؛ ولأن كسوف الشمس إنما هو بالقمر ، صار المقدار المنكسف من الشمس يختلف عند المواضع المختلفة من الأرض ، من أجل اختلاف منظر القمر ، لأنه متوسطٌ بين الأرض [1] وبين جرم الشمس ؛ فلو كان الأثر الذي في القمر هو شفيفٌ في جسم القمر ، لكان ما يكسف الشمسَ ، ولكان ضوء الشمسِ يظهر من

(١) خ : القمر .

وراء نورِ القمر في وقت الكسوف ؛ وإذا لم يظهر ظهوراً بيِّناً ، فإنه قد كان يظهر شفيفُ القمر ، إذا كان في وجه الشمس – وإن كانَ شفيفُه يسيراً ، لأن كلَ مشفٍّ فإنما يُظهر ما وراءه مضيئاً ، وإذا [1] كان شفيفُه يسيراً، فإنه يُظهر شفيفَه إذا كان وراءه جسم مضيء. وما لا يُظهر ما وراءه ، ولا يُظهر شفيفَه إذا كان وراءه جسمٌ مضيء ؛ فليس بمشفٍّ... فليس الأثر الذي في القمر بشفيفٍ هو جسِم القمر .

وأما رأيُ مَنْ رأى أن الأثرِ هو خشونةٌ في موضع الأثر من سطح جرم القمر، وبقية سطح جرم القمر صقيلٌ ؛ فإنَّ القمر يقبل الضوءَ من الشمسِ ، فالمواضع الصقيلة تقبل الضوءَ أكثرَ من قبول المواضع الخشنة، فإن هذا الرأيَ ينتقَضُ بما بينّاه في كِتابنا في ضوءِ القمر[2] . وذلك أنه قد تبيَّن في ذلك الكتاب أن القمر إذا أشرقت عليه الشمسُ، صارت ذاته مضيئةً ، وصار الضوءُ الذي يشرق منه ، إنماْ يشرق كما تشرق[3] الأضواء ؛ فالأجسام المضيئة من ذواتها ليس يشرق الضوءُ منها من أجل صقَالها ،ولا من أجل سطوحها فقط ، بل إنما يشرق الضوء من كل جزءٍ منها ؛ وليس إضاءتها من أجل صقالها، بل من أجل القوة النورية التي هي فيها – وهذا المعنى يظهر مثله في النار ، وفي أجزائها، وفي أجزاء الأجسام الحاملة للنار – وأيضاً ، فإن الخشونة تمنع انعكاس الضوء عنها ، لا قبول الضوء . ومع ذلك ، فإن الخشونة أَوْلى بقبول الضوء من الصِّقَالِ ، لأن

---

(١) خ : إذا .

(٢) مقالة في ضوء القمر ، إحدى رسائل ابن الهيثم المهمة في البصريات . وقد ذكرت المراجع الحديثة بعض أصولها الخطية ، وهي – فيما نعلم – لم تنشر حتى الآن .

(٣) خ : يشرق .

الضوء إذا أشرق على الجسم الخشن، دخل في مسامه وغضونه ، والصِّقَالُ يمنع الجسم الصقيل من قبول الضوء ؛ والدليل على ذلك انعكاس الضوء عن الجسم الصقيل ، فلو كان الجسمُ الصقيل[1] أشدَّ قبولاً من الجسم الخشن ، لما كان ينعكس الضوء عنه ، ويرجع عند مصادمته. فليست الخشونة علةً مانعةً لقبول الضوء ، وإنما هي مانعةٌ لانعكاس الضوء؛ فلو كان الضوء الذي يظهر في سطح القمر إنما هو بالانعكاس ، لقد كان يمكن أن يقال إن موضع الأثر إنما هو خشونةٌ في سطح القمر تمنع من انعكاس الضوء، وبقية سطح القمر صقيل ، فالضوء ينعكس عنه ، فكذلك صار موضع الأثر ناقصَ الضوء ! إلا أنه قد تبيَّن في كتابنا في ضوء القمر ، مما[2] قدمنا ذكره، أن الضوء الذي يشرق من القمر، والضوء الذي يدركه البصرُ في سطح القمر ، ليس شيٌّ منه بالانعكاس ؛ فليس يصحُّ أن يكون نقصانُ الضوء في موضع الأثر من أجل خشونةٍ في موضع الأثر .

فإن قيلٍ : إن الذي يشهد به الوجود ، هو أن الأجسام الصقيلة إذا أشرق عليها الضوء ، كان الضوء الذي يظهر في سطحها ، قوياً ساطعًا أقوى من الضوء الذي يظهر في سطوح الأجسام الخشنة ؛ وفي ذلك دليلٌ على أن الأجسام الصقيلة تقبل الضوءَ قبولاً أكثر من قبول الأجسام الخشنة ... فنقول في جواب هذا القول : إن القوة القابلة للضوء ، هي غير الضوء الذي يتأدَّى إلى البصر ، وإنما هي القوة التي بثَّت الضوء في الجسم الذي يشرق عليه الضوء . والضوء الذي يتأدَّى إلى البصر من الأجسام التي يشرق عليها الضوء ، يكون

(١) الكلمة في هامش المخطوطة .

(٢) خ : معها .

على وجهين ، أحدهما بالانعكاس ، والآخر هو أن في طَبْعه الضوء . ومن خاصية الضوء إذا حصل في جسمٍ كثيف ، أن يشرق من كل نقطة منه إلى نقطة تقابلة ؛ وقد شرحنا هذا المعنى شرحًا مستقصىً في كتابنا في المناظر[1] . والضوء الذي يشرق من كل نقطة من الضوء ، هو الذي نسميه ضوءاً ثانيًا ، والضوء الذي ينعكس على الأجسام الصقيلة هو الضوء الأول – بعينه – والثاني معًا ؛ أما الأول ، فإن الصقيل يدافعه ويعكسه إلى البصر ، وأما الضوء الثاني فإن الضوء الذي يحصل في سطح الصقيل يشرق من كل نقطة منه ضوء إلى البصرِ المقابل له ، فيجتمع الضوءان في البصر ؛ فلذلك يكون قويًا ... والضوء الذي يرِد إلى البصر من سطوع الأجسام الخشنة ، هو الضوء الثاني فقط ، وهو الضوء الذي يشرق من كل نقطةٍ من الضوء الذي في الجسم الخشن ؛ فالضوء الذي يدركه البصر من سطح الجسم الصقيل ، ليست[2] قوته من أجل زيادة القوة القابلة التى في الجسم الصقيل ، وإنما قوته للعلة التي ذكرناها . وضعف الضوء الذي يدركه البصر في الجسم الخشن ، ليس هو أيضًا من أجل ضعف القوة القابلة ، وإنما هو لنقصان قوة الضوء الثاني الذي يرِد إلى البصر ؛ وقد بيّنّا في كتابنا في المناظر ، أن الضوء الثاني يكون ، أبداً ، أضعف بكثير من الضوء الأول . وقد تبيّن أن الضوء الذي يدركه البصر في سطح القمر ، ليس شيء منه بالانعكاس ؛ فليس الضوء القوي الذي يدركه البصر في سطح القمر من أجل

(١) كتاب المناظر ، أشهر أعمال ابن الهيثم ، نشر المستشرق رستر ترجمة لاتينية له سنة ١٥٧٢ ، وكان له تأثير كبير في الحضارة الغربية منذ روجر بيكون الى الفلكي الشهير كبلر . وقد نشر الدكتور عبد الحميد صبره ، المقالات الثلاث الأولى من الكتاب ، بالكويت سنة ١٩٨٣ ... وما يشير إليه ابن الهيثم هنا ، هو موضوع المقالة الرابعة ، غير المنشورة ، من كتاب المناظر .

(٢) خ : ليس .

صقَاله ، وليس الضوءُ الضعيف الذي يدرك في موضع الأثر ، من أجل خشونته. وأيضاً، فإن الضوء الذي يدركه البصر في سطح الجسم الخشن ، إذا كان الجسمُ الخشن ذا لونٍ واحدٍ ، وكان نقيَّ اللون ، فليس يوجد في تضاعيفه ظلمةٌ ولا اختلاف، بل يوجد متشابهُ الضوءِ ؛ والأثر الذي في القمر يوجد ، أبداً، مضيئاً دون إضاءة بقية سطح القمر ، ومع ذلك توجد[1] فيه ظلمةٌ متشكلةٌ بشكلٍ لا يتغير ، وكأنه كدرٌ في صفو ؛ فلو كان ذلك الأثر لخشونة موضع الأثر ، لقد كان يكون الضوء فيه ضعيفًا فقط ، ولا يكون فيه ظلمةٌ ولا لون ، والوجود بخلاف ذلك ... وإذا كان ذلك كذلك ، فليس[2] الأثر الذي في القمر من أجل خشونةٍ في سطح القمر .

وأما قول من يقول : إن الأثر إنما هو لخشونةٍ بارزةٍ أجزاؤها ، شاخصةٍ ، فإذا أشرقت الشمسُ على سطح القمر ، صار للأجزاء الشاخصة إظلالٌ على ما يليها، وفيما بينها من سطح القمر ، فإن هذا الرأيَ ينتقضُ بما نذكره، وهو : أن القمر ليس ثابتًا على وضعٍ – بالقياس إلى الشمس – لأنه كلما بعُد عن الشمس، تغيّر وضعه منها . فلو كان الأثر إظلالَ أشخاصِ خشونةٍ بارزة، لقد كان يتغيرُ موضعه من سطح القمر ، بتغيّر وضع القمر من الشمس ، ويتغيّر أيضاً شكل مجموع الإظلال ؛ وليس يوجد شكل الأثر متغيرًا في وقت من الأوقات، بل شكله أبدًا على صفةٍ واحدة . وأيضًا فإن القمر في وقت مقابلة الشمس ، يكون سطحه المضيء مواجهًا للشمس ، فلو كان في سطحه أشخاصٌ بارزة، لكان عند مقابلة الشمس ومواجهتها، يصل ضوؤه[3] إلى الخلل – الذي بين

---

(١) خ : يوجد .

(٢) خ : ليس هو .

(٣) خ : ضوه .

تلك الأشخاص – الذي عليه كان يقع الإظلال عند كون القمر قريبًا من الشمس ؛ والوجود بخلاف ذلك ، لأن الأثر يوجد ، أبداً ، في وقت مقابلة الشمس على الصفة التي توجد عليها قبل وقت المقابلة ، وبعدها ، على الشكل بعينه الذي هو له دائما ، فليس الأثرُ الذي في القمر أظلالَ خشونةٍ بارزةٍ في سطح القمر .

وأما رأى مَنْ يقول : إن الأثر هو تقعيرٌ في جسم القمر ، وإن الشمس إذا أشرقت على القمر ، صار لمحيط التقعير ظلٌّ على باطنه . فإن ذلك ينتقض بمثل القولِ الذي تقدَّم في الخشونة البارزة ، وذلك أن القمر إذا قابل الشمس، وصل ضوءُ الشمس إلى باطن التقعير ، فيبطل الظِّلُّ الذي يكون من محيط التقعير ، عند كون القمر قريبًا من الشمس . فإن قيل : إن القمر في وقت المقابلة للشمس ، ليس يكون في حقيقة المقابلة ، أعني أنهما : ليس يكونان على طرفيْ قُطْرٍ ، بل يكون القمر مائلاً عن طرف القطْر الذي يمر بمركز الشمس، فيصلح أن يكون لمحيط التقعير ظلٌّ في وقت المقابلة ، ويلزم مثل ذلك في الخشونة البارزة أيضاً . فالجواب عن هذا القول هو أن ميل القمر عن حقيقة المقابلة ، إن كان يوجب أن يكون لمحيط التقعير ظلٌّ ، فعلى تصاريف الأحوال ليس يكون ظلٌّ لمحيط التقعير عند المقابلة ، على مثله قبل المقابلة ، لأنه قبل المقابلة ليس يصل الضوء إلى باطن التقعير ، كما يصل عند المقابلة ؛ فيلزم من ذلك – إن كان القول الذي ادُّعِيَ ممكنًا ، أعني إن كان في القمر تقعير – أن يكون ظلٌّ محيطه عند المقابلة ، أصغرُ بكثيرٍ من ظلّه قبل المقابلة ، وبالجملة ؛ فإن وضع القمر من الشمس ، يتغيّر في كل ساعةٍ من الساعات ؛ فيلزم أن يكون الأثر متغيّرًا[1] ، شكله ومقداره ، في كل ساعةٍ من الساعات ؛ ويلزم هذا

(١) خ : يتغير .

المعنى ، بعينه ، في إظلال الأشخاص البارزة ؛ والوجود بخلاف ذلك . وهو أن الوجـود ، هو أنَّ شكل الأثر ليس يتـغـيـَّر، لا عند المقـابلة ، ولا في وقتٍ من الأوقات التي قبل المقابلة وبعدها ، فليس الأثر الذي في القمر ظِلاًّ لتقعيرٍ ، ولا لخشونةٍ بارزة .

وأما رأيُ مَنْ يقول : إن في السماء موضعًا فيه بعض الكثافة، وهو متوسطٌ بين القمر والشمس ، وإن الضوء إذا أشرق على القمر ، كان لذلك الموضع ظِلٌّ على سطح القـمـر . فـإن ذلك يبطل بما نذكـره : وهو أنه إن كـان بين ذلك الموضع وبين القمر بُعْدٌ مُقَدَّرٌ ، فإنه يكون له اختلافُ منظرٍ ؛ فيبطل هذا الرأي كما بطل رأي مَنْ يقول إنه بخارٌ . وإن كان البُعْدُ الذي بينه وبين القمر ، بُعْداً يسيراً ، وليس له اختلافُ منظرٍ – من أجل قربه منه – فإنَّ هذا الموضع هو في فلك القـمـر ، وقريبًا من جِرْم القـمـر ، فـالجواب هو : إن هذا الموضع ، إما أن يكون في فلك التدوير ، أو في الفلك المحيط بفلك التدوير ؛ فإن كان في الفلك المحيط بفلك التدوير ، فإن فلك التدوير إذا تحرَّك بحركته التي تخصُّه – أعني حركته حول مركزه – حرَّكِ القـمـر ، فإذا حرَّك القـمـرَ ، خرج القـمـرُ عن السـمت الذي صـار – من بَعْدُ – بينه وبين الشـمس ، فـيبطل الأثرُ الذي في القـمـر ؛ والوجـود بخـلاف ذلك ، أعني أن القـمـر ليس يوجـد في وقتٍ من الأوقـات خـاليًا من الأثر ، لجزءٍ كـثيفٍ في الفلك المحيط بفلك التـدوير ؛ فإن كـان هذا الموضع الكثيف في فلك التدوير ، قريبًا من جرم القـمـر ، فإنه يكون في جـهـةٍ واحـدة بعينهـا من جـهـات القـمـر ، لأنه ليس يتغيَّر وضعُه من فلك التدوير ، لأن كل جزءٍ من كل جسمٍ فليس يتغيَّر وضعه من ذلك الجسم إلا أن يتـحـرَّك فـيـخـرق ذلك الجـسم ، وليس يجـوز أن ينخـرق جـسمُ فلك التـدوير ، فـمـوضع الجزء الكثيف من فلك التدوير ليس يتغيَّر ، وموضع القـمر من فلك

التدوير ليس يتغيرٌ[١] ، فهذا الوضع الكثيف ليس يكون إلا في جهةٍ واحدةٍ بعينها من جهات القمر ، والشمس - أبداً - إما أن تكون غربيةٌ عن القمر ، وإما شرقيةٌ ، أما من أول الشهر إلى وقت الاستقبال[٢] ، فإن الشمس تكون غربية عن القمر ؛ وأما من وقت الاستقبال إلى آخر الشهر ، فإنها تكون شرقية. ومن أول الشهر إلى وقت الاستقبال ، يكون فلك التدوير قد حرّك القمر ونقله من جهةٍ إلى جهة ، فإذا كانت الشمسُ والقمرُ ، والجزء الكثيف يتوسّط[٣] بين الشمس والقمر ، فليس يثبت على هذا الموضع إلا زماناً يسيراً ، ثم يحرّكه فلكُ التدوير بدَوْرِ هذا الجزء الكثيف ، وبدَوْرِ القمر ، فيخرج الكثيف عن السمت الذي بين الشمس والقمر ، فيصير تارةً شماليّا عن هذا السمت ، وتارةً جنوبيًا ، وتارةً هذا الجزء الكثيف شرقيًا عن جرم القمر ، والشمس غربيةٌ عنه ، وتارةً غربيًا عنه والشمس شرقيةٌ عنه ، فيصير القمر في كثيرٍ من الأوقات قاطعًا للسمت الذي بين الجزء الكثيف وبين الشمس ، فليس يكون للجزء الكثيف ظلٌ على سطح القمر إلا أوقاتاً مخصوصة ، ويكون القمر أكثرَ الزمان خاليًا من هذا الظلّ؛ فيلزم من هذا الرأى أن يكون الأثر موجوداً في القمر في بعض الأوقات ، وفي أكثر الأوقات يكون خاليًا عن الأثر . والوجود بخلاف ذلك ، وهو أن الأثر يوجد أبداً في سطح القمر ، وفي موضعٍ مخصوصٍ منه ، على شكلٍ واحدٍ بعينه ، ومقدارٍ واحدٍ بعينه، فليس الأثر الذي في القمر من أجل موضعٍ كثيفٍ في السماء .

---

(١) العبارة بكاملها في هامش المخطوطة .

(٢) يقصد : من أول الشهر العربي ، إلى أن يصير القمر بدراً في منتصفه .

(٣) خ : متوسط ! .

وقد تبيّن في جميع ما بيّنّاه ، فسادُ الآراء التي قدّمنا ذكرها ، وقد تبيّن أيضاً أن الأثر هو في نفس جرم القمر ، إذ قد تبيّن أنه ليس هو لمعنى خارج عن جرمه، ولا صورة تظهر بالانعكاس ... فقد بقي أن نبيّن ماهية هذا الأثر ، فنقول:

إن جوهر القمر ، مخالفٌ لجوهر جميع الكواكب[1] الباقية . والدليل على ذلك أن جميع الكواكب مضيئةٌ من ذواتها ، لا من إشراق الشمس عليها؛ وقد بيّنّا هذا المعنى بياناً واضحًا في كتابنا في أضواء الكواكب . وإذا كانت الكواكب مضيئة من ذواتها ، من غير حاجةٍ إلى إشراق الشمس عليها ، وكان القمر غير مضيء من ذاته إلا بعد أن تشرق عليه الشمسُ ؛ فجوهر القمر إذن ، مخالفٌ لجوهر جميع الكواكب .

وإذا كان جوهر القمر ، مخالفًا لجوهر جميع الكواكب ؛ فغير ممتنع أن يكون في أجزائه اختلافٌ ، إما في جوهرها ، وإما في كثافتها وإما في أضوائها. وإذا كان ذلك كذلك ، فإنا نقول قولاً جازمًا إن جرم القمر غير متشابه الأحوال في جميع أجزائه . والدليل على ذلك أن جرم القمر لو كان متشابه الأجزاء في جميع أحواله ، لكان ضوؤه الذي يظهر في شخصه متشابهًا في جميع أجزائه ، وليس ضوؤه متشابهًا في جميع أجزائه من أجل الأثر الذي يظهر فيه . وقد تبيّن أن الأثر ليس هو لمعنى خارج عن جرمه ، ولا بالانعكاس ؛ وإذا لم يكن الأثر لمعنى خارج عن جرمه ، ولا بالانعكاس ؛ فالأثر في نفس جرم القمر . وإذا كان الأثر في نفس جرم القمر ، فليس ضوؤه متشابهًا في جميع أجزائه ، بل ضوء بعض أجزائه مخالفٌ لضوء بقية أجزائه . وإذا كان ضوء أجزائه مختلفًا ، فليس

---

(١) يستخدم ابن الهيثم كلمة (الكواكب) كمرادف للنجوم .

جرمه متشابه الأحوال في جميع أجزائه ، فموضع الأثر - إذن - من جرم القمر ، مخالفٌ لبقية جرم القمر ، نوعًا من الاختلاف ، من أجله كان ذلك الموضع مخالفَ الضوء لبقية جرمه .

وإذا كان القمر يقبل الضوءَ من الشمس قبولاً مختلفًا ، وهو في نفسه غيرُ مضيء ، فهو إذن يقبل الضوء من الشمس قبولاً مختلفًا ، لأنه لو قبل الضوء قبولاً متشابهًا ، لكان ضوؤه متشابهًا في جميع أجزائه ، وإذا كان ضوؤه ليس بمتشابه - بل موضع الأثر أقل إضاءةً ونوراً من بقية جرمه - فليس قبوله للضوء قبولاً متشابهاً ، وإذا كان قبوله للضوء ليس قبولاً متشابهاً ، فموضع الأثر ليس يقبل الضوء كقبول بقية جرم القمر .

فنوع الاختلاف الذي في جرم القمر ، الذي به يخالف موضع الأثر منه ، بقيةَ جرمه ؛ هو معنى يمنع قبول الضوء منعًا ما ، فجرم القمر إذن مختلف الأجزاء ، وموضع الأثر منه يخالف بقيةَ أجزائه ، بمعنى يمنعه من قبول الضوء قبولاً تامًا . وإذ ذلك كذلك ، فحقيقة ماهية [1] الأثر ، هو : أنه ظلمةٌ في جرم القمر ، سببها أن ذلك الجزء ليس يقبل الضوء قبولاً تامًا . فقد بقى أن نبحث عن ماهية [2] المعنى الذي يمنع الجزء المتأثر من قبول الضوء القبولَ التام، فنقول:

إن كل جسمٍ مشفٌّ ، فهو قابل للضوء ، ومؤدٍ للضوء ؛ وكل جسمٍ كثيف، فهو قابلٌ للضوء ، غير مؤدٍ للضوء . فأما الدليل على أن الجسم المشف قابلٌ للضوء ، فهو نفوذُ الضوء فيه ، فلو لم يقبل الضوء ، لما أمكن أن ينفذ

---

(١) خ : مائية .

(٢) خ : مائية .

الضوء فيه ، ونفوذُ الضوء فيه بيِّنٌ ، فقبوله بَيِّنٌ . وأما الدليل على أن الجسم الكثيف يقبل الضوء ، فهو ظهور الضوء في سطحه ، وثبوته فيه ، فلو لم يقبل الضوء ، لما ثبت في سطحه ، ولا ظهر . وأيضًا ، فإن كل جسمٍ فيه بعض الشفيف ، وفيه بعض الكثافة ، كالزجاج والماء والأحجار المشفَّة ، إذا أشرق عليها الضوء ، نفذ فيها بعض النفوذ ، وظهر فيها بعض الظهور ، فهي قابلة للضوء على الوجهين جميعًا . وأيضاً ، فإن الأجسام الكثيفة المختلفة، إذا أشرق عليها الضوء، كانت صورة الضوء فيها مختلفة ، ويكون ذلك الاختلاف بحسب ألوانها ، وبحسب صقالها وخشونتها ، وبحسب قوة كثافتها وضعفها ؛ وكذلك الأجسام المشفَّة المختلفة التي فيها بعض الكثافة ، يظهر الضوء فيها ظهوراً مختلفًا ، ويكون بحسب ألوانها ، وبحسب الكثافة التي فيها ، وبحسب صقالها وخشونتها .

والأجسامُ المتشابهةُ في جميع أحوالها ، إذا أشرق عليها الضوء ، كانت صورةُ الضوء التي تظهر فيها ، صورةً متشابهة لا اختلاف فيها ، والأجسام المختلفة في ألوانها ، وكثافتها ، وصقالها ، وخشونتها ؛ تظهر صورةُ الأضواء عليها ظهوراً مختلفاً .

والذي يتحصَّل من جميع ذلك ، هو أن كل جسمٍ ، ففيه قوةٌ قابلةٌ للضوء، وأن الجسم المتشابه الأجزاء في جميع أحواله . تكون القوةُ القابلة – في جميع أجزائه – متشابهةً ، وتكون صورةُ الضوء التي[1] تظهر فيه ، متشابهةً في جميع أجزائها . وأن الجسم المختلف الأجزاء ، تكون القوةُ القابلةُ في أجزائه مختلفةً ، فتكون صورةُ الضوء التي تظهر فيه ، مختلفةً .

(١) خ : الذي .

وإذ قد تبيَّن ذلك ، فقد تبيَّن أن في القمر قوةً قابلةً للضوء ، لأنه قد تبيَّن أن الضوء الذي يظهر فيه ، هو ضوءٌ يقبله من الشمس ، وإذا كان يقبل الضوء من الشمس ، وكان الضوء ثابتًا فيه ، وظاهراً في سطحه ، فإنَّ فيه قوةًقابلةً للضوء . وقد تبيَّن أن القوة القابلةَ التي فيه ، هي في أجزائه مختلفةٌ ، لأن صورة الضوء التي تظهر في القمر هي صورة مختلفة وليست متشابهة الأجزاء .

وإذا كان الجسمُ إنما يقبل الضوء من أجل القوة القابلة التي فيه ، فإن قوة الضوء وضعفه إنما تكون[1] من أجل زيادة القوة القابلة أو نقصها[2] ، أو من أجل شدَّتها أو ضعفها . فاختلاف الضوء الذي يظهر في القمر ، إنما هو لاختلاف القوة القابلة التي في أجزاء جرم القمر .

وإذ جميع ذلك كذلك ، فماهية[3] المعنى الذي تمنعِ الجزء المتأثر الذي يوجد في القمر ، من قبول الضوء القبولَ التام ، هو ضعف القوة القابلة للضوء - التي في الجزء المتأثر - وقصورها عن القوة القابلة التي في بقية أجزاء القمر، وهذا المعنى هو علةُ الأثر . واختلاف هذه القوة في أجزاء القمر ، إنما هي لاختلاف كيفية أجزاء جِرْم القمر .

فقد بقى أن نبحث عن العلة التي من أجلها كانت القوة القابلة - التي في موضع الأثر - أضعفَ من القوة القابلة التي في بقية جرم القمر ؛ وهذه العلة إنما هي كيفية الجزء من جرم القمر ، المتأثر بالأثر . فنقول :

إنَّ كل جسمٍ مشفٍّ ، فإنه يقبل الضوءَ ويؤديه إلى ما وراءه ؛ وكل جسمٍ

(١) خ : يكون .

(٢) خ : ونقصها .

(٣) خ : مائية .

غير مشفٍّ، فليس يؤدي الضوءَ إلى ما وراءه . فنقول :

إنَّ القوةَ القابلة ، غيرُ الشفيف . والدليل على ذلك ، أن الجسم المشفّ إذا أشرق عليه الضوء ، ثبت الضوء فيه ، ونفذ أيضًا ؛ والثبوت غير النفوذ ، وهما متضادان . فالمعنى الذي به يثبت الضوء في الأجسام المشفّة ، هو غير المعنى الذي به ينفذ الضوء فيها .

وقد تبيّن أن المعنى الذي يُنفذ الضوء ، هو الشفيف ، فالمعنى التي يثبت الضوء هو غير الشفيف . فأما أن الضوء يثبت في الأجسام المشفّة ، فقد بيّنّاه في كتابنا في المناظر ، عند كلامنا في خواص الأضواء[1] . وذلك أنّا بيّنّا هناك أن الضوءَ ينفذ في الهواء ، وفي الأجسام المشفّة . ومع ذلك فإن كل نقطةٍ من الجسم المشفّ – إذا نفذ فيه الضوء – فإنه يشرق منها ضوءٌ ثانٍ إلى كل نقطةٍ تقابلها ، ولو كان الضوء ينفذ فقط في الجسم المشفّ ، ولا يثبت فيه، لما كان يشرق من كل نقطةٍ من الجسم المشفّ ضوءٌ ثانٍ تصدر[2] عنه هذه الأضواء . وإذا كان في الجسم المشفّ ضوءٌ ثابتٌ قد قبله الجسمُ المشفُّ – مع نفوذ الضوء فيه – فإن القوة التي في الهواء ، وفي الأجسام المشفّة ، التي يثبت الضوء فيها ، هي غير الشفيف ، وهي القوة القابلةُ التي في الجسم المشفّ ؛ لأن المعنى الذي به يكون الثبوت ، هو القبول . فكل جسمٍ مشفٍّ ففيه قوةٌ قابلةٌ وقوةٌ مؤدية ، وكل واحدةٍ منهما غير الأخرى . وكل جسمٍ كثيفٍ إذا لم يكن فيه شيءٌ من الشفيف ، فليس يصل الضوء إلى باطنه . والدليل على ذلك ، أن الجسم الكثيف إذا أشرق عليه الضوء ، وثبت الضوءُ في سطحه ، متى قُطع من

(١) خواص الأضواء ، موضوع الفصل الثالث من المقالة الأولى من كتاب المناظر (نشرة د . عبدالحميد صبره ، ص ٧٢ وما بعدها) .

(٢) خ : يصدر .

الجهة المضادة لجهة الضوء ، لم يوجد في موضع القطع شيء من الضوء ؛ والجسمَ المشفُّ الذي فيه شيءٌ من الشفيف ، إذا قطع ، وجد الضوء في موضع القطع .

وكل جسمٍ كثيفٍ ، ففي ظاهره قوةٌ قابلةٌ للضوء . وإذا كان الجسمُ المشفُّ، يصلُ الضوءُ إلى باطنه ، وكان كل موضع من الجسمِ المشفِّ يقبل الضوءَ ، وكان كل جسمٍ كثيفٍ إذا وصل الضوء إلى سطحه ، قبله ، وثبت فيه . فكل جسمٍ يصل إليه الضوء فإنه يقبل الضوء .

وإذا كان ذلك كذلك ، فكل جسمٍ ففيه قوةٌ قابلةٌ للضوءِ ، إذا وصل الضوءُ إليه ، قبله ؛ وليس شيءٌ يمنع من وصول الضوء إلى الأجسام إلا الكثافة. فإن الكثافة التي في الجسم تمنع الضوء من الوصول إلى باطن الجسم .

وكل جسمٍ لا يصلِ الضوءُ إلى سطحه ، فإنما ليس يصل إلى سطحه ، لأن ساتراً كثيفاً يمنع الضوءَ من الوصول إلى سطحه ؛ فالكثافة التي في الساتر، هي التي تمنع الضوء من الوصول إلى سطح الجسم المستتر .

وإذا كان كل جسمٍ يصل الضوءُ إليه ، ففيه قوة قابلة للضوء ، وكان كُلُّ ضوءٍ يصل إلى الأجسام ، تقبله الأجسام ؛ وكانت المواضع التي لا يصل إليها الضوء ، إنما ليس يصل إليها الضوء من أجل الكثافة ؛ فالكثافة إذن هي العلة المانعة للأجسام من قبول الضوء ، مع منعها الأجسامَ المشفّة من تأدية الأضواء وتنفيذها . وليس شيءٌ يمنع من قبول الضوء غير الكثافة ، لأنه ليس شيءٌ يمنع الضوء من الوصول إليها غير الكثافة .

وأيضًا ، فإنا نجد الأجسامَ تقبل الضوءَ قبولاً مختلفًا . وذلك أن الجسم الأبيض يقبل الضوء أكثر من قبول الجسم الأسود ، وكذلك جميع الأجسام

المتلوّنة ، تقبل الأضواء قبولاً مختلفاً بحسب ألوانها ؛ وكل ما كان من الأجسام أظلمَ لونًا ، كان أضعفُ قبولاً للضوء ، وكان الضوء أضعف إذا تساوت الأضواء التي تشرق على جميع الأجسام المتلوّنة . وإذا أشرق على الجسم المتلوّن ضوءٌ قويٌ ، ظهر لونه مشرقًا رقيقًا – أو فيه بعضٍ الرقة – وظهر الضوء الذي فيه قويًا ؛ وإذا أشرق عليه ضوءٌ ضعيفٌ ، ظهر لونُه قويًا ، وظهر الضوء الذي فيه ضعيفًا . وعلةُ ذلك ، هي أن كُلَّ ضوءٍ يدركه البصرُ في جسمٍ متلوّنٍ ، فهو يدركه ممتزجًا باللون الذي في ذلك الجسم ، فصورةُ اللون تكشف الضوءَ، وصورةُ الضوء تضعف اللونَ . وقد بيّنّا هذا المعنى بيانًا واضحًا في كتابنا في المناظر[1] .

واللون ، أبدًا ، يتبع الكثافة – التي هي ضدٌ الشفيف – وليس يوجد اللون إلا مع الكثافة ، لأن كل جسمٍ ليس فيه شيءٌ من الكثافة – أعني الذي في غاية الشفيف – فليس فيه شيء من اللون . ولسنا نقول إن اللون هو الكثافة ؛ لأنه قد يكون جسم شديد الكثافة ، صافي اللون – كالحجارة البيض – وقد يكون جسم فيه بعض الشفيف ، وهو مظلمٌ – كالعقيق والزمرد وما جرى مجراهما.

فصورةُ اللون ، غير صورة الكثافة . إلا أن اللون ليس يكون إلا في جسمٍ كثيفٍ ، أو فيه بعض الكثافة ، وليس يوجد اللونُ في جسمٍ مشفٍّ لا كثافة فيه. فالكثافةُ موضعُ صورةِ اللون ، وصورةُ اللون حليةٌ له ؛ فهي كالهيولى[1] للّون،

(١) كتاب المناظر ، ص ١١٢ : ص ١٢٧ .

والكثافة مع اللون هما كالهيولى والصورة ، اللذين يوجدان أبداً معًا، ولا يوجد واحدٌ منهما – بالحس[٢] – منفرداً عن صاحبه .

وإذا كانت الكثافة ، هيولى لصورة اللون ؛ فشدةُ الكثافة تزيد في ظلمة اللون المظلم ، وتنقص من صفاء اللون الصافي . والزيادة في ظلمة اللون المظلم، والنقصان من صفاء اللون الصافي يكسفان الضوء الذي يكون في الجسم المضيء. فالكثافة في كل جسم مضيء، تكسف الضوء الذي في الجسم المضيء. وإذا كانت الكثافة تكسف الضوء في كلِ جسمٍ مضيء، فالكثافة – إذن – تعوق ، أبداً ، القوةَ القابلة للضوء ، وتضعفها .

وإذا كان ذلك كذلك ، فكل كثافة ، فهي مانعةٌ للأجسام من قبول الضوء، مع حصول قوةِ القبول فيها . وإنما يثبت الضوءُ في الأجسام الكثيفة ، ويظهر فيها ، من أجل زيادة قوة القبول على قوة المنع . والمنع الذي توجبه الكثافة ، يختلف بالأشدّ والأضعف ؛ فإذا تساوت القوة القابلة للضوء في الأجسام الكثيفة ، واختلفت الكثافة في الأجسام الكثيفة ؛ كان المنع في الأجسام التي هي أشدُّ كثافة ، أقوى ؛ فتكون الأضواء التي في الأجسام التي هي أشدُّ كثافة ، أضعف .

وإذ قد تبيّن جميع ذلك ، فلنرجع إلى حال القمر ، فنقول : إن القمر يقبل الضوء من الشمس ، وليس فيه شي من الشفيف . ففي القمر – إذن – القوة

---

(١) الهيولى : لفظة يونانية استخدمها «أرسطو» بمعنى : المادة ، قال إن كل موجود طبيعي لابد له من صورة ومادة (هيولى) .

(٢) يشير ابن الهيثم هنا إلى إمكانية تصور (الصورة) منفصلة عن (المادة = الهيولى) في الذهن فقط ، أما في عالم المحسوسات ، فلا انفصال بينهما .

القابلة للضوء ، وليس فيه القوة المنفذة للضوء ؛ وقبول القمر للضوء – مع عدم الشفيف فيه – هو دليلٌ واضح على أن القوةَ القابلة للوضوء هي غير القوة المُنْفذة له . وفي هذا الدليل تأكيدٌ لما قَدَّمناه من قبل : أن القوة القابلة هي غير القوة المنفذة التي في الأجسام المشفّة .

وقد تبيّن أن قبول القمر للضوء ، هو قبول مختلف ؛ وأن بعض أجزائه يقبل الضوء قبولاً تامّا ، وبعضها – وهو موضع الأثر – ليس يقبل الضوء قبولاً تامّا ؛ وأن ذلك لعائقٍ يعوق موضع الأثر عن القبول التام . وإذا كان في جميع جرم القمر قوةٌ قابلةٌ للضوء ، وكان موضع الأثر الذي ليس يقبل الضوءَ ، إنما ليس يقبل الضوءَ قبولاً تامًا[1] لعائقٍ يعوقه ؛ وكان قد تبيّن أن الكثافة تعوق القوة القابلة للضوء ، وأنه ليس شيء يعوق القوة القابلة غير الكثافة ، وأن الكثافة كلما كانت أشدُّ كان منعها للقوة القابلة للضوء أقوى : فضعف القوة القابلة التي في موضع الأثر ، إنما هي بقوة الكثافة التي في ذلك الموضع .

فموضع الأثر ، إذن ، إنما ليس يقبل الضوءَ قبولاً تامًا، لأن فيه كثافة تعوقه عن القبول التام . وجميعُ القمر كثيفٌ ، وإذا كان ذلك كذلك ، فموضع الأثر من القمر ، فيه كثافة زائدة على الكثافة التي في جميع جرم القمر ؛ وهذه الزيادة هي التي تعوقه عن القبول التام . فالعلةُ التي من أجلها كانت القوة القابلة للضوء – التي في موضع الأثر – أضعفَ من القوة القابلة التي في بقية جرم القمر ، هي زيادةُ كثافة موضع الأثر على الكثافة التي في بقية جرم القمر... وهذا هو الذي قصدنا لتبيينه في هذا البحث .

---

(١) العبارة في هامش المخطوطة .

وقد تبيّن أن كل جسمٍ متلوِّنٍ ، إذا أشرق عليه ضوءٌ قويٌّ ، ظهر لونُهُ رقيقًا – أو فيه بعض الرقة – وظهر الضوءُ الذي فيه قويًا ؛ وإذا أشرق عليه ضوءٌ ضعيفٌ ، ظهر لونه قويًا – أعنى أشبع وأظلم من لونه إذا أشرق عليه ضوءٌ قوي – ويظهر الضوء الذي فيه ضعيفًا . وعلةُ ذلك ، هي أن كل ضوءٍ يدركه البصر في جسمٍ متلوِّنٍ ، فهو يدركه ممتزجًا بالضوء الذي في ذلك الجسم . وللقمر لونٌ يخصُّه ، يظهر في وقت كسوفه[1] ، وخاصةً إذا انكسف جميعه ، ويظهر – أيضًا – في وقت كسوف الشمس ، وخاصة إذا انكسف جميعها أو معظمها ؛ وهو لونٌ مظلمٌ ، كأنه[2] سوادٌ تشوبه حُمرة ... وإذا اعتبر القمر في وقت كسوفه ، وُجد لونه على ما ذكرناه .

وأيضًا ، فإن القمر في الليلة الثانية والثالثة من الشهر تظهر استدارته ، ويظهر محيطه مضيئًا ، ويظهر جرمه في وسط الاستدارة مظلمًا ؛ فلون القمر الذي يخصُّه هو لونٌ مظلمٌ ، والضوء الذي يظهر فيه في سائر الأوقات ، إنما هو الضوء الذي يستفيده من الشمس إذا أشرقت عليه ، والضوء الذي يحصل فيه من الشمس هو ضوءٌ قويٌّ ، والقوة القابلة للضوء الذي فيه هي في غاية القوة ، وأقوى من القوة القابلة التي في الأجسام الأرضية ، فلفرْطِ قوة الضوء الذي فيه، وفرط القوة القابلة فيه ، خفى لونُهُ المظلم الذي يخصُّه ؛ ومع ذلك ، فإن لونه قد كشف الضوء الذي حصل فيه . ولولا ظلمة لونه ، لكان ضوؤه أقوى مما هو عليه – يدل على ذلك ما يظهر من ألوان الأجسام الأرضية ، إذا أشرق عليها ضوءُ الشمس .

(١) جرت العادة أن يقال : خسوف القمر وكسوف الشمس .

(٢) خ : وهو كانه .

ولأن الضوءَ الذي في موضع الأثرِ ضعيفٌ ، وليس هو في قوة الضوء الذي في بقية سطحه ، وجب أن يتلوّح لونُه الذي يخصُّه – في هذا الموضع – ممتزجاً بالضـوء الذي فـيـه . ولأن الضـوء الذي في هذا الموضع ، ليس هو غـاية في الضعف ، وجب أن يظهر اللونُ خفيًا .

فـالأثر الذي يظهر في وجه القـمر ، هو لونُ القـمر الذي يخصُّه ، ممتزجًا بالضوء الذي يحصل فيه ؛ وإنما ظهر في هذا الموضع دون بقية سطح القـمر ، لأن الضوءَ الذي في هذا الموضع أضعفُ من الضوء الذي في بقية سطح القمر. وضعفُ الضوء الذي في هذا الموضع ، إنما هو لضعف القوة القـابلة للضـوء – التي في هذا الموضع – وضعف ، القوة القـابلة التي في هذا الموضع ، إنمـا هو لزيادة كثافة هذا الموضع على كثافة بقية ما يظهر من سطح القمر ... وذلك ما قصدنا لتبيينه في هذه المقالة .

(تمت المقالة في الأثر الظاهر في وجه القـمر،
من قول الحسن بن الحسن بن الهيثم، والحمد
لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم)

أبو بكر السَّقَّاف وتائيته

د. عبد الله محمد الغزالي *

عادت بعثة معهد المخطوطات العربية – وهو في الكويت – من اليمن ، بنسخة من ديوان أبي بكر ابن سالم السقّاف العلوي الحضرمي، صَوَّرتْها من مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم . ولعل هذه النسخة هي الوحيدة الباقية من الديوان .

وقد اطّلع د. الغزالي على هذه النسخة ، وقام بدراسة إحدى قصائد الديوان ، التي عارض فيها السقاف تائية ابن الفارض ، فدرسها بوصفها تجربة صوفية واحدة ، وكشف عن تأثر الثاني بالأول ، وربط بين مفاهيم الرجلين ، والرموز التي استخدماها ، كما كشف عن المؤثرات المختلفة في تائية السقاف ، وعن أسلوبها .

---

* من كلية الآداب – جامعة الكويت .

ظهر التصوف في اليمن ، بأصوله وتقاليده وفكره ، في القرن الخامس الهجري . وأخذت الطائفة الصوفية مكانها في الطليعة بين الطوائف الأخرى في القرن السابع الهجري . واستمر المد الصوفي في الانتشار بقوة، في مدن اليمن المختلفة خلال القرن الثامن الهجري ، ليصبغ اليمن بصبغة صوفية لم تشهد لها مدن اليمن مثيلا من قبل ، وأصبح التصوف في هذا القرن فكراً مستقلاً . كما أصبح لليمنيين طرقهم الصوفية الخاصة بهم ، وفلسفتهم المميّزة .

وقد اكتملت الصوفية في اليمن في القرن التاسع الهجري ، وأصبح المجتمع اليمني مجتمعًا صوفيًا ، فكثر الأتباع وازدادت الحركة الصوفية نشاطًا ، وانتشرت الزوايا والمدارس وحلقات الذكر والسماع ، ونشطت حركة التأليف الصوفي ، وكثرت دواوين الشعر . كما بدأ نفوذ المتصوفة يظهر بوضوح في توجيه السلطة السياسية والتأثير في الحاكم .

ويعد القرن العاشر الهجري قمة تطور الصوفية في اليمن من حيث كثرة المتصوفة ، وكثرة المؤلفات في التصوف ، وازدياد عدد دواوين الشعر، وانتشار حلقات السماع والرقص والزوايا الخاصة، وتلك الملحقة بالمساجد والجوامع. وغدا المجتمع اليمني بمدنه المختلفه مجتمعا صوفيا إلى حد كبير ، تسيطر عليه مظاهر التصوف ويقوده المتصوفة الذين امتد نفوذهم لتسيير الحاكم وتأييده، أو معارضته، كما خاضوا حرباً مع الفقهاء مرت بمراحل ضعف وقوة.

وسنكشف عمّا قليل – في إيجاز شديد – عن الحياة السياسية في اليمن وجوانبها المؤثرة في مسيرة التصوف اليمني . ونقف عند الحياة الصوفية في اليمن، في القرن العاشر الهجري ، لنرى طبيعته وطرقه ورموزه من علماء ومؤلفين وشعراء، مركّزين على أبي بكر بن سالم السّقّاف كواحد من أكبر وأبرز متصوفة اليمن في هذا القرن ، متناولين بالتحليل تائيته كنموذج متكامل

للقصيدة الصوفية ، مبيّنين مضامينها ، ومدى تأثرها بالقصيدة الصوفية العربية ، لا سيما قصيدة ابن الفارض التائية الكبرى ، المسماة « نظم السلوك » .

(١) الحياة السياسية :

بعد سقوط الدولة الأيوبية اهتم بنو رسول (٦٢٦ – ٨٥٨ هـ) بالعلم وشجعوا العلماء ورجال الدين بمختلف مذاهبهم ، كما انتشر المتصوفة بشكل ملاحَظ ، فزادت دور العبادة نشاطاً ، كما نشطت عملية التأليف ، وانتشرت المدارس التي شيدها حكام بني رسول فغدت مدن اليمن المختلفة مراكز فكرية نشطة . وعلى الرغم من استمرار الحكم في الدولة الرسولية نحو مئتين وثلاثين عامًا ، إلا أن كثرة الأحداث السياسية والفتن والحروب بين أبناء الأسرة الحاكمة نفسها من جهة ، وبين الحاكم الرسولي والجهات الأخرى اليمنية المتطلعة للحكم من جهة ثانية ، وأطماع غير اليمنيين من جهة ثالثة كلها ساعدت على انتشار المد الصوفي ، وإعطاء المتصوفة دوراً أساسيًا في ترجيح كفة أحد المتصارعين على السلطة .

ولما سقطت الدولة الرسولية قام على أنقاضها في اليمن دولة بني طاهر[١] . ولم يكن الحال في عهدهم أحسن من عهد مَن سبقهم ، فقد اشتد الصراع طوال حكمهم الذي استمر نحو خمسة وستين عامًا . وسيطر المماليك – آخر الأمر – على اليمن للتفرغ لقتال البرتغاليين . ومن ثمّ أتى بعد ذلك دور الأئمة في حكم اليمن[٢] ، عقبه استيلاء الأتراك العثمانيين عليها لتبدأ مرحلة جديدة

(١) انظر : الحبشي ، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول : ١٧ – ٢٢ ، والحداد ، تاريخ اليمن السياسي : ١١٥/٢ – ١٤٧ .

(٢) الحداد ، تاريخ اليمن السياسي : ١٧٠/٢ – ١٨٦ .

في تاريخها ، تخللها في القرن العاشر الهجري حروب وقلاقل شهدتها المدن اليمنية ، وسائر المنطقة ، وراح ضحيتها كثيرون من أبناء اليمن .

إن اليمن لم يشهد الاستقرار والأمن طيلة قرون طويلة ، شملت مختلف المدن اليمنية ، كما عانى اليمنيون فيها أنواعًا مختلفة من القتل والجوع والحرب ، وتبدل الدول ، وتنازع الأمراء ، والصراع على السلطة ونزاع القبائل ، وتمرد الأمراء والإخوان والأبناء ، بالإضافة إلى أطماع غير اليمنيين كالمماليك والبرتغاليين والعثمانيين ، ولا شك أن ذلك كله أثر بشكل كبير على الإنسان اليمني طيلة هذا التاريخ الطويل ، بما فيه القرن العاشر الهجري . ولا شك أيضاً أن هذه الأوضاع السياسية والأحوال المتبدلة ، والحروب الطاحنة ، أثرت بشكل مباشر في الاقتصاد اليمني ، حيث استنزفت هذه الحروب أموالَ الدولة وأثرت سلبًا في تجارتها وزراعتها مما خلق مجتمعًا يمنيًا فقيراً يعاني فيه الإنسان اليمني الكثير من أجل توفير لقمة عيشه ، الأمر الذي دفع الكثيرين من أبناء اليمن إلى النزوح إلى الهند وتكوين مجتمعات يمنية كبيرة في مدنها المختلفة .

إن الأوضاع السياسية والاقتصادية هذه ساعدت بشكل كبير على دفع الإنسان اليمني إلى البحث عن سبيل للخلاص من هذا الوضع والهروب إلى عالم آخر يجد فيه الهدوء والراحة النفسية والسكينة ، ولعل هذا ما يفسر لنا أسباب انتشار المد الصوفي بشكل واسع عند اليمنيين في القرن العاشر الهجري وما قبله ، بالإضافة إلى أسباب كثيرة أخرى ، أهمها أن النشاط الصوفي في اليمن هو امتداد طبيعي لانتشار الصوفية في سائر البلاد العربية الأخرى التي لم تكن أحوالها أفضل من حال اليمن .

(٢) الحياة الصوفية :

شهد اليمن نشاطاً صوفياً ، وتأثر – دون شك – بحركات التصوف الخارجية وطرقه في بغداد ومصر والمغرب . ولعل أبرز الطرق الصوفية التي انتشرت في اليمن : الطريقة القادرية ، والشاذلية ، والمغربية ، والرفاعية ، والسّهروردية ، والنقشبندية [١] .

وبالإضافة إلى العوامل الخارجية والطرق الصوفية التي دخلت اليمن ، فإن العوامل السياسية والاقتصادية والنفسية ساعدت كثيراً على انتشار التيار الصوفي في المدن اليمنية المختلفة ، على نحو ما ذكرنا . وظهرت في اليمن طرق صوفية يمنية الأصل والمنشأ ، ومتأثرة بالطرق الصوفية التي ظهرت في دول العالم الإسلامي المختلفة ، وأهمها : الطريقة الأهدلية ، الجبرتية ، الحدادية ، العيدروسية[٢] .

وبجانب انتشار الصوفية ، وبالتالي انتشار مجالس السماع والرقص ، انتشر الفكر الصوفي ، ولا سيما فكر ابن عربي وابن الفارض . ومنذ القرن الثامن الهجري ظهر الصراع بين المتصوفة والفقهاء بشكل واضح ، خاصة بعد أن اشتدت حملة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، وغيره ممن تبعوه ، ضد المتصوفة .

ومع اشتداد الصراع بين الصوفية والفقهاء هذا في مصر وبلاد الشام ، إلا أن

---

(١) عن هذه الطرق وتفاصيلها انظر : النجار ، الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها ؛ والحبشي ، الصوفية والفقهاء في اليمن ؛ وإدريس شاه ، طريقة الصوفي ؛ والصباغ ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول .

(٢) عن الطرق اليمنية المحلية انظر : الحبشي ، الصوفية والفقهاء في اليمن : ٣٣ – ٣٤ .

الصوفية سجلوا انتصارات واضحة على الفقهاء . وانتقل هذا الصراع بدوره إلى اليمن ، ففي القرن العاشر الهجري شن الإمام شرف الدين حملة ضد المتصوفة في البلاد اليمنية ، وعلى إثرها ظهرت الكثير من المؤلفات ، في مهاجمة المتصوفة والوقوف بجانب الإمام ضدهم ، أهمها : حقيقة التوحيد للشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ هـ ؛ والكشف والبيان في الرد على متصوفة الزمان للشيخ محمد بن يحيى بهران المتوفى سنة ٩٥٧ هـ[١] .

وعند مجيء الأتراك العثمانيين إلى اليمن رأى الإمام شرف الدين بُعد المتصوفة عنه وعدم موالاتهم له ، فحاول في بداية الأمر كسب رضاهم ، ثم أقام معهم المناظرات لاستمالتهم ، ثم اضطر إلى إعلان الحرب عليهم وإيداعهم السجون أو قتلهم . وتذكر كتب التاريخ اليمني قصة المناظرة بين الإمام شرف الدين والشيخ الصوفي محمد بن عطف الله العنّسي سنة ٩٣٩ هـ ، التي انتهت بتهديد الإمام للشيخ العنسي بإقامة حد الردة عليه ، إن لم يرجع عن معتقداته الصوفية ، وكيف ضُرِب وعذِّب حتى رجع عنها . كما يروون موقف الإمام المماثل من الشيخ عبد الله بن القاسم الذي رجع عن معتقداته بعد تهديده . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تروي تلك المصادر أن الإمام شرف الدين عمد إلى قتل الفقيه حسن بن علي الجدر سنة ٩٤٢ هـ ، لاتهامه بالتصوف ، وكثرة أتباعه ، دون مناظرته ، كما فعل مع العنسي . يقول الحبشي : « وهكذا كانت علاقة الإمام شرف الدين بالصوفية تتطور من سيئ إلى أسوأ ، وأنها ليست بأحسن من سابقتها من الأئمة الذين تقدموه »[٢] .

---

(١) المصدر السابق : ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق : ٥٧ وما بعدها .

وعندما سيطر العثمانيون على المدن اليمنية ، ولا سيما عدن بعد فتحها الثاني سنة ٩٧٦ هـ [١]، وبعد صراع مرير بين العثمانيين والإمام المطهر بن الإمام شرف الدين الذي توفي سنة ٩٨٠ هـ ، عاد المتصوفة إلى سابق عهدهم . فزادت قوتهم وزاد نفوذهم بعد احتضان العثمانيين لهم .

يقول الحبشي : « وكان القرن العاشر الهجري ، والذي يليه ، هو عهد سلطة الصوفية وتقديس العامة لهم ، وقد اشتد نفوذهم على إثر احتضان ملوك آل عثمان لهم ، فلم يظهر هناك صوت يذكر في الإنكار على الصوفية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى التمادي في رسومهم الصوفية والإيغال في فكر ابن عربي دون خشية من سلطة الفقهاء وغيرهم» [٢] .

والمتصفح لكتب التراجم والسير يجد أسماء المتصوفة اليمنيين في القرن العاشر الهجري بكثرة ، ولا سيما كتاب تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر لمحيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ، وقد أمكنني عدُّ عشرين من كبار المتصوفة المشهورين ، يليهم من غير الكبار عدد كبير . ولعل من أشهرهم جميعًا أبا بكر بن سالم السَّقَّاف ، صاحب التائية موضوع البحث ، الذي سنقف عنده بشيء من البسط .

(٣) أبو بكر السَّقَّاف :

هو أبو بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد

---

(١) البحراوي ، فتح العثمانيين عدن : ١٧٣ .

(٢) الحبشي ، الصوفية والفقهاء في اليمن : ٩٤ .

الرحمن السَّقَّاف العَلَوي الحَضْرَمي . ولد بمدينة تَرِيم ، إحدى مدن حضرموت، في الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ٩١٩ هـ . وتوفي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٩٩٢ هـ بـ عيْنَات ، إحدى قرى حضرموت حيث كان يقيم فيها(١). وكان شيخ المتصوفة في زمانه ، أحد الأولياء المشهورين وصاحب الكرامات الكثيرة . له أتباع كثيرون وقصده الناس من مختلف البلاد اليمنية . ويقول العيدروسي فيه : « توفي الولي الكبير والقدوة الشهير الذي وقع على ولايته الإجماع والاتفاق ، وقصد بالزيارة من الآفاق ، الشيخ أبو بكر بن سالم با علوي بعيْنَات . وكان من المشايخ الأفراد المقصودين بالزيارة من أقصى البلاد، وانتفع ببركته الحاضر والبادي ، وانغمرت الآفاق ، وسارت به الركبان والرفاق ، وحصل له القبول التام عند الخاص والعام ... وقصده إليها [عينات] الزوار من الأقطار حيًا وميتًا »(٢).

وقال عنه النبهاني : « صاحب عيْنَات ، أحد مشاهير الأولياء وأكابر الأصفياء وأئمة العلماء من ساداتنا آل بَاعلوي»(٣) ثم يذكر النبهاني الكثير من كراماته مع معاصريه .

ويقول الزركلي : «سكن عينات ... فكانت له فيها زعامة ، تنشر أمام موكبه

---

(١) انظر كحالة ، معجم المؤلفين : ٦٢/٣ ، والزركلي ، الأعلام : ٦٤/٢ ، والعيدروسي ، تاريخ النور السافر : ٣٦٨ ، وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٤٢٦/٨ ، والبوريني ، تراجم الأعيان من أبناء الزمان : ٦٣/١ ، والحبشي ، الصوفية والفقهاء في اليمن : ٢٠.

(٢) العيدروسي، تاريخ النور السافر : ٣٦٨ - ٣٦٩ . وعينات قرية بحضرموت على نصف مرحلة من تَرِيم .

(٣) النبهاني ، جامع كرامات الأولياء : ٢٦٥/٢ . وتجدر الإشارة إلى أن النبهاني لقبه بالعيدروسي، وهو خطأ فيما أرى ، فلا عبد القادر العيدروسي صاحب تاريخ النور السافر لقبه بالعيدرسي وهو الحريص على التأكيد على أسماء وألقاب أبناء أسرته ، ولا كتب التراجم ذكرت له هذا اللقب .

الأعلام، وتضرب بين يديه الطاسات إلى أن توفي»[١].

ولأبي بكر بن سالم مؤلفات جميعها في التصوف، منها : فتح المواهب وبغية مطلب المطالب[٢] ؛ ومعراج الأرواح إلى المنهج الوضاح[٣] ؛ ومفتاح السرائر وكنز الذخائر[٤]. ومعراج التوحيد[٥].

(٤) ديوانه المخطوط وتائيتاه :

وله أيضًا ديوان شعر مخطوط في التصوف قال عنه الهدار : «وله رضي الله عنه ديوان عظيم جيد ، يحمل بين دفتيه علوماً حقية وإرشادات صدقية وإشارات صوفية ، وكثيراً ما يكون الإنشاد به في الحضرات والمجتمعات . وقد أثنى العارفون على ذلك الديوان الميمون وما احتوى عليه من السر المخزون والجوهر المكنون ... »[٦].

ويقع هذا الديوان في ثمانين ورقة ، في كل صفحة ٢١ سطراً ، بقياس ١٦×٢٣ سم . وقد حصلت من معهد المخطوطات العربية بالكويت على نسخة مصورة من نسخة مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتَرِيم (مجموعة الكاف)، ورقمها لدى المعهد ١٢٨٣ . وهي نسخة كتبت بخط نسخي واضح سنة

(١) الزركلي ، الأعلام : ٦٤/٢ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون : ١٢٣١ ، البغدادي ، إيضاح المكنون : ١٥٩/٢ .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون : ١٧٣٨ .

(٤) البغدادي ، إيضاح المكنون : ٥٢٤/٢.

(٥) المصدر السابق : ٥٠٣/٢ ، وانظر جميع مؤلفاته هذه عند البغدادي : هدية العارفين ٢٣٨/١.

(٦) الهدار ، الجواهر في مناقب الشيخ أبي بكر تاج الأكابر : ٨١ .

١٣٠٧هـ [1].

وعند قراءة الديوان يتوقف القارئ عند قصيدتيه : التائية الصغرى (٢٧ بيتًا) ، والتائية الكبرى (١٩٧ بيتًا) التي يبدو واضحًا أن الشاعر قد كتبها معارضةً لتائية ابن الفارض [2] ومتأثرًا بها ، إذ إن أفكار ابن الفارض الصوفية انتشرت انتشارًا واسعًا في اليمن بجانب أفكار ابن عربي . وسأتناول القصيدتين كتجربة صوفية واحدة ، فالأبيات في القصيدتين حلقات مكررة سجل فيها الشاعر حالاته الصوفية في سبيل الوصول إلى الوحدة والمشاهدة . وستأتي أرقام أبيات التائيتين متسلسلة ، ففي حين تنتهي التائية الكبرى مع نهاية البيت رقم ١٩٧ تبدأ التائية الصغرى حتى البيت ٢٢٤ .

وفي الوقت الذي انتشر فيه فكر ابن الفارض في مصر والشام ، انتشر فيه الفكر ذاته في بلاد اليمن . وفي الوقت الذي حوربت فيه أفكار ابن الفارض في مصر والشام ، حوربت فيه الأفكار ذاتها في اليمن . غير أن القرن العاشر الهجري ، ولا سيما في أواخره ، حينما سيطر العثمانيون على اليمن ، زاد نفوذ المتصوفة فيه ، وكثر الأتباع ، وزادت حلقات الذكر والسماع والرقص، ونشطت الحركة الصوفية بشكل ملحوظ حتى غدت المظهر العام لليمن . ويعد ديوان أبي بكر بن سالم السقاف خير شاهد على انتشار الصوفية في اليمن في القرن العاشر الهجري ، كما يعد شاهدًا على انتشار أفكار ابن الفارض الصوفية في هذا القطر.

---

(١) الشنطي ، فهرس المخطوطات المصورة ، الأدب : ١٠٦/١ .

(٢) هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن المرشد ، المعروف بابن الفارض ، ولد في القاهرة ، وتوفي بها عام ٦٣٢ هـ ، وترك وراءه ديوان شعر صوفي ، وتعدّ تائيته الكبرى ، البالغ عدد أبياتها ٩١٩ من روائع الشعر الصوفي .

(٥) الرمز في التائية :

يُعَدُّ السماع عند الصوفية ركنًا أساسيًا من أركان التصوف ، وله أهمية كبرى في حياة الصوفي . وكانت تائية أبي بكر السقاف – كما كانت تائية ابن الفارض – قصيدة يجتمع عليها المتصوفة وينشدونها في مجالس سماعهم ، لفهم المعاني الكامنة وراء ألفاظها الظاهرة .

لقد استخدم الشعراء المتصوفة الرمز في قصائدهم منذ نشأة التصوف ، وهو أسلوب شائع لديهم . إذ عبر هؤلاء الشعراء عن حبهم الإلهي من خلال وصف مشاعرهم تجاه الأنثى في عالمنا المادي ، كما عبروا عن عشقهم الإلهي من خلال عشقهم للجمال المادي المنتشر في الطبيعة من حولنا ، وهم أيضا يجعلون من الخمر ، التي لم يشربوها ، أداة ينفصلون بها عن العالم المحسوس ليغيبوا في عالم الروح حيث تنكشف لهم الحقائق وصولاً للمحبوب الإلهي . وسنذكر هذه المعاني الصوفية في التائية ، ومدى تأثرها بتائية ابن الفارض .

رمز المرأة :

لا شك أن شعراء المتصوفة قد تأثروا باتجاه الغزل العذري العفيف في المرأة ، بتغليب الجانب الروحي في العلاقة بين المحبينِ ، وسيادة التضحية والفناء في المحبوب . ولكنهم أضافوا إلى المعاني المعجمية بعداً صوفيًا متساميًا ، يرمزون به إلي الجمال الإلهي . فلا غرابة أن تتردد أسماء قيس وليلى ولبنى وجميل وبثينة وكُثَيِّر وعَزَّة ، وعروة وعفراء في القصائد الصوفية [١] ، في حين تكثر الشكوى ، ويزداد الإحساس بالغربة والشوق للقاء المحبوب ، والهيام بحبه ، وتمني النظر إليه،

---

(١) نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية : ١٣٠ وما بعدها .

وشم رائحته عند هبوب الريح ، مع شدة الحزن والإحساس بالضياع والضعف واللوعة من بعد الحبيب ، ويصاحب ذلك السهر والشغف بالمحبوب ، والحنين إليه ، والبكاء على بعده ، ووصف مكانته في القلب ، ورؤياه في المنام ، والشوق إليه حين يُذكر ، والدعوة له بالرعاية والسلامة . وفي ذلك يبدأ أبو بكر السقاف قصيدته التائية بقوله :

١- سقتني بكأس الودِّ كأسَ المودة
فتُهتُ بلا عقلٍ وملتُ بسكرتي

٢- وهمتُ بها وجداً ، وتهتُ بحبِّها
وبحتُ لها قتلي على أيِّ حالةِ

٣- وجُدتُ بروحي في هواها ، لها البقا
ومنية قلبي أن أفوزَ بنظرةِ

٤- أراها بقلبي إن شجاني دارها
وأشْتَمُّ رباها إذا الريحُ هَبَّتِ

٥- لفرقتهم ما طاب عيشي ولا صفا
حرامٌ عليَّ السُّلْوُ بعد أحبتي

٦- حزينٌ غريبٌ ، بعد ليلى، مضيعٌ
ذليلٌ حقيرٌ ، بَعْدَ عزِّي ونخوتي

٧- تقطعت أحشائي من البُعْد والجفا
وبُدِّلْتُ من بعد النعيمِ بمحنتي

٨- أبيتُ مُعَنًّى ، طول ليلي ، ساهراً
شغفت بها طول الزمانِ بصبوتي

٩- أحنُّ وأبكي كلمــا هبّت الصَّـبــا
تذكّــرني لقـــيــا غـــزال المســرةِ
١٠- لهـــا في فـــؤادي منزلٌ مـــا أجلّه
وأجـــعلهـــا عند التـــهـــجـــدِ قِـبلتي
١١- وينطقْ بهـا سـري إذا هيْ تبـاعـدت
وينـطـقْ بـهـــا قـــــولي إذا هيْ تـدانـتِ
١٢- وأشـــهـــدها عند المنام تخـيـــلاً
ولي عند ذكـــراها مـــعـــانٍ دقـــيـــقـــةِ
١٣- تكاد لهـــا روحي تطيـــر تشـــوقًـــا
إذا ذكـــرتْ وقت الوصـــالِ القـــديمةِ
١٤- رعى الله ما قد فات من طيب وصلهَا
فـــهلَ عـــادها شنج ولو كـــان لحظةِ

وبهذا يعبر الشاعر عن حبه الإلهي عن طريق الرمز إليه بالمرأة . وكما بدأ ابن الفـارض تائيته الكبرى بكلمة «سقتني» نلاحظ تقليد أبي بكر السقـاف له ، يقول ابن الفارض في بداية قصيدته :

١- سـقـتني حُـمـيّـا الحب راحـة مـقلتي
وكـأسي مـحـيـا مَنْ عن الحـسن جلتِ [١]

وكما جعل ابن الفارض حب المرأة رمزاً لحبه الإلهي نجد أبا بكر السقّاف يتبعه في ذلك ، وهي سنة في الشعر الصوفي سار عليـهـا جـمـيع الشعـراء الصوفيين .

---

(١) ابن الفارض ، الديوان : ٤٦ .

ومن خلال رمز المرأة يتطرق أبو بكر السقاف إلى بعض المفاهيم الصوفية كالهيام والوجد في البيت الثاني ، والسر في البيت الحادي عشر . ولا يعدم الباحث أن يجد ذكر هذه المفاهيم في تائية ابن الفارض .

وكغيره من الشعراء الصوفيين يكثر أبو بكر السقاف من ترديد أسماء مختلفة مثل ليلى وسلمى ولبنى متخذاً منها رمزاً للمحبوب الإلهي ، فالجمال الأنثوي المادي يدل علي الجمال الإلهي الذي يعشقه الشاعر ، يقول أبو بكر السقاف في ذلك :

٦- حزينٌ غريبٌ ، بَعْدَ ليلى ، مضيعٌ
ذليلٌ حقيرٌ ، بَعْدَ عزِّي ونخوتي

٢١- فيا مقلتي صُبِّي المدامع واذرفي
على بُعْدِ ليلى ، غاية الحسنِ كعبتي

٣٩- فليس لدى العشاق مثلي عاشقٌ
فمجنون ليلي قد يكن من رعيَّتي

٥٨- بها قيس لبنى هام بل كل عاشقٍ
وكم مات فيها عاشقٌ بالمحبَّةِ

٧٦- سلامٌ على ليلى وسلمى ما سرى
نسيمٌ وما لاحت بروقٌ سنيَّةِ

١٢٣- بدا وجه ليلى فأسفر الكون كله
فقلبي عليها دائمًا في صبابةِ

١٨٤- فليلي لليلى مشهدٌ كلُّه وإن
تكن ساعةً فرقًا كعام حقيقةِ

ولعل أبا بكر السقاف في البيت الثامن والخمسين قد أخذ صدر بيت لابن الفارض ، حيث يقول ابن الفارض :

٢٤٢- بها قيسُ لبنى هام ، بل كل عاشقٍ
كـمـجنونِ ليلى أو كُـثـيِّـر عـزَّةِ[1]

وهو بيت يقع مع مجموعة أبيات في تائيته الكبرى ذكر فيها ابن الفارض أسماء الشعراء العذريين وحبيباتهم مثل قيس ولبنى ، وقيس وليلى ، وكُثيِّر وعزّة، وجميل وبثينة .

ويبدو تأثر أبي بكرالسّقّاف بتائية ابن الفارض شائعا في تائيته كلها . وتكثر فيهما المعاني الصوفية المشتركة ، وحسبنا هنا أن نذكرها مجملة ، وهي : نار العشق التي تحرق المحبين ، وحزنه كحزن يعقوب على فراق يوسف ، وبلواه كبلوى أيوب ، ونحوله وسقمه ، والموت والفناء في سبيله ، والنظر إلى وجهه ، ومنزلته عنده ، وفكرة الحلول ما بين القبول والرفض ، وعدم التصريح باسمه ، والغيرة عليه ، وفضل لقاء المحبوب ، ولا شريك له في حبه ، وفراقه إياه ، وتجلّي المحبوب ، والنصيحة للمتصوفة فيما يتعلق بالطريق التي يسلكونها ، ومنهجهم الذي ينبغي أن يتبعوه ، وشرف النسبة إلى الرسول الكريم، وصفات الله وأسماؤه قديمة ومنزّهَة.

وهكذا فإن أبا بكر السّقّاف قد سار على طريقة الشعراء الصوفية في الرمز بالمرأة للمحبوب الإلهي ، إلاّ أن تأثره بتائية ابن الفارض بدا واضحاً ، وكأنه أعاد صياغة مفردات واستخدامات ذلك الرمز من غير زيادة أو تجديد .

---

(١) المصدر السابق : ٧٠ .

رمز الخمر :

لعل أولَّ مَن يطالعنا بقصائده الرمزية في الخمر أبو منصور الحلاج ، المتوفى سنة ٣٠٩ هـ. وفي القرن السادس الهجري يظهر الصوفي الشهير أبو مدين شعيب بن الحسن التلمساني الأندلسي، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ بمطولاته الخمرية ذات الطابع الرمزي .

ويظهر في القرن السابع الهجري ابن الفارض بقصائده الخمرية الرمزية ، ليتبعه بعد ذلك شعراء متصوفة كثيرون ، من بينهم أبو بكر السقاف في القرن العاشر الهجري ، حيث تساموا بالعنصر الخمري في القصيدة التقليدية ليصبح رمزاً للمدامة الإلهية و أداة للتعبير عن حالة النشوة الروحية التي تقربهم من الذات الإلهية . وفي تائيته لم يفصل أبو بكر السقاف بين رموز المرأة والخمر والطبيعة ، كغيره من شعراء الصوفية ، إنما تتداخل الرموز الثلاثة لتعبر عن الحالات الصوفية التي يمر بها الشاعر ، وما فصلنا هنا إلاّ لتسهيل دراستها .

وإذا كان أبو بكر السقاف قد تبع ابن الفارض في رمز المرأة وتأثر به إلى حد كبير ، فإنه أظهر بعض الاستقلال والخصوصية في رمز الخمر . وتأتي المعاني الصوفية في تائية أبي بكر السقاف كما هي عند غيره من شعراء الصوفية ، سواء كان ابن الفارض أو غيره ، كالحديث عن السكر والكأس والمدام ، والسكر من غير خمرة ، والسكر بالنظرة ، وذكر الحان وصفاء الخمر ونشوتها ، وذكر الدير والخمر من غير كرمة ، وكل هذا من مصطلحات التصوف المعروفة .

ويتبين للباحث المتفحص لتائية أبي بكر السَّقَّاف أنه قد سار على طريقة الشعراء المتصوفة في ذكر الخمرة الصوفية التي بواسطتها يصلون إلى مراتب عالية ومرحلة شعورية في القرب من المحبوب الإلهي ، وفي المشاهدة والاتحاد ،

وإن كان مذهب ابن الفارض منتشراً في ثنايا أبيات أبي بكر في تائيته، إلا أنه جاء بشكل مقبول ، وبدرجة أقل بكثير من تأثره بأفكار ابن الفارض في رمز المرأة .

رمز الطبيعة :

يعد ابن عربي ، المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، أبرز شعراء المتصوفة حيث تقوم رؤيته الوجودية على فكرة وحدة الوجود . أما ابن الفارض فقد مضى ، لا سيما في تائيته الكبرى ، في تبني فكرة الحلول . ويأتي أبو بكر السقاف كحلقة في سلسة الشعراء المتصوفة الذين تأثروا برؤية ابن الفارض الوجودية .

وتشيع رموز الطبيعة في تائية أبي بكر السّقّاف ، ويتضح ورودها في كثير من المواضع . فرمز الحمامة حيناً ، ورمز الريح حيناً آخر ، ورمز الشمس والقمر ، ورمز الماء ، ورمز البرق ، ورمز البحر والسفينة ، ورؤية الله في مظاهر الطبيعة الجميلة ، وفي الفيافي والجبال والثرى وأماكن الحبيبة ، التي يبين فيها تأثره الواضح بتائية ابن الفارض الكبرى .

(٦) المؤثرات فى التائية :

١ - تأثره بتائية ابن الفارض الكبرى :

عند الانتهاء من قراءة تائية أبي بكر السقاف يتضح تأثره بتائية ابن الفارض الكبرى . ويبدو أن أبا بكر السقاف قد عارض تائية ابن الفارض ونسج على منوالها بشكل واضح ، لا سيما في رمز المرأة الذي استغرق القسم الأكبر من التائية . ومع أن تائية ابن الفارض بلغ عدد أبياتها ٩١٩ بيتاً بينما بلغ عدد أبيات تائية أبي بكر السقاف ٢٢٤ بيتًا ، أي أقل من رُبعْها ، إلا أن أبا بكر السقاف

استطاع أن يتطرق إلى جميع المعاني والأفكار الصوفية ليضع تجربة الحب الإلهي في صورة غنائية غزلية صوفية تتناسب مع المزاج اليمني في القرن العاشر الهجري ، ويرددها المتصوفة في مجالس السّماع المنتشرة في مدن اليمن المختلفة. وكما اختار ابن الفارض البحر الطويل لقصيدته ، وقافية التاء المكسورة التي لم تخل من بعض الأخطاء العروضية ، فقد اختار أبو بكر السقاف البحر ذاته ، والقافية ذاتها لقصيدته التائية أيضاً .

٢ - تأثره بالقرآن الكريم :

لقد بدا أثر القصص القرآني واضحًا في تائية أبي بكر السقاف ، حيث وظف هذه القصص توظيفاً صوفيًا فنيًا موفقًا لإبداء آرائه وأفكاره الصوفية :

أ - فيشبه حزنه على فراق المحبوب الإلهي بحزن يعقوب ، عليه السلام ، على ابنه يوسف ، عليه السلام ، حيث يقول :

٤٦ - فحزني عليها حزن يعقوب لابنه
وشوقي لها شوق المحبّين جملةِ

وتنتشر في جوانب هذا التشبيه فكرة صوفية أراد أبو بكر السقاف الإشارة إليها ، فكما اجتمع يعقوب بابنه بعد فراق طويل وحزن شديد ، فالسقاف يأمل بلقاء المحبوب أيضاً .

ب - ويصور أبو بكر السقاف بلواه في العشق الإلهي ، وصبره في انتظار الفرج الذي لا محالة كائن ، ببلوى أيوب ، عليه السلام ، الذي فقد شبابه وجماله وماله وزوجته وولده ، ثم صبر وظفر وعوفي من مرضه ، حيث يقول :

٨٣ - كأنيَ أيوبٌ أضرَّ به البلى
فنادى بكشف الضرّ ، عجّل إجابتي

جـ - كما تأثر أبو بكر السقاف بقصة نوح ، عليه السلام ، وسفينته التي جعلها رمزًا فنيًا صوفيًا للوصول إلى المحبوب حيث يقول :

٨٤ - سفينتنا - بحر الغرام - تغرقت

أُناديك مكروبًا ففرّج كربتي

٢١٧ - وفي نار إبراهيم كنتُ موحِّداً

ولي في سفينة نوحٍ سهمٌ وحصّةِ

د - وقد ظهر تأثر أبي بكر السقاف بمشهدين من قصة إبراهيم عليه السلام:

الأول : مشهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ، أمام الشمس والقمر ، بقوله :

٩٩ - وقل قول إبراهيم في الشمس والقمر

﴿ **فلمّا أفل** ﴾ : اللهُ اللهُ وجهتي

والثاني : مشهد إلقاء سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، في النار التي كانت برداً وسلاما عليه ، بقوله :

٢١٧ - وفي نار إبراهيم كنتُ موحِّداً

ولي في سفينة نوحٍ سهمٌ وحصّةِ

هـ - ويظهر تأثر أبي بكر السقاف بقصة موسى عليه السلام ، وكلام الله له، حيث يقول :

٢١٩ - ولي عند تكليم الكليم بشائرٌ

بطور التجلي من تجلّيه دُكّتِ

٣ - تأثره بالشعراء العذريين وغزلهم :

وتأسيًا بالشعراء المتصوفة بدا التأثر بالشعراء العذريين واضحًا بتائية أبي بكر السقاف ، كما هو عند ابن الفارض بتائيته الكبرى . لذا نلاحظ أن تلك المظاهر منتشرة في تائية أبي بكر السقاف سواء من حيث مشاعر الحب الروحي والهيام في المحبوب والحنين إليه وحب كل ما له علاقة به كالمنازل والأسماء والريح الهابة من قبله ، أو من حيث ذكر الأسماء التي تغنى بها الشعراء العذريون كليلى ولبنى وسلمى وعَزّة وغيرهن . ولقد ورد في رمز المرأة ذكر تلك الأبيات التي تشير إلى الأثر العذري في تائية أبي بكر السقاف .

٤ - تأثره بالشعر الخمري :

وكما استخدم الشعراء المتصوفة الرمز بالخمر للتعبير عن سكرهم في المحبوب الإلهي ، مضى أبو بكر السقاف بتائيته ، كما فعل ابن الفارض بتائيته ، يستخدم الخمر كرمز أيضاً ، على نحو ما ذكرنا فيما سبق .

٥ - تأثره بالطبيعة :

ويبدو تأثر أبي بكر السقاف بالطبيعة واضحًا بتائيته أيضًا . فقد استخدم مفردات الطبيعة ومظاهرها استخدامًا صوفيًا موفقًا ، كما فعل الشعراء المتصوفة من قبله ، سواء كان ابن الفارض أو غيره .

وبشكل عام فقد نهج أبو بكر السقاف بتائيته على منوال الشعراء الصوفية وتأثر بهم ، ولاسيما ابن الفارض في تائيته الكبرى ، سواء في ظهور الأثر القرآني، أو الشعر العذري ، أو شعر الخمر ، أو وصف الطبيعة ، فالشعر الصوفي لم يأت من فراغ بل استمد مقوماته من موضوعات ومفردات الشعر العربي

والفكر الإسلامي ، وأبو بكر السقاف لم ينهج من فراغ أيضاً فجاءت تائيته مماثلة للقصيدة الصوفية في شكلها ومضمونها .

(٧) الأسلوب فى التائية :

الحديث عن النفس :

ولما كان موضوع تائية أبي بكر السقاف الحب الإلهي ، كما هو الحال عند ابن الفارض في تائيته الكبرى وعند غيره ، فقد طغى على أسلوبه الحديث عن النفس ووصف حالة الحب الإلهي التي يعيشها ، من خلال الشكوى الدائمة بسبب فراق المحبوب ، والشوق إليه ، والحنين إلى دياره ، والإحساس بالغربة بعيداً عنه ، وما يصاحب ذلك من ألم ومرارة وسهر وبكاء ونحول ومرض وخوف .

وفي وصف حالته هذه يكثر أبو بكر السقاف من استخدام تاء المتكلم كقوله:

١ – سقتني بكأس الود كأس المودة
فتهتُ بلا عقلٍ وملتُ بسكرتي

٢ – وهمتُ بها وجداً وتهتُ بحبها
وبحتُ لها قتلي على أي حالةِ

٣ – وَجُدْتُ بروحي في هواها لها البقا
ومنية قلبي أن أفوز بنظرة

وفي مواضع أخرى يخلع أبو بكر السقاف ذاته ويلبسها شخص المخاطب المفرد المذكر وتتحول الصيغة إلى أمر كقوله :

١٧ - تجنَّبْ جنان العشق إن كنتَ خاليًا
فهْو محنةٌ إن كنت تسمع نصيحتي

١٨ - ودعه لمن قد فيه عُلِّقَ عقلُهُ
يروم التسلّي ، أين هيهات سلوتي ؟

٦٨ - أتحسب أن الصدَّ يُنسي مودّتي
وهيهات عندي صدها لمودتي

وفي مواضع أخرى يخاطب جمعاً مذكراً كقوله :

٦٧ - فيا آل وُدِّي ساعدوني باللقا
وإن لم تلاقوني أموتُ بحسرتي

١٥٧ - سلوا صحبتي عنيَّ فلستُ بِسَالِي
أحبكم طبعًا ، فذا أصل فطرتي

١٨٧ - فلا تحسبوا البعدَ يُنْسي ودادكم
ولا ناسيًا لي عنكم يا أحبَّتي

المحسنات المعنوية :

ويكثر أبو بكر السقاف في تائيته من استخدام المحسنات المعنوية ، كما فعل سابقوه من الشعراء الصوفية ، ولا سيما ابن الفارض الذي كان حريصًا على البديع في تائيته الكبرى . ولعل الطباق يأخذ القسط الأكبر من المحسنات المعنوية عند أبي بكر السقاف كقوله :

٢٧ - تولى زمانٌ بالصفا قد رأيتُه
وأقبل دهرٌ بالصدودِ المشتتِ

٣٦ – إذا أقـبلت كلُّ الجنانِ تحـفـهـا
وإن أدبرت كـل الـهـمـوم قـرينتي

٣٨ – نـهـاري مـجنونٌ ، وليلي كلُّهُ
نهـارٌ ، وجـفني ليس يطمع بغـفـوةِ

١٠٦ – فـلا غـائبًا إلا وهْو فـيـه حـاضـرٌ
ولا حـاضـراً إلا حـيـا كل صـورةِ

١٣٥ – فموتي بها أصل الحياة ، فَمُتْ بها
كـئـيـبًـا ، فـإن الموتَ في تلك راحـةِ

ولم يكتف أبو بكر السقاف في طباقه بإيراد لفظين متضادين بل حرص على أن يبث من خلال اللفظين المتضادين أفكاره الصوفية . ففي البيت الثامن والثلاثين لم يأت اللفظان المتضادان – النهار والليل – جامدين ، بل عبّر من خلالهما عن دوام الانشغال بالمحبوب . وفي البيت السادس بعد المئة اختصر في اللفظين المتضادين – الغائب والحاضر – عقيدته الصوفية في الحلول .

الصور البلاغية :

وتنتشر الصور البلاغية انتشاراً في تائية أبي بكر السقاف ، كما فعل غيره من الشعراء الصوفية . ولم يأت أبو بكر السقاف بصوره البلاغية مجردة ليزين بها قصيدته بديعياً ، بل جعلها أداة لبث أفكاره الصوفية المختلفة مثل قوله :

٦٥ – لقد خـانني صبـري ، وقَلّ تجلُّدي
وألبـسـتُ أثواب الضنا بَعْـدَ صـحّـتي

فالاستعارتان في (خانني صبري) و (ألبست أثواب الضنا) ، جاءتا

موظفتين توظيفاً صوفيًا فنياً ليرسم الشاعر من خلالهما صورة المحب الذي نفد صبره ، وأصابه الضر بسبب فراق المحبوب . ويقول في موضع آخر :

٨٣ - كـــأنيَ أيوبٌ ، أُضـــرٌ به البلى
فنادى بكشف الضــرّ : عــجّل إجــابتي

فهو يشبه ابتلاءه في المحبوب بابتلاء سيدنا أيوب ، عليه السلام ، ويوحي هذا التشبيه بالتفاؤل الذي أشار إليه الشاعر بمهارة ، ولم يفصح عنه ، تاركاً للقارئ استحضار قوله تعالى : ﴿ **فاسْتَجَبْنَا لهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ** ﴾[1] . ويقول:

٢١١- نعم، ترقص الأكـوانُ من وَجْدِ وَجْدِهِمْ
وجـــالَتْ جَــبـــالُ الجَـــامـــداتِ وحَنَّتِ

فالاستعارتان في رقص الأكوان ، وحنين الجبال ، جاءتا لتوظفا الطبيعة في التعبير عن الفرح والحنين لذلك المحبوب الإلهي .

ملاحظات عامة :

وبالإضافة إلى ما تقدم يشيع الغموض في تائية أبي بكر السقاف ، كما شاع عند ابن الفارض في تائيته الكبرى ، وعند غيره ، غير أن هذا الغموض هو السمة الملازمة للشعر الصوفي . أما الأسلوب المباشر في تناول المعاني فهو من شأنه أن يفقد الشعر الصوفي خصوصيته بشكل خاص ، كما يفقد الشعر العربي طابعه بشكل عام ، ويبدو الشاعر متناقضًا في آرائه ، ففي الوقت الذي ينشر أفكاره في وحدة الوجود والحلول نراه ينفي هذه الأفكار في موضع آخر ، وقد

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٨٤ .

سبقه في ذلك ابن الفارض في تائيته الكبرى . كما تبدو آراء أبي بكر السقاف الصوفية مكررة من خلال كثرة التشبيهات والاستعارات والمحسنات المعنوية . وتبدو القصيدة كالنهر المتدفق الذي لا نهاية له ، فقد صعب فيها على الشاعر إيقاف تدفقها ووضع النهاية لها . لذا لجأ أبو بكر السقاف إلى أسلوب النهايات في القصائد الدينية والمدائح النبوية وذلك بالصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه حيث يقول :

٢٢٤ - وصلّي على الهادي البشير وآله
وأصحابه والتابعين بجملةِ

وتبدو الأبيات غير مرتبة حسب الموضوعات أو الأفكار التي يريدها الشاعر ، وهذا أمر طبيعي إذ إن كل بيت في القصيدة هو حالة شعورية مستقلة عن الأخرى ، كما أنه ليس من واجب الشاعر ترتيب أبيات قصيدته حسب الموضوع ، إذ إن ذلك من واجب الدارس أو الناقد .

وهكذا جاء أسلوب أبي بكر السقاف بتائيته مشابهاً إلى درجة كبيرة لأسلوب سابقيه من الشعراء الذين نظموا قصائدهم الصوفية في الحب الإلهي ، لا سيما ابن الفارض .

خاتمة :

على الرغم من بدايات الصوفية المبكرة في اليمن ، فإن اهتمام ملوك الدولة الرسولية (٦٢٦ هـ - ٨٥٨ هـ) بالعلم وتشجيع العلماء من ناحية ، وكثرة الحروب والغارات والفتن من ناحية أخرى ساعد المتصوفة كثيراً على توسيع نشاطهم الصوفي بأشكاله المختلفة . وفي ظل الدولة الطاهرية (٨٥٨ هـ - ٩٢٣ هـ) تستمر الأوضاع السياسية ، بما فيها من حروب وويلات وفتن

وصراع على السلطة ، لتساعد اليمني على الهروب من ذلك الجحيم إلى ميادين العلم والأدب ، أو إلى ميادين العزلة الروحية وسلوك الطرق الصوفية . وتستمر تلك الحالة السياسية في ظل الدولة الإمامية طوال القرن العاشر الهجري ليزداد اليمنيون فقراً وخوفًا ، ويزداد توجه الكثيرين منهم إلى ميادين الصوفية الرحبة .

وتعد اليمن ، كمصر والشام ، إحدى الحواضر العربية الإسلامية ، ويعد النشاط الفكري الذي شهدته اليمن استمراراً طبيعيًا للنشاط الفكري في الحواضر العربية الإسلامية الأخرى . وكما شهدت مدن مصر والشام المختلفة ، كالقاهرة ودمشق نشاطًا صوفيًا ، ولا سيما في القرون المتأخرة ، شهدت مدن اليمن المختلفة نشاطًا صوفيًا مماثلاً . وإذا كانت القاهرة ودمشق قدمتا نوابغ الفكر الصوفي وتأسست فيهما كبرى الطرق الصوفية ، فإن المدن اليمنية كانت امتداداً لهذه الحواضر ، إذ تغلغلت أفكار الغزالي وابن عربي وابن الفارض الصوفية واعتنقها متصوفة اليمن ، كما تغلغلت الطرق الصوفية المصرية والشامية في المدن اليمنية . وعلى الرغم من ظهور أفكار وطرق صوفية مستقلة ، يمنية خاصة، فإن التصوف اليمني ، في القرن العاشر الهجري ، هو امتداد طبيعي لحركة التصوف التي انتشرت في مدن مصر والشام المختلفة .

والشعر ميدان خصب دخله الصوفيون فكتبوا الكثير من القصائد الصوفية للتعبير عن أفكارهم وآرائهم ، مستفيدين من تجربة الشعر العربي في الغزل بالمرأة والشعر الخمري ووصف الطبيعة وغيرها . وفي الوقت الذي كتب فيه الشعراء المتصوفة قصائدهم في مصر والشام وغيرها ، كتب شعراء اليمن قصائدهم الصوفية ، وكما تأثر شعراء مصر والشام من الصوفيين بكبار شعراء الصوفية كابن الفارض ، فقد تأثر شعراء اليمن بهؤلاء الشعراء أيضًا ، ويعد أبو بكر

السقاف أحد هؤلاء الشعراء المتأثرين بشعر ابن الفارض .

وعندما غدت تائية ابن الفارض الكبرى قبلة للشعراء الصوفية في جميع المدن الصوفية العربية ، فقد غدت قبلةً لأبي بكر السقاف لينظم قصيدته التائية على غرارها ، متأثراً بها ، وسائراً على نهجها شكلاً ومضموناً ، مع بعض الاختلاف البسيط ، ليؤكد أن الحياة الأدبية والصوفية في اليمن هي امتداد للحياة الأدبية والصوفية في كبرى المدن العربية كالقاهرة ودمشق ، ومتأثرة بها .

وبسبب انتشار التيار الصوفي في اليمن في القرن العاشر الهجري ، وكثرة الأتباع وانتشار الزوايا والدور نظم أبو بكر السقاف قصيدته التائية لتنشد في مجالس السماع ، وليرددها الصوفيون حيثما اجتمعوا ، ليغوصوا في أعماقها ، وليتدبروا معانيها الغامضة ، وليسموا في عالمهم الروحي هياماً في معشوقهم الإلهي .

ولقد حرص أبو بكر السقاف في تائيته على تتبع سنن من قبله في قصائدهم الصوفية ، وكان تأثيره بالتائية الكبرى لابن الفارض تأثراً واضحاً . وقد ركز أبو بكر السّقّاف على الرمز كوسيلة فنية صوفية في التعبير عن موضوع القصيدة وهو الحب الإلهي . وقسّم الرمز عند أبي بكر السقاف إلى ثلاثة : رمز المرأة ، ورمز الخمر ، ورمز الطبيعة. وهي ذات الرموز التي استخدمها شعراء الصوفية في قصائدهم ولا سيما ابن الفارض في تائيته الكبرى .

ولقد اتضح تأثر أبي بكر السقاف بابن الفارض في استخداماته المختلفة لرمز المرأة بشكل كبير ، حتى أصبحت أبيات أبي بكر السقاف أشبه ما تكون بإعادة صياغة ، أو اختصار بتصرف ، لأبيات ابن الفارض في رمز المرأة . ولم يستطع أبو بكر السقاف أن يأتي بإضافة جديدة في اللفظ أو في المعنى .

وفي رمز الخمر يظهر أبو بكر السقاف بعضاً من الخصوصية اللفظية ، فيقل تأثره بقصيدة ابن الفارض التائية الكبرى ، رغم تكرار أبي بكر السقاف لمعاني الخمر واستخداماته التي جاءت في قصيدة ابن الفارض . كما تقل أبيات الخمر في تائية أبي بكر السقاف بالمقارنة مع تائية ابن الفارض . وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر السقاف كان استخدامه لرمز الخمر قريباً إلى الفهم وبعيداً عن الغموض والتعقيد ، خلافًا لابن الفارض الذي تميّز رمز الخمر عنده بالغموض الشديد وبراعة التناول وعمق المعاني .

أما رمز الطبيعة عند أبي بكر السقاف فقد جاء مشابهاً لرمز الطبيعة عند ابن الفارض في تائيته الكبرى، حيث الألفاظ والمعاني والاستخدامات لظواهر الطبيعة المختلفة ، ولم يضف أبو بكر السقاف هنا جديداً .

وتأتي المؤثرات في قصيدة أبي بكر السقاف التائية ذات المؤثرات في قصيدة ابن الفارض ، كما يأتي أسلوب أبي بكر السقاف أشبه ما يكون بأسلوب ابن الفارض أيضاً .

وهكذا يمكن القول بأن الحياة الصوفية في اليمن ، في القرن العاشر الهجري ، امتداد طبيعي للحياة الصوفية في مصر والشام ، ومتأثرة بها إلى حد بعيد ، كما أن القصيدة الصوفية في اليمن ، في القرن العاشر الهجري ، جاءت متأثرة بالقصيدة الصوفية في مصر والشام ، وقد بدا ذلك واضحًا في شدة تأثر أبي بكر السقاف في قصيدته التائية بالتائية الكبرى لابن الفارض .

* *

المراجع

البحراوي ، محمد عبد اللطيف . فتح العثمانيين عدن ، وانتقال التوازن الدولي من البر إلى بحر . القاهرة : مكتبة التراث ، ١٩٧٩ م.

البغدادي ، إسماعيل باشا . إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . بيروت : مطبعة المثنى ، ١٩٤٦م.

ــــ ، هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . إستانبول : وكالة المعارف ، ١٩٥١ م.

البوريني ، الحسن بن محمد . تراجم الأعيان من أبناء الزمان . دمشق : مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩ م .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . بيروت : مكتبة المثنى ، ١٩٤١ م .

الحبشي ، عبد الله محمد . حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول . الجمهورية العربية اليمنية : منشورات وزارة الإعلام والثقافة ، ١٩٨٠م .

ــــ ، الصوفية والفقهاء في اليمن . القاهرة : مطبعة دار نشر الثقافة ، ١٩٧٦م .

الحداد ،محمد يحيى . تاريخ اليمن السياسي . بيروت : شركة دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٦م.

الزركلي ، خير الدين . الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ م .

شاه، إدريس. طريقة الصوفي . بيروت : مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٩م .

الشّنْطِي ، عصام محمد . فهرس المخطوطات المصورة ، الأدب ، الجزء الأول . الكويت : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٨٦م .

الصباغ ، ليلى . من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول . دمشق : الشركة المتحدة

للتوزيع ، ١٩٨٦ م .

ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . بيروت :دار الكتب العلمية.

العيدروسي ، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله . تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ م .

ابن الفارض ، عمر . ديوان ابن الفارض . بيروت : دار صادر .

كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية . بيروت : مكتبة المثنى ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٥٧م .

النبهاني ، يوسف بن إسماعيل . جامع كرامات الأولياء . بيروت : دار صادر .

النجار ، عامر . الطرق الصوفية في مصر ، نشأتها ونظمها وروادها . القاهرة : دار المعارف .

نصر ، عاطف جودة . الرمز الشعري عند الصوفية . بيروت : دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣م .

الهدار، عبد الله بن أحمد . الجواهر في مناقب الشيخ أبي بكر تاج الأكابر . القاهرة : دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، ١٩٧١م.

* * *

كتابان في اللغة لابن الأجدابي

د. رمضان عبد التواب*

لم يبق من كتب أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ، المعروف بابن الأجدابي ، سوى كتابين ، هما : كفاية المتحفظ في اللغة ، والأزمنة والأنواء .

أما الأول فقد طبع أكثر من مرة ، في أكثر من بلد عربية . وأما الثاني فقد نشر في دمشق ، عام ١٩٦٤م.

وهذا البحث يعرض للكتابين ، فيكشف عن موضوعيهما ، ويدخل في تفصيلات مادتيهما العلميتين ، فيشرح ، ويوازن ، ويربط بالجهود السابقة ، واللاحقة ، وينقد ...

* عميد كلية الآداب – جامعة عين شمس ، سابقاً .

ابن الأجدابي هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي اللغوي الإفريقي(١) . ويعرف بابن الأجدابي نسبة إلى « أجْدَابية» التي يقول عنها ياقوت إنها « بلد بين بَرْقة وطرابلس المغرب .. وهي أكثر بلاد المغرب نخلا وأجوده تمرا .. وهي من فتوح عمرو بن العاص ، فتحها مع برقة صلحا على خمسة الآف دينار وأسلم كثير من بربرها»(٢) .

كما يقول عنها الحميري : « أجدابية : مدينة في حيز برقة ، وهى أخر ديار لواتة .. وكان لها فيما سلف سور . ولم يبق منها الآن إلا قصران في الصحراء ، والبحر منها على أربعة أميال ، ولا شيء حولها من النبات ، وفيها يهود ومسلمون ، ويطيف بها خلق من البربر»(٣) .

قال عنه ياقوت في معجم الأدباء : « له أدب وحفظ ولغة وتصانيف»(٤) ، كما قال في معجم البلدان: « كان أديبا فاضلا له تصانيف حسنة»(٥) . وقال القفطي : « من أهل اللغة ، وممن تصدر في بلده واشتهر بالعلم . وكانت له يد

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ١٣٠/١ وإنباه الرواة ١٥٨/١ وبغية الوعاة ٤٠٨/١ والبلغة للفيروزابادي ٥ وتاريخ الأدب العربي ٣٤٨/٥ وكشف الظنون ١٣٩٩ ، ١٥٠٠ .
(٢) معجم البلدان ١٣٢/١ .
(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار ص ١١ .
(٤) معجم الأدباء ١٣٠/١ ، وانظر بغية الوعاة ٤٠٨/١ .
(٥) معجم البلدان ١٣٢/١ .

جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها»[1] .

وقد ذكر بروكلمان أن ابن الأجدابي توفي قبل سنة ٦٠٠ هـ[2]. غير أن التيجاني يذكر أنه من علماء القرن الخامس الهجري ، ويذكر مجلسا اعترض فيه ابن الأجدابي على حكم للقاضي أبي عبد الله بن هانش الذي ولي القضاء بين سنتي ٤٤٤ - ٤٧٧ هـ[3] .

وألف ابن الأجدابي الكتب التالية :

١ـ الأزمنة والأنواء .

٢- اختصار نسب قريش لأبي عبد الله بن الزبير .

٣- الرد على أبي حفص بن مكي في تثقيف اللسان .

٤- رسالة في الحَوَل .

٥- شحذ القريحة .

٦- شرح ما آخره ياء من الأسماء .

٧- كتاب العروض .

٨- كفاية المتحفظ في اللغة .

٩- مختصر في علم الأنساب .

---

(١) إنباه الرواة ١٥٨/١ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣٤٨/٥ .

(٣) رحلة التيجاني ٢٦٢ .

ولم يبق لنا على الزمن من هذه الكتب سوى كتابين هما : الأزمنة والأنواء، وكفاية المتحفظ في اللغة . أما الكتاب الأول فقد وصلت إلينا قبله أربعة كتب في موضوعه ، وهي :

١- الأزمنة وتلبية الجاهلية ، لأبي علي محمد بن المستنير ، المعروف بقطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) ، وقد نشره الدكتور حنا حداد في عمّان سنة ١٩٨٥م.

٢- الأيام والليالي والشهور ، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) ، وقد نشره إبراهيم الإبياري بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٣- الأنواء ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) . نشر في حيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٣٢ هـ. ثم نشر فيها مرة أخرى سنة ١٣٧٥ هـ .

٤- الأزمنة والأمكنة ، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي (المتوفى سنة ٤٢١هـ) . نشر في حيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٣٢ هـ .

أما كتاب « الأزمنة والأنواء » لابن الأجدابي ، فقد نشره الدكتور عزة حسن في دمشق سنة ١٩٦٤ م . وفي مقدمة الكتاب يقول ابن الأجدابي : «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا في علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهيئاتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب» .

ويخبرنا ابن الأجدابي في كتابه هذا أن بعض الشعوب تحسب أعوامها بالشهور القمرية ، وهم العرب والعبريون واليونان ، وبعض آخر يحسب الأعوام بالشهور الشمسية ، وهم الروم والسريان والقبط (ص ٢٩ - ٣٠) .

ويذكر أن أيام السنة عند العرب عبارة عن ٣٥٤ يوما ، تقسم على الشهور اعتبارا من المحرم حتى ذي الحجة . ويقدر أول الشهور بثلاثين يوما ، والثاني

بتسعة وعشرين يوما ، والثالث بثلاثين يوما ، حتى ذى الحجة الذي يقدر بتسعة وعشرين يوما لمدة سنتين ، ثم يزاد فيه يوم في السنة الثالثة ، وهي السنة الكبيسة (ص ٣٤ - ٣٥) .

غير أنه يعود فيذكر أن العرب لم تكن تعمل بذلك الحساب « وإنما كان اعتمادهم على الأهلة ، فكانوا يفتحون الشهر إذا رأوا الهلال ، ويجعلون ابتداءه من أول الليلة التي ظهر فيها الهلال . وكانوا يسمون تلك الليلة غرة الشهر ؛ لكون الهلال في أولها ، كالغرة في وجه الفرس . ثم لا ينقضي الشهر عندهم حتى يروا الهلال كرة أخرى ، فيبتدئون حينئذ شهرا ثانيا ... ثم جاء الإسلام فثبّت ذلك ، وألزم به في الصوم والفطر والحج وغير ذلك» (ص٣٥- ٣٦) .

أما السنة الشمسية ، فيذكر ابن الأجدابي أنها ٣٦٥ يوما وربع يوم ، و«أن الروم والسريان والقبط ، بنوا حساب أزمنتهم على مسير الشمس ... وزادوا لمكان الربع الذي في سنة الشمس، يوما في كل سنة رابعة ، فاتفق حسابهم وحساب الشمس»(ص٤٥) .

ثم أخذ ابن الأجدابي يعدد أسماء الشهور عند الروم والسريان . ومن كلامه نعرف أن الأسماء التي نتداولها اليوم كانت معروفة في زمان ابن الأجدابي ، مثل : « تشرين الأول» عند السريان ، الذي يقابل « أكتوبر» عند الروم (ص٤٩).

ويذكر ابن الأجدابي أن أسماء الشهور السريانية والرومية كانت « مستعملة في بلاد المسلمين بكلتا اللغتين ، فأهل الشام والجزيرة يستعملونها بلغة السريان، وأهل الأندلس وصقلية وإفريقية وما يتصل بها ، يستعملونها بلغة الروم»(٤٧- ٤٨) .

وعلى الرغم من أن الكتاب مخصص للحديث عن الأزمنة والأنواء ، وأنه

يفيض بالحديث عن الكثير من الأمور الفلكية ، ومنازل الشمس والقمر والكواكب السيارة ، وأوقات الليل والنهار ، والرياح والأنواء وغيرها ، فإنه لا يخلو كذلك من ذكر الكثير من قضايا اللغة وتراكيبها وألفاظها ؛ كقوله مثلا : « وللشمس عند العرب أسماء منها : ذُكاءُ ، ممدود لا ينصرف ؛ سميت بذلك لأنها تذكو كما تذكو النار .. ومن أسمائها الغزالة ، وبُوح وبَرَاحِ ، والجَوْنة سميت جونة لشدة بياضها . والجون أيضا الأسود ، وهو من الأضداد . ومن أسمائها : الإلاهة ، ويقال أيضا : لاهة ، بغير ألف ولام» (ص ٧٩).

ومثل ذلك أيضا حديثه عن أسماء ليالي الشهر العربي ، حين يقول : «وكل ثلاث من ليالي الشهر مسماة باسم » ، فأولها الغُرَر ، ثم النُّفَل ، ثم التُّسَع ، ثم العُشَر ، ثم البيض ، ثم الدُّرَع ، ثم الظُّلم ، ثم الحنادِس ، ثم الدَّآدئ ، ثم المحاق (ص ٨٥ –٨٦) .

أما فصول السنة عند العرب ، فتختلف عما نعرفه نحن الآن ، وهي الربيع (الذي يسميه الناس الخريف) والشتاء ، والصيف ، والقيظ (ص ٩٦– ٩٧).

ويفيض الكتاب بالأسجاع الكثيرة المروية عن العرب ، في أوقات السنة مقسمة على الأيام والشهور ؛ كقوله مثلا : «قال ساجع العرب : إذا طلعت النعائم ، طال الليل على النائم ، وقصر النهار على الصائم ، وخلص البرد إلى كل ناسم» (ص ١٤٣).

وقوله كذلك : «قال ساجع العرب : إذا طلع سعد السعود ، نَضَّر العود، ولانت الجلود ، وكُرِه في الشمس القعود » (ص ١٤٧) .

وقوله أيضا : « إذا طلع الذراع ، حَسَرت الشمسُ القناع ، وأشعلت في الأفق الشعاع ، وترقرق السراب بكل قاع » (ص ١٦٨) .

* *

وإذا انتقلنا إلى الكتاب الثاني : « كفاية المتحفظ » ، الذي وصل إلينا من مكتبة ابن الأجدابي ، وجدنا هذا العالم الجليل لغويا من الطراز الأول في كتابه هذا .

وهذا الكتاب معجم من المعاجم الموضوعية ، التي ترتب ألفاظ اللغة بحسب المعاني والموضوعات . وقد بدأ هذا النوع من المعاجم بالرسائل اللغوية الصغيرة المتخصصة في موضوع واحد ، كتلك الرسائل التي ألفها الرعيل الأول من علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، مثل أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (المتوفي سنة ٢١٦ هـ) الذي ألف لنا مجموعة كبيرة من تلك الرسائل ، بقي منها : الإبل ، والخيل ، والشاء ، والوحوش ، والفرق ، وخلق الإنسان ، والنبات والشجر .

فالرسالة الأولى مثلا تتحدث عن نتاج الإبل وحلبها ، وأسماء أعضائها ، وألوانها ، وطريقة ورودها ، وأدوائها ، وسيرها ، وغير ذلك ؛ ففي نتاج الإبل مثلا ، يقول الأصمعي : « فإذا ألقت الناقة ولدها ، فهو ساعة يقع (سَلِيل) ، فإذا وقع عليه اسم التذكير والتأنيث ، فإن كان ذكرا فهو (سَقْب) ، وإن كان أنثى فهو (حائل) ، فإذا قوى ومشى فهو (راشح) ، فإذا ارتفع عن الرشح فهو (الجادل) ، فإذا حمل في سنامه شحما فهو (المُكْعر) ، وهو في هذا كله (حُوَار) ، فإذا فطِم فهو (فصيل) ... إلخ » (الإبل ص ١٤٢) .

وبعد فترة رأى بعض العلماء أن يضمنوا هذه الرسائل ، في مؤلفات تجمعها كلها على الترتيب الموضوعي كذلك . وقد بقى لنا بعض هذه المؤلفات ، التي تنتهي بكتاب ابن الأجدابي على النحو التالي :

١ – الغريب المصنف ، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (المتوفى سنة٢٢٤هـ) : وقد حققناه ونشرنا منه الجزء الأول قبل عامين .

٢- الألفاظ الكتابية ، لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (المتوفى سنة ٣٢٠هـ) : وقد طبع عدة طبعات مختلفة ، إحداهما بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٢م .

٣- جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) : وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٢ م .

٤- متخير الألفاظ ، لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) : وقد نشره الأستاذ هلال ناجي في بغداد سنة ١٩٧٠م .

٥- التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، لأبي هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) : نشره الدكتور عزة حسن في دمشق سنة ١٩٦٩ م .

٦- مبادئ اللغة ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) : وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

٧- فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) : طبع في القاهرة عدة طبعات . كما حققه تلميذنا خالد فهمي .

٨- المخصص في اللغة ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) : وقد طبع في ١٧ سفرا بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ - ١٣٢١ هـ .

٩- كفاية المتحفظ في اللغة ، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ، المعروف بابن الأجدابي ، موضوع هذا البحث : وقد طبع في القاهرة سنة ١٢٨٧هـ ، ثم سنة ١٣١٣ هـ ، كما طبع في بيروت سنة ١٣٠٥ هـ ، وطبع بعد ذلك في مجموعة لغوية ، بتحقيق مصطفى الزرقا في حلب سنة ١٣٤٥هـ. ثم حققه السائح علي حسين ، ونشره في طرابلس بالجماهيرية الليبية سنة ١٩٨٩ م.

ويسمّيه بروكلمان (٣٤٨/٥) : «كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ من اللغة وغريب الكلام».

* *

وهو كتاب صغير جدا ، لم يذكر فيه مؤلفه شيئا عن مصادره ، ولم يرد فيه ذكر عالم من علماء اللغة ، ماعدا موضعين ذكر في الأول منهما : أبو زيد والأصمعي وأبو عبيدة، وهو قوله (ص ١٠٤ - ١٠٥) : « فأما الجانب الوحشي ، فالأيمن في قول أبي زيد ، والإنسي الأيسر . وقيل : الوحشي هو الأيسر ، والإنسي هو الأيمن . هذا قول أبي عبيدة والأصمعي ».

والموضع الثاني ذكر فيه الخليل بن أحمد ، في قول ابن الأجدابي (١٤٩): «والخُلْد : فأرة عمياء . ويقال : هو الخِلْد بكسر الخاء . ذكر ذلك الخليل». وما ذكره ابن الأجدابي عن الخليل صحيح ؛ فقد جاء في كتاب العين (٢٣٢/٤): « والخَلْد : ضرب من الجُرْذان عُمْيٌ ، لم يخلق لها عيون ، واحدتها خِلْدة . والجميع : خِلْدان ».

وليس في الكتاب إلا شاهدان شعريان في موضع واحد ، وهو قوله(ص١٢٦):

علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليماني وأسيافٌ يَقُمن وينحنينا[1]

استشهد به على أن اليلب دروع كانت تعمل قديما من جلود . والشاهد الثاني قول الشاعر :

عليهم كلُّ سابغةٍ دِلاصٍ وفي أيديهم اليَلَبُ المُدارُ[2]

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم في شرح القصائد السبع ص ٤١٤ والصحاح (يلب) ٢٤٠/١ .

(٢) البيت بلا نسبة في الصحاح (يلب) ٢٤٠/١ ومقاييس اللغة ١٥٨/٦ .

استشهد به على أن اليَلَبَ الدَّرَق .

وقد قصد ابن الأجدابي إلى هذا الاختصار قصدا ، فهو يريد لكتابه أن يكون صغير الحجم ، خاليا من التطويل والاستشهاد ؛ ليسهل على طالب اللغة الانتفاع به وحفظه إن شاء الله .

والمؤلف نفسه يقول في المقدمة : «هذا كتاب مختصر في اللغة ، وبما يحتاج إليه من غريب الكلام ، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات ، وأعريناه من الشواهد ؛ ليسهل حفظه ، ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنيا لمن اقتصر في هذا الفن ، معينا لمن أراد الاتساع فيه» (ص ٣٦) .

ولم يبدأ كتاب ابن الأجدابي بالحديث عن خلق الإنسان ، كما يصنع مؤلفو المعاجم الموضوعية عادة ، وإنما أخره بعض الشيء ، وبدأ بصفات الرجال المحمودة والمذمومة ، وصفات النساء الممدوحة والمذمومة ، ثم تحدث عن أطوار العمر والحلي . وجاء بعد ذلك كله نعوت خلق الإنسان .

ويأتي بعد هذا أبواب الإبل والخيل والحرب والسلاح والسباع والوحش والنعام ، والطير والنحل والجراد والقفار والأرضين ، والرمال والجبال والمحال والأبنية ، والرياح والسحاب والمطر والسيول ، والمياه والنبات ، والنخيل والأطعمة والأشربة ، واللبن والعسل والخمر ، والآنية واللباس ، والطيب والآلات وما شاكلها !

ورغم أن حجم الكتاب صغير ، فإنه استغرق معظم الأبواب التي حواها كتاب كبير ، كالغريب المصنف لأبي عبيد .

وقد بلغ من أهمية كتاب ابن الأجدابي في أوساط العلماء أن شرحه محمد ابن الطيب الفاسي في كتاب سماه : « تحرير الرواية في تقرير الكفاية » وقد

حققه الدكتور علي حسين البواب ، ونشره في الرياض سنة ١٩٨٣م . كما نظمه جمال الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الطبري (المتوفى سنة ٦٩٤ هـ) ، بعنوان : «عمدة المتلفظ » . وذكر له بروكلمان خمس نسخ مخطوطة في ڤينا ٨٨ وبروسة خراجي زادة ١٠١ أدب وبرلين . oct ٩٧٤ رقم ٧ وميونخ ثان ٥١ وآصفية ٣٠٢/١ رقم ١١ .

كما اختصره أبو إسحاق بن أحمد الطرابلسي . وذكر له بروكلمان مخطوطة في كبريللي ١٥٦١ . وقد أثر كتاب ابن الأجدابي في العلماء من بعده ، فأفادوا منه ، وذكروه في مؤلفاتهم . ومن هؤلاء العلماء :

١ - الزبيدي في مقدمته لتاج العروس ٦/١ : جعله من مصادره ؛ فقال : «وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي وشروحها» .

٢ - الفيومي في المصباح المنير (برجم) ٥٨/١ قال : «وقال في الكفاية (ص٦٦) : البراجم رءوس السلاميات» . (روح) ٣٣٣/١ قال : « وقال في كفاية المتحفظ (ص١٧٧) : يوم راحٌ وريح ، إذا كان شديد الريح » . (قرى) ٦٨٧/٢ قال : « وقال في كفاية المتحفظ (ص ١٧٢) : القرية كل مكان اتصلت فيه الأبنية » . ٩٧٢/٢ - ٩٧٣ قال : « قال في كفاية المتحفظ (ص ١١٢) : والمحفوظ عن العرب : السابق والمصلّى والسُّكَيت . قال : وأما باقي الأسماء فأراها محدثة» .

٣ - الدميري في حياة الحيوان ٣٩٧/٢ قال : « الهيثم : فرخ النسر أيضا . قاله في كفاية المتحفظ (١٣٧)» . ٢٩٧/١ قال : « وفي كفاية المتحفظ (١٣٢) : الحَسيلة : البقرة ، وجمعها : حسائل » . ٤٩٧/١ قال : «والسُّرعوب : ابن عرس . ويقال له : النمس . قاله في كفاية المتحفظ (١٥٠)» .

* *

ويتضح من مطالعة «كفاية المتحفظ» معرفة مدى الجهد الذي بذله ابن الأجدابي في الدرس اللغوي للعربية .

● فهو كثيرا ما يذكر مترادفات الكلمة التي يعرض لها في كتابه ؛ كقوله (ص ٦٢) : «العِرْنين : الأنف . وهو المَعْطِس ، والمَخْطِم ، والخرطوم» .

وكقوله (٦٦) : « والحَيْزُوم : الصدر ، وهو الكَلْكَل ، والبَرْك ، والجَوْشَن ، والجؤشوش » .

وقوله (٦٤) كذلك : « والجِيد : العُنق . وهو التِّليل ، والهادِي ، والطُّلْيَة ، والجمع : طُلًى » .

وقوله (٦٨) أيضا : « ومُؤْخَر الإنسان أليتاه . وهو الكَفَل ، والرِّدْف ، والبُوص ، والعَجُز ، والعَجيزة » .

● وأحيانا يذكر اللغات واللهجات التي تروى لنا عن العرب ؛ كقوله (٦٣): « يقال : اتّغر واثّغر » .

وكقوله (١٤١) : « البَرْقَش طائر صغير يلمع . وهو الذي يسميه أهل الحجاز : الشُّرشور » .

وقوله (٢١٥) أيضا : « ولا يقال : ماء مالح . وإنما يقال : مِلْح . وقد قيل: يقال : ماء مالح . وهي لغة شاذة » .

● ويهتم ابن الأجدابي كثيرا بإبراز الخلاف بين العلماء حول معاني كلمات اللغة ؛ وذلك مثل قوله (٦٤) : « النواشر والرواهش : عروق باطن الذراع . وقيل : النواشر عروق ظاهر الذراع ، والرواهش عروق باطنها » .

وقوله (١٣٢) : « اللأَى : الثور ، والأنثى لآة ، مثل لَعَاة . وقال بعض أهل اللغة : اللأَى : البقرة ، وكذلك اللآة . قال : ولا يقال للثور اللأى » .

وقوله في هذا النص : « مثل لعاة » فيه تمثيل للهمزة بالعين . ويحدث ذلك كثيرا عند اللغويين القدماء ، في ضبط الكلمات المهموزة ، فهم يبدلون الهمزة عينا، ويبقون على سائر الحروف . وعندئذ تصير تلك الكلمة الجديدة مثالا لضبط الكلمة المهموزة ؛ كقول أبي عبيد في الغريب المصنف (٢٨٥/١) : « المؤوَّم مثال المُعوَّم » .

وهذه الطريقة من الضبط شائعة جدا في التراث العربي ؛ انظر مثلا : ديوان عبيد بن الأبرص ١١/١٩ ، ١٢/١٩ ، ٥/٢٠ والكامل للمبرد ٩/١ والنوادر لأبي زيد الأنصاري ٧١ والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ٤٠١/١ وشرح المفضليات ٦/٢٩ ، ٤/٤٧١ والصحاح ٢٢٥٠/٦ ولسان العرب ١٩٨/١ ، ٢٣٣/١١ وغير ذلك كثير كثير .

وابن الأجدابي لا يفوته في بعض الأحيان أن يذكر العبارات اللغوية ، التي تستخدم فيها الكلمات المشروحة ؛ كقوله مثلا (٦٨) : « شَغاف القلب : حجابه . ومنه قيل : شُغِف فلان بكذا ، أي وصل حبه إلى شغاف قلبه » .

ومن كلام ابن الأجدابي نعرف متى تكون العنوسة في الرجال والنساء عند القدماء ؛ فهو يقول (٧١) إن «الرجل إذا جاوز وقت النكاح ولم يتزوج فهو عانس». كما يقول (٧٤) إن «المرأة إذا بلغت العشرين ولم تتزوج فهي عانس» !

ونفيد من الكتاب بعض الفروق اللغوية ؛ كقوله مثلا (ص ٧٩) : « إذا كان في الشفة العليا شق ، فهو أعلم ، وإن كان ذلك في السفلى ، فهو أفلح». وقد عبرت اللغة الفارسية عن هاتين الحالتين بعبارة واحدة هي : «سه لَپْ» وهي مكونة من كلمتين : (سه) بمعنى : ثلاثة، و (لَپْ) بمعنى : شفة . ومعنى العبارة في الفارسية : «ذو الشفاه الثلاث». وقد عربت هذه العبارة بكلمة: (سِلَف) ونسب إليها بكلمة : (سِلَفي) ، كما ورد في اسم أحد علماء العربية ،

وهو : أحمد بن محمد السِّلَفي (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) وهو صاحب معجم السفر !

كما نفيد من كلام ابن الأجدابي أن النطق الباريسي للراء ، كان معروفا لديه ، وأنه كان عنده من اللُّثْغة ؛ يقول (٨٠) : « فإن كان يخرج الحرف من غير مخرجه ، مثل أن يجعل الراء غينا ، أو نحو ذلك فهو ألثغ » .

ويروي ابن الأجدابي قولة لبني عبسٍ، فيقول : « ما صبر معنا في حربنا من النساء إلا بنات العم ، ومن الإبل إلا الحُمْر ، ومن الخيل إلا الكُمْت » .

وبعض هذه القولة معروف لدينا في شيء من الرجز ، الذي رواه لنا النحاة في باب الفاعل ، وهو قول الراجز :

فمــا برئتْ من ريبــة وذَمّ
في حــربنا إلا بناتُ العَمّ

وأحيانا يعبر ابن الأجدابي عن رأيه في بعض ما يروي . وقد سبق أن عرفنا أنه بعد أن عدّد عشرة أسماء في سباق الخيل ، قال (١١٢) : « والمحفوظ عن العرب : السابق ، والمصلّى ، والسُّكَيت ، الذي هو العاشر . فأما باقي الأسماء فأراها محدثة » .

ومن كتاب ابن الأجدابي ، نعرف أن اللغة تغيرت في أيامنا هذه ، فأصبحت دلالات بعض الألفاظ مختلفة عما في زمان ابن الأجدابي ، فمن المعروف الآن أن « اليمام » يطلق على الطائر البري ، على العكس من « الحمام » الذي يطلق على الداجن في البيوت . أما ما كان مستعملا فى أيام ابن الأجدابي ، فيتضح من قوله (١٣٨) : « الحمام عند العرب هي البَرِّيّة ذوات الأطواق كالفواخت والقَمارِيّ ، وغيرها . فأما الدواجن في البيوت ، فهي : اليمام » !

وعلى الرغم من أن بعض اللغويين العرب القدماء كانوا يعرفون شيئا من اللغات السامية ، كما يعرفون علاقات القربى بينها وبين العربية ، فإنهم قصّروا في الإفادة من هذه اللغات في فهم الظواهر اللغوية في العربية .

وقد وقع ابن الأجدابي في شيء من الغلط ، بسبب بعده عن الدرس اللغوي المقارن ؛ حين قال (١٩٣) : « الأبّ : المرعى . وقيل : الأب للبهائم بمنزلة الفاكهة للناس » .

ولم يكن ابن الأجدابي وحده في هذا الوهم ، فمعظم المفسرين العرب ، يقولون كما قال هو ، تفسير قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبّاً ﴾ .

والحقيقة أن كلمة : « الأبّ » معربة من السريانية ܐܶܒܳܐ ébbà بمعنى «ثمر» . وهو أمر معروف لدى الدارسين للغة السريانية من بين اللغات السامية .

* *

المصادر والمراجع

١ – الإبل ، للأصمعي (ضمن الكنز اللغوي في اللسن العربي) – تحقيق أوجست هفنر – ليبزج ١٩٠٥ م .
٢ – الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقي – حيدرآباد الدكن بالهند – ١٣٣٢ هـ .
٣ – الأزمنة والأنواء ، لابن الأجدابي – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٤ م .
٤ – إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٠ – ١٩٧٣ م .
٥ – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ م .
٦ – البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزابادي – تحقيق محمد المصري – دمشق ١٩٧٢ م .
٧ – تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي – تحقيق عبد الستار فراج – الكويت ١٩٦٦ م .
٨ – تاريخ الأدب العربي ، لكارل بروكلمان – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٥ م .
٩ – حياة الحيوان لكبرى ، للدميري – القاهرة ١٩٦٥ م .
١٠ – ديوان عبيد بن الأبرص – تحقيق حسين نصار – القاهرة ١٩٥٧ م .
١١ – رحلة التيجاني – تحقيق حسن حسني عبد الوهاب – المطبعة الرسمية بتونس ١٩٥٨ م .
١٢ – الروض المعطار في خبر الأقطار ، لمحمد بن عبد المنعم الحميري – تحقيق إحسان عباس – بيروت ١٩٨٠ م .
١٣ – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لابن الأنباري – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٤ م .
١٤ – شرح المفضليات ، لأبي محمد القاسم بن بشار الأنباري – تحقيق لايل – بيروت ١٩٢٠ م.
١٥ – الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – القاهرة ١٩٥٦ م .
١٦ – العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي – تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي – بغداد

١٩٨٠ – ١٩٨٥ م .

١٧ – الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة – القاهرة ١٩٥٦ م .

١٨ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لحاجي خليفة – إستانبول ١٩٤٣ م .

١٩ – كفاية المتحفظ في اللغة ، لابن الأجدابي – تحقيق السائح على حسين – طرابلس ليبيا سنة ١٩٨٩ م .

٢٠ – لسان العرب ، لابن منظور الإفريقي – بولاق ١٣٠٠ – ١٣٠٧ هـ .

٢١ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للفيومي – القاهرة ١٣١٠ هـ .

٢٢ – معجم الأدباء ، لياقوت الحموي – نشر أحمد فريد رفاعي – القاهرة ١٩٣٦ م .

٢٣ – معجم البلدان ، لياقوت الحموي – تحقيق فستنفلد – ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م .

٢٤ – مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوي – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٣٦٦ – ١٣٧١هـ .

٢٥ – النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري – نشر علي محمد الضباع – القاهرة (بلا تاريخ) .

٢٦ – النوادر في اللغة ، لأبي زيد الأنصاري – نشر سعيد الشرتوني – بيروت ١٨٩٤ م .

* * *

صنعة الشعر للسِّيرافي هو « كتاب في العروض » لأبي الحسن العروضي

د . محمود محمد الطناحي*

بين الفينة والفينة يظهر كتاب هنا ، أوهناك ، بعنوان مغلوط، أو باسم مؤلّف لا علاقة له به . وفي الكتاب ؛ موضوع هذا البحث « صنعة الشعر للسيرافي » اجتمع الأمران ، فلا العنوان صحيح ، ولا المؤلف هو السيرافي !

وقد تتبّع د . الطناحي المسألة بتؤدة وتسلسل منطقيّ ، وشرح مستفيض، فأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتاب هو :

« كتاب في العروض » لأبي الحسن العروضي المتوفى ٣٤٢هـ .

* أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب – جامعة حلوان .

عن دار الغرب الإسلامي - بيروت - صدر هذا الكتاب سنة ١٩٩٥ م، في (٣٧٢) صفحة من القطع المعتاد ، بتحقيق الدكتور جعفر ماجد .

وأبو سعيد السِّيرافي ثالث الثلاثة الكبار من علماء العربية في القرن الرابع : أبو علي الفارسي ، وأبو الحسن الرُّمّاني، فإذا رأيت كتاباً يحمِل اسمه، أخذ منك الفرح مداه، وكذلك كان شعوري حين أفضل عليَّ ناشرُه الأخ الحبيب اللّمْسي بإهدائي إياه.

وستدور كلمتي هذه حول أربعِ نقاط: عنوان الكتاب ومطابقته لموضوعه ، ونِسبته إلى أبي سعيد السِّيرافي، وعرْضه، ونقد نشرته.

أما ما يتصل بعنوان الكتاب: فقد جاء على صفحة الغلاف: كتاب صنعة الشعر لأبي سعيد السِّيرافي.

وتحته هذا الكلام: « نسخة فريدة من كتاب مفقود وأوفى كتاب في بابه منذ الخليل بن أحمد إلى اليوم ».

ثم يحدثنا المحقق في خطبته عن هذه الصدفة السعيدة التي ساقت إليه هذا النصّ النفيس، ثم أنبأنا أن المخطوط لم يكن يحمل عنوانه ولا اسم مؤلفه. فمن أين جاء المحقق بهذا العنوان الذي أثبته على غلاف المطبوع، وهو في غاية الاطمئنان له والوثوق به ؟ ثم من أين قطع بنسبته إلى أبي سعيد السِّيرافي؟

لم يكن بين يدي المحقّق إلاّ دليلٌ واحد، هو الذي قاده إلى ما ظنّه من اسم الكتاب واسم مؤلفه، وذلك ما جاء في الصفحة الخامسة والخمسين من المخطوط، وتقابل الصفحة التاسعة والسبعين من المطبوع. وهو قول مؤلف الكتاب: « وقد بيّنا هذا فى كتاب ألفات الوصل والقطع بياناً محكما » . أخذ المحقق هذا الكلام، ثم عرضه على الكتب الببليوجرافية: فهرست ابن النديم

وكشف الظنون ونحوهما، فوجد لأبي سعيد السيرافي كتابا اسمه « ألفات الوصل والقطع » إذن فهذا الكتاب المجهول العنوان والمؤلف هو لأبي سعيد السّيرافي. ثم نظر في مصنفات السّيرافي الأخرى فوجد له كتابا اسمه «صنعة الشعر والبلاغة » ذكره ابن النديم والقفطي وياقوت والسيوطي، وعاد إلى موضوع الكتاب فوجده يدور حول العَروض والقوافي، وهما من صنعة الشعر لا محالة، فقطع بأن عنوان هذا الكتاب المجهول العنوان هو: صنعة الشعر والبلاغة. وهكذا ارتاح المحقق الفاضل إلى عنوان الكتاب ونسبته إلى أبي سعيد السِّيرافي، وأخذ يكتب مقدمته ويحققه.

وأقول: أما أن لأبي سعيد السيرافي كتابا اسمه « صنعة الشعر والبلاغة » فهذا لا شكَّ فيه ولا مَدْفَعَ له؛ لأن الثقات من المترجمين ذكروه له ، وأما أن هذا الكتاب المخطوط الذي بين أيدينا هو هو «صنعة الشعر والبلاغة» فهذا ما لا دليل عليه، فضلا عن أن موضوع الكتاب ينفي أن يكون هو «صنعة الشعر والبلاغة» يقول المؤلف في مقدمته، بعد الحمدلة والصلاة على النبيّ ﷺ: « هذا كتاب ألّفناه في علم العروض وشرح أبوابه وتقطيع أبياته وتلخيص ألقابه، وتبيين أوتاده وأسبابه» . فهذا كلام ناطق بأن الكتاب في علم العروض، على الحدّ الذي رسمه الخليل ومن جاء بعده. ولم يذكر المؤلف في مقدمته شيئا عن صنعة الشعر أو البلاغة.

ومعلوم أن «صنعة الشعر» أو «صناعة الشعر» إنما هي كتبٌ تعالج موادَّ الشعر، على نحو ما نجد في كتاب الصناعتين – صناعة النثر وصناعة الشعر–

لأبي هلال العسكري، أو في كتاب العمدة في صناعة[1] الشعر ونقده للحسن بن رشيق، ويأتي العروض والقوافي في بعض هذه الكتب باعتباره مادّةً من موادّ الشعر[2]. وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب في العروض، بلا أدنى شك، ولم يتطرّق إلى شيء من موادّ الشعر غير العروض والقوافي والمعمّى، فهو كتاب خالص للعروض، كما تدلّ مادّته من أول الكتاب إلى آخره، وكما تنبئ مقدمة المؤلف التي نقلت منها شيئًا قريبا. والمحقق قد أنبأنا في خطبته أن المخطوط الذي نشر عنه الكتاب لم يكن يحمل عنوانًا للكتاب، فإثبات هذا العنوان إنما خرج من كِيس المحقق بالاجتهاد وحده، وهو اجتهاد غير صحيح.

ومن العجب أن المحقق لم يذكر لنا شيئًا عن هذا المخطوط: مكان وجوده، ووَصْفه المادّي، في كم ورقة يقع؟ وما نوع الخطّ الذي كتب به، أمشرقي هو أم مغْربي، وهل له تاريخ نَسْخ؟ إلى سائر الأوصاف والسّمات التي اصطلح عليها المحقّقون!

ومن كل ما تقدّم يثبت -إن شاء الله- أن هذا الكتاب الذي نشره الدكتور جعفر ماجد هو كتاب في علم العروض والقوافي، وليس هو «صنعة الشعر والبلاغة». ويبقى أن أشير إلى أن المحقق قد توقّف عند كلمة «البلاغة» في عنوان الكتاب الذي أثبته؛ لأنه نظر في الكتاب فلم يجد فيه شيئا من علوم

(١) هكذا سماه الحاج خليفة في كشف الظنون ص ١١٦٩، وكذلك سُمّي في طبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٧م، وطبع بعد ذلك باسم: العمدة في محاسن الشعر.

(٢) كتب كثير من أهل العلم في صنعة الشعر أو صناعة الشعر، انظر أسماءهم في تاريخ التراث العربي: المجلد الثاني - الشعر - الجزء الخامس ص ٢٥٣، ٢٥٤.

البلاغة، فقال: ولكن أين هي البلاغة؟ هل يكون العنوان يشير إلى كتاب لم نعثر إلاّ على قسمٍ منه هو القسم المتعلّق بالعروض، وضاع القسم الخاصّ بالبلاغة؟ أم هل يكون المؤلف قد استعمل كلمة «البلاغة» في غير معناها الاصطلاحي، أي علم البلاغة، وإنما عنى بها البراعة في القول، وهو ما لا يتأتّى للشاعر إلاّ بحذق العروض؟ أم يكون عنى بها حسن التصرف في فنون الكتابة بفكّ رموزها، وإحكام مغالقها، كما جاء في باب المعاياة وباب التعمية، وهما بابان لا علاقة لهما بصنعة الشعر؟ لا ندري » . وهذه كلها ضروب من الأسئلة لا جوابَ لها، وافتراضات لا تحقيق لها؛ لأن الكتاب الذي بين أيدينا والذي نشره المحقق إنما هو كتاب في العروض، ولا صلة له بكتاب «صنعة الشعر والبلاغة» الذي التقطه الأستاذ المحقق من ترجمة أبي سعيد السِّيرافي.

* *

ونتنقل إلى النقطة الثانية، وهي نسبة ذلك الكتاب المنشور المجهول العنوان –والذي هو كتاب في العروض ليس غير– إلى أبي سعيد السّيرافي، كما أثبت ذلك المحقق واطمأنّ إليه، مستنداً إلى دليل واحد، وهو قول مصنّف ذلك الكتاب: «وقد بيّنا هذا في كتاب ألفات الوصل والقطع» وقد نقلتُه من قبل. وهذا الدليل ليس كافياً ولا حاسماً في نسبة الكتاب إلى أبي سعيد السّيرافي. ونَعَمْ إن لأبي سعيد السيرافي مصنَّفًا هو «ألفات الوصل والقطع» ولكنْ ألم يخلق الله من يصنّف في ألفات الوصل والقطع غير السّيرافي؟

والأصل في نسبة كتاب مخطوط إلى مؤلف يدور حول ثلاث نقاط:

أ - أن يُذكر في ترجمة الرجل.

ب - أن يثبت اسم المؤلف على صدر المخطوط، أو في مقدمة الكتاب أو خطبته أو خاتمته.

جـ - أن يكون هناك نقول عن ذلك الكتاب في الكتب اللاحقة، وتكون هذه النقول مقترنة بالتصريح باسم المؤلف.

وفيما يتصل بالنقطة الأولى: فإنا لم نجد أحداً ممن ترجموا لأبي سعيد السِّيرافي ذكر أن له مؤلَّفًا في العروض، نعم إنهم ذكروا أن له معرفةً بالعروض، ولكنهم لم يذكروا له مصنَّفاً فيه، والاشتغال بالعلم غير التصنيف فيه، والعروض علم من علوم العربية، فواجبٌ على من اشتغل بها أن يعرفه، وبخاصة علماء الصدر الأول، فقول المحقق: «وجاء في ترجمة السّيرافي أن له تأليفًا في العروض، هو في الفهرست بعنوان « كتاب صنعة الشعر والبلاغة» كلامٌ غير صحيح؛ لأن الذي ذكره ابن النديم في الفهرست عنوان الكتاب فقط « كتاب صنعة الشعر والبلاغة» ذكره في أثناء تعداد مصنَّفات أبي سعيد السِّيرافي، ولم يذكر أنه تأليف في علم العروض[1]. وكذلك ما أحال عليه المحقق من وفيات الأعيان وبغية الوعاة ومعجم الأدباء وكشف الظنون.

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٣، مصورة مكتبة خياط ببيروت ١٩٦٤م عن طبعة ليبزج ١٨٧١م تحقيق جوهانس رودجر.

وفيما يتصل بالنقطة الثانية: فإن المحقق قد صرّح بأن المخطوط الذي نشر عنه لم يكن يحمل عنوانه ولا اسم مؤلّفه، وحين قرأنا خطبة الكتاب، أو مقدمته، وخاتمته لم نجد ذكراً لاسم المؤلف.

وتبقى النقطة الثالثة، وهي نقول المتأخرين من العروضيين والأدباء، عن تصنيف لأبي سعيد السّيرافي في علم العروض، وقد أنفقت وقتًا غير قليل في قراءة ما لديّ من كتب العروض، فلم أجد أحداً نقل عن تأليف لأبي سعيد السيرافي في هذا العلم، ومثل أبي سعيد السّيرافي لا يُهْمَل ولا يُجْفَى في علم هو من أبرز علوم العربية، فكيف يسكت أهل العروض عن الإفادة منه أو الإحالة عليه، وبخاصة أن ذلك الكتاب غنيٌّ في مادّته، كما يأتي في عرْضه، إن شاء الله.

ثم إني قد نظرت في تصانيف أبي حيان التوحيدي كلها، فلم أجد فيها أدنى إشارة إلى تأليف لأبي سعيد السيرافي ، في العروض ، وأبو حيان - كما هو معروف - من أكثر الناس إعظامًا لأبي سعيد السيرافي ، وإكباباً عليه، وأخذاً عنه، وإفادة منه.

وفيما وراء هذه النقاط الثلاث التي هي الأُساس والعماد في نسبة كتاب مخطوط إلى مؤلّف أو نفيها عنه، فهناك مُدارَسة الكتاب والنظرِ في مادّته، وعرْضها على ما عُرف من العصر الذي كُتبت فيه، ثم على ما عَهد من منهج المؤلف الذي نسبت إليه بمقارنتها بتصانيفه الأخرى، وذلك كلّه موكولٌ إلى ثقافة المحقّق، وبصره بتاريخ التأليف العربي ومناهج المؤلفين.

وبَدْءة ذي بَدْء فإن ذلك الكتاب من كتب القرن الرابع، ومصنّفه عاش

في هذا القرن لا محالة، يأتيك هذا في أدلّة كثيرة، منها قول المصنّف: «وما رأيت في هذه الكتب - يعني كتب العروض - كتابًا هو أنفع ولا أجمع من كتاب أستاذنا أبي إسحاق الزجّاج رحمه الله»[1]. وذكر مرّة أنه حضر حَلْقتَه [2].

ولا يصحّ أن يتقوّى المحقِّقُ بذلك على أن مؤلف الكتاب هو أبو سعيد السِّيرافي، اعتماداً على أن الزجاج والسّيرافي متعاصران، والأول متقدّم بالسِّنِّ والمشيخة، واعتماداً أيضا على ما ذكره القاضي المفضل بن محمد ابن مِسْعَر، فإنه قال في ترجمة السِّيرافي: «لحق الزجّاجَ والسّرّاج، وأخذ عنهما»[3] ولم يُتابَعْ ابن مِسْعَر على هذا، فإن سائر الذين ترجموا للزجّاج وللسّيرافي لم يذكروا مشيخة ولا تلمذة، وعلى هذا فينبغي أن تُفهم كلمة «أخذ» التي ذكرها ابن مسْعر، في حقّ الزجاج بأنها بمعنى «رَوَى» فقط، وليس بمعنى «تَلْمَذَ» وآية ذلك أن ابن خير الإشبيلي ذكر رواية السِّيرافي عن الزجّاج كتابين هما: فصيح ثعلب، والقوافي لأبي عمر الجَرْمي[4].

ومما ينبغي التنبّه له أن السِّيرافي حين ترجم للزجّاج، في كتابه أخبار النحويين البصريين، لم يذكر أنه أخذ عنه شيئا[5]، وحين ترجم لابن

(١) الكتاب ص ٢٨ .

(٢) الكتاب ص ١٧٢ ، وانظر منه فهرس الأعلام .

(٣) تاريخ العلماء النحويين ص ٢٨ .

(٤) فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٣٣٧ ، ٣٤٢ .

(٥) أخبار النحويين البصريين ص ١١٣ .

السراج، ذكر أنه أخذ عنه النحو، فقال: «وكان بعدهما – أي بعد الزجاج وابن كَيْسان– أبو بكر محمد بن السَّرِيّ المعروف بابن السَّرّاج، وأبو بكر محمد بن علي المعروف بِمَبْرَمان، وعنهما أخذتُ أكثر النحو، وعليهما قرأتُ كتاب سيبويه»[1].

هذا وقد كشف الدكتور محمد إبراهيم البنا علاقة السِّيرافيّ بالزَّجّاج كشفًا جيّداً، فقال بعد أن ذكر روايته عنه «فصيح ثعلب» و «قوافي الجَرْمي»: « وليس الزجّاج معروفًا في شيوخه النحاة، على الرغم من مكانة الزجّاج ، ولعل ذلك راجع إلى أن رحيل أَبي سعيد إلى بغداد كان في أواخر حياة الزجّاج»[2] . وهذا يُصحّح كلامَ ابنِ مِسْعَر السابق.

ثم ننظر بعد ذلك في مادّة الكتاب، فنجد أدلّة كثيرة تنفيه عن أبي سعيد السِّيرافيّ:

أولا : أن هذا الكتاب اشتمل على خطبة، فيها الحمدلة والصلاة على نبيّه ﷺ، ثم عرض الكتاب ومنهجه فيه، ولم نر شيئا من ذلك فيما طُبع من آثار أبي سعيد السِّيرافي: شرحه على كتاب سيبويه، وأخبار النحويين البصريين، فهو في هذين الكتابين يدخل إلى موضوعه مباشرة.

ثانيا : قال مؤلف هذا الكتاب: «وقد خبَّرني بعض الثقات عن المازنيّ أنه

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٢) مقدمة تحقيق أخبار النحويين البصريين ص ١١ .

قال....»[1] فمثل هذا التعبير يدلّ في غالب الأمر على أن بينه وبين المازنيّ شخصًا واحدًا، على حين نرى بين السِّيرافي والمازنيّ شخصين، كما جاء في رواية له عن أبي بكر بن السّراج، عن محمد بن يزيد المبرّد، عن المازنيّ[2]. فهذا يدلُّ على أن مؤلف هذا الكتاب متقدّم على السّيرافي.

ثالثا: عقد مؤلّف هذا الكتاب في آخره بابًا لاستخراج المُعَمَّى[3]. وكان السِّيرافيُّ قد ذكر في ترجمة «أبي حاتم السِّجستاني» من كتاب أخبار النحويين البصريين، أنه كان حسنَ العلم بالعروض واستخراج المعَمَّى، وذكر له نموذجًا من استخراجه[4]. فلو كان مؤلف هذا الكتاب هو أبا سعيد السِّيرافي لكان في غالب الأمر قد أفاد من شاهد أبي حاتم هذا فيما ذكره من شواهد لاستخراج المعمّى.

رابعا: عالج مؤلف هذا الكتاب الضرورة الشعرية في باب سمّاه «باب مايحتمل الشعر»[5]. وهو ما صنعه أبو سعيد السّيرافي، في شرحه لكتاب سيبويه، وقد استخرجه الدكتور رمضان عبد التواب من شرح سيبويه، ونشره محقّقاً نشرةً مستقلّة، باسم: «ضرورة الشعر»[6]. وقد قايَسْتُ هذا بذاك، فوجدت الأمر بين

(١) الكتاب ص ٣٢٨.

(٢) أخبار النحويين البصريين ص ٨٩.

(٣) الكتاب ص ٣٠٩.

(٤) أخبار النحويين البصريين ص ١٠٢، ١٠٣.

(٥) الكتاب ص ٨٠.

(٦) دار النهضه العربية -بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م، وأشير هنا إلى أن محقق الكتاب يعرف عمل الدكتور رمضان عبد التواب هذا؛ لأنه أشار إليه في مقدمته في أثناء حديثه عن المراجع التي ترجمت للسيرافي. فكان ينبغي عليه أن يقوم بما قمتُ به أنا الآن من المقايسة بين المعالجتين.

الكتابين غير متطابق، من حيث ذكرُ الشواهد وعدمُ ذِكرها، ومن حيث اختلاف المُعالَجة في الشواهد المشتركة في الكتابين، ومن حيث نسبة الشاهد والتعليق عليه:

فمن الأول: أن مؤلف هذا الكتاب أنشد شاهداً على تسكين الحرف المكسور:

لو عُصْرَ منه البانُ والمِسْكُ انْعَصَرْ[1]

ولم يُنشد السِّيرافيُّ هذا في ضرورة الشعر.

وأنشد أيضاً شاهداً على تسكين ما حقُّه الكسر، وفتح ما حقُّه السُّكون:

ألا رُبَّ مولودٍ وليس له أبٌ   وذي وَلَدٍ لم يَلْدَهُ أبوانِ[2]

ولم يرد هذا في ضرورة الشّعر.

ومن اختلاف المعالجة فى الكتابين: أن مؤلف هذا الكتاب أنشد شاهداً على حذف الياء من «هي» اجتزاءً بكسرة الهاء:

دارٌ لسُعْدَى إذْ هِ من هواكا

ولم يحكم عليه بشئ[3]، على حين حكم عليه السِّيرافيُّ بالقُبْح[1].

---

(١) الكتاب ص ٨٠.

(٢)الكتاب ص ٨١، وفي البيت تحريف سأشير عليه في نقد نشرة الكتاب .

(٣) الكتاب ص ٨٠ .

(٤) ضرورة الشعر ص ١١٠ ، ١١١ .

وكذلك قول الراجز:

قَواطِنًا مكَّةَ مِن وُرْقِ الحَمِي

قال عنه مؤلف هذا الكتاب: أراد الحمام، فَحذَف الألف، فبقي الحَمَمَ، فاجتمع حرفان من جنسٍ واحد، فأبدل الميم الثانية ياءً، كما يقال في [تظنّنت]: تظنّيتُ، فأبدلوا الياء من النون[١] .

أمّا السِّيرافيُّ فقد قال: يريد الحمام، فرخَّمها، [و] في كيفية ترخيمها ثلاثة أوجه. ثم ذكر هذه الثلاثة الأوجه بالتفصيل[٢] .

وأنشد مؤلف هذا الكتاب:

فاليوم أشربْ غير مُسْتحقبٍ إثماً مـــن الله ولا واغِـلِ

ثم قال: يريد: أشربُ، فحذَف الضمّةَ، والرواية الصحيحة: فاليومَ فاشربْ[٣] .

أما السيرافيّ فقد قال عقب إنشاد البيت: فسكّن الباء من أشربْ، والوجه أن يقول: أشربُ، بالرفع[٤] .

(١) الكتاب ص ٨١ .
(٢) ضرورة الشعر ص ٩١ ، ٩٢ .
(٣) الكتاب ص ٨٤ .
(٤) ضرورة الشعر ص ١٢٠ .

وقال مؤلف هذا الكتاب في قول العباس بن مِرداس:

فما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مِـرداسَ في مَجْمَـعِ

فترك صرف «مرداس» وهو اسمٌ منصرف، وهذا قبيح لا يجوز، ولا يقاس عليه؛ لأنه لحن، والرواية الصحيحة ما قال أبو إسحاق الزجاج: يفوقان شيخيَ في مجمع[1].

وأنشد السّيرافي البيت، ولم يزد على قوله: فلم يصرف «مرداسا» وهو أبوه، وليس بقبيلة[2].

وأنشد مؤلف هذا الكتاب شاهداً على مدّ المقصور:

سيغنيني الذي أغناك عنّي فلا فقرٌ يـدوم ولا غِنـــاءُ

ثم قال: والوجه الأجود في هذا أن يكون أوله مفتوحا؛ لأن معنى الغَناء والغِناء واحد، والشاعر إذا اضطرّ إلى المدّ غيّر أوّله، ووجّهه إلى ما يجوز، قال:

والمرءُ يُبليه بَلاء السِّربالْ كَـرُّ الليالي وانتقالُ الأحـــوالْ

فلمّا فتح الباء من البِلَى ساغ له المدّ[3].

(١) الكتاب ص ١٧٤ .

(٢) ضرورة الشعر ص ٤٤ .

(٣) الكتاب ص ١٧٥ .

أما السيرافيّ فقد قال عقب إنشاد شاهد مدّ المقصور: والغِنى مقصور، وليس له -يعني الأخفش- في ذلك حُجّة من وجهين: أحدهما أنّ البيت يجوز إنشاده بفتح الغين:

فلا فقرٌ يدوم ولا غَناءُ

و«الغَناء» ممدود، معناه معنى الغِنَى. ويجوز أن يكون «غِناء» مصدر «غَانَيتُه» أى فاخرتُه بالغِنَى عنه، كما قال:

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحـن إذا متنا أشدُّ تغانيا

أي غَنيٌّ، بعضٌ عن بعض[1].

وأنشد مؤلف هذا الكتاب:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحِبْ قوِّمِ بالدَّوِّ أمثالَ السَّفـــينِ العُوَّمِ

ولم ينسُبه إلى قائل، ثم عقّب فقال: فحذف الكسرة من «صاحب» والرواية الصحيحة: قلت: صاحِ قوِّمِ[2].

وقد أنشد السِّيرافيُّ هذا الشاهد، ونسبه إلى أبي نُخَيْلة، وعلّق عليه فقال: ولم يقُلْ: صاحبُ، ولا: صاحبِ، وهما الوَجْه[3].

ثم انظر أيضاً شاهدين على اختلاف المعالجة بين الكتابين في قول الفرزدق:

---

(١) ضرورة الشعر ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الكتاب ص ٨٥ .

(٣) ضرورة الشعر ص ١٢٠ .

وما مثله في الناس إلاّ مُملَّكًا   أبو أمّه حـيٌّ أبوه يُقارِبُهْ[1]

وفي قول أبي كاهل اليشكريّ:

لها أشاريرُ مـن لحـم تتَمِّرُهُ   من الثّعالى ووَخْزٌ مِن أرانيها[2]

* *

ويبقى بعد ذلك النظر في أسلوب الرجلين: فأسلوب أبي سعيد السّيرافي فيما قرأناه من آثاره المطبوعة: شرح كتاب سيبويه، وأخبار النحويين البصريين، أسلوب رجل هادئ الطبع، متّزن النبرة، يمشي في طريقه لا يكاد يتلفّت، فأسلوبه صورة من شخصيته الجادّة الخاشعة الوقورة، التي رسمها أبو حيان التوحيدي، في غير موضع من كتبه، فقد وصفه بالسَّمْت والوقار، والدِّين والجدّ، وأنه أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب... وألزَم للجادّة الوسطي في الدِّين والخُلُق... وأنه يصوم الدهر، ولا يصلّي إلاّ في الجماعة، ويقيم على مذهب أبي حنيفة، ويلي القضاء سنين، ويتألّه ويتحرّج[3].

أما هذا الرجل مؤلف ذلك الكتاب العروضيّ فأسلوبه مباين تمامًا لأسلوب أبي سعيد السّيرافي، الذي وصفتُه لك، فهو رجلٌ متوثّب، كثير الحركة والتلفُّت، خرّاجٌ ولاّج، يوشك لسانُه أن يكون طويلا.

فقد ثبت، إن شاء الله، أن مؤلّف هذا الكتاب ليس أبا سعيد السّيرافيّ، كما

---

(١) الكتاب ص ٨٦ ، وضرورة الشعر ص ١٨٦ .

(٢) الكتاب ص ٨٩ ، وضرورة الشعر ص ١٣٦ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/١٢٩ – ١٣٢ ، وانظر أيضا الصداقة والصديق صفحات ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، والمقابسات صفحتي ٥٨ ، ١٧٥ .

ثبت من قبلُ أنه كتاب في العروض، وليس « صنعة الشعر والبلاغة». ولعلّك أيها القارئ الكريم جامعٌ أسبابًا أخرى لنفي نسبة الكتاب عن أبي سعيد، مما لم أهتد إليه، ولم أقف عليه.

* *

وبعد :

فمن يكون مؤلّف هذا الكتاب العروضيّ ؟ لقد فرغت من الشّقّ الأول من القضيّة، وهو نَفْي نسبة الكتاب عن أبي سعيد السِّيرافي، وأخذت أشدّ حيازِيمي للشّقّ الثاني، وهو معرفة ذلك المؤلف الحقيقي للكتاب، الذي هو من رجال القرن الرابع بلا أدنى شكّ. وكنت متهيِّبًا لهذا الأمر، وَجِلاً منه، فالنفي سَهْل المَرْكب، وأما الإثبات فصَعْب المُرتقَى، حتى آذَنَ ربُّك بالفرج بعد الشِّدَّة، وجاءني اسمُ المؤلف الحقيقيّ يتهادَى كالغنيمة الباردة، بلا حولٍ مِنّي ولا قوّة، فما أوجَفْت عليه من خيل ولا رِكاب، وذلك على يد أخي وصديقي الدكتور عياد بن عيد الثُّبيتي، الأستاذ المشارك بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، زادها الله تشريفا وتكريما ومهابة، فقد لقيته في معرض القاهرة الدولي للكتاب الأخير، وجاذبتُه الحديث في شأن هذا الكتاب، فقال لي: على الخبير سقطت، هذا الكتاب لفلان بن فلان، والأدلّة كيت وكيت، وهي أدلّة قاطعة باتّة ، وإذا به مشغولٌ بالكتاب، معنيٌّ بإخراجه، لكنه ينتظر له فرصة تَسْنَح .

وكنت حَرِيًا بعد هذا الكشف العظيم أن أطوي أوراقي، وأنفض يدي من هذا الأمر جملة، من نفي نسبة الكتاب إلى أبي سعيد السّيرافي، لكنني أردت أن أستبقي ما أنفقته من وقت وجهد، وأقدّمه نموذجا لشبابنا من محبّي العلم، مما تعلّمته من أشياخي، ومارسته من أعمالي، في توثيق نسبة مخطوط إلى مؤلف، أو نفيها عنه.

ثم إني قد زِدتُ – بعد أن فتح لي أخي عياد الباب – توثيقًا إلى توثيقه ، «والفضل للمتقـدِّم ».

مؤلف الكتاب

قال أبو عبد العزيز عياد بن عيد الثُّبيتي، حفظه الله: مؤلف هذا الكتاب هو أبو الحسن العروضي أحمد بن محمد بن أحمد.

قلت: من أين جئت بدليلك؟

قال: من الكتاب الذي فهرسْتَ أنت شواهده الشّعرية، يعني كتاب ديوان المعاني لأبي هلال العسكري[1].

قلت: من أيِّ موضع فيه؟

قال: من الموضع الذي ذكر فيه أبو هلال كلامًا عن «المُعَمَّى»، وهو في كتابه بعنوان (فصل في تعمية الأشعار)[2] فقد ذكر أبو هلال في هذا الفصل نماذج من المعمّى وحلّها، ثم قال : وذكر بعض أهل العلم، وأظنه[3] أبا الحسن العروضيّ أنه عُمِّيَ له قول الشاعر:

وكـــن ذاكراً بيـــت النُّوَيّبغ إنه   سيحلو على سمع اللبيب ويَعْذُبُ

فكانت تعميتُه... وذكر كلامًا طَويلا، بلغ من كتاب ديوان المعاني صفحة

(١) نُشِرت هذه الفهارس في المجلدين (٣٧ – ٣٨) من مجلة معهد المخطوطات ، ثم نُشرت أيضا مع دراسة تحليلية وعروضية لكتاب ديوان المعاني بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : المجلدات ١/٦٦، ٣، ١/٦٩، ٢، ٣، ١/٧٠ .

(٢) الجزء الثاني من ديوان المعاني ص ٢٠٨ – ٢١٣ .

(٣) لا تَسْتَوْحِشْ من هذه الكلمة فسيأتيك ما يكشفها .

وأربعة أسطر. وهذا الكلام الذي حكاه أبو هلال بنصّه وفَصّه في كتابنا، في الصفحتين (٣٣٠-٣٣١).

فهذا برهانُ صدق لا يُدْفَع، وشاهدُ عدلٍ لا يُرَدُّ بأن هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب لأبي الحسن العروضي.

وقد استَمْسكتُ بهذا الحبل الذي مدّه لي أخي عياد، وذهبت ألتمس ترجمة الرجل، فوجدته مترجما عند الخطيب البغدادي، وياقوت الحموي، والوزير القِفطي، وصلاح الدين الصفدي[(1)]. وحكى الخطيب البغدادي أن وفاته كانت في سنة (٣٤٢)[(2)]، ولم يذكر له تاريخ مولد، لكنه ذكر أنه روى عن عبيد بن عبد الواحد بن شَريك البزّار، وهذا توفي سنة (٢٨٥)[(3)] وفي ذلك ما يقرّب تاريخ مولد أبي الحسن العروضي، وكذلك ذكر ياقوت أنه لقي ثعلبا وأخذ عنه، وثعلب توفي سنة (٢٩١).

ووصفه القفطي فقال: «أديبٌ قيّمٌ بعلم العَرُوض، له أَنَسَةٌ بالعربيّة، يُقْرئها ويفيدها، وكانَ متصدراً ببغداد».

وذكر ياقوت أنه كان معلّم أولاد الراضي بالله، الخليفة العباسي، المتوفى سنة (٣٢٩)[(4)]. وقد وصف ياقوت كتاب أبي الحسن هذا وصفًا يطابق ذلك الذي

---

(١) تاريخ بغداد ١٤٠/٥ ، ومعجم الأدباء ٤٧١/١، ٤٧٢ ، وإنباه الرواة ١٢٨/١، والوافي بالوفيات ٣٢٩/٧ .

(٢) لا يغيب عنك أن وفاة أبي سعيد السّيرافي كانت في سنة (٣٦٨)، وقد كنت استنتجت من قبل أن مؤلف هذا الكتاب متقدّم على السّيرافي. فهذا شاهده إن شاء الله .

(٣) تاريخ بغداد ١٠٠/١١، وسير أعلام النبلاء ٣٨٥/١٣ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٩٠ ، ٣٩٣ .

بين أيدينا، فقال أولا:

وجدت على كتابه في العروض بخطه: وقد قرئ عليه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة[1]، وكان إمامًا في علم العروض، حتي قال أبو علي الفارسيّ في بعض كتبه، وقد احتاج إلى الاستشهاد ببيت قد تكلّم عليه في التقطيع: وقد كفانا أبو الحسن العروضيّ الكلام في هذا الباب.

وقال ثانيا:

نقلت من كتاب ألّفه أبو القاسم عبيد الله بن جِرْو الأسديّ[2] في العروض، وكان الكتاب بخَطّ أبي الحسن السِّمْسِمانيّ[3]، يقول فيه: وكان أبو الحسن بن أحمد العروضيّ عمل كتابا كبيراً، وحشاه بما قد ذكر أكثره، ونقل كلام أبي إسحاق الزجاج، وزاد فيه شيئا قليلا، وضمّ إليه بابا في علم القوافي، وذاك علم مفرد مثل علم العروض، وفيه مسائل لطيفة واختلاف كثير يحتاج إلى كشف واستقصاء نظر، ولم أره كبيرَ عمل، ولو نَسَخ كتاب أبي الحسن الأخفش في القوافي لكان أعذرَ عندي، ثم ضمّ إليه بابا في استخراج المُعَمَّى،

---

(١) أي قبل وفاته بستّ سنوات.

(٢) عُبيد الله بن محمد بن جِرو الأسدي. أبو القاسم النحوي العَروضيّ المعتزلي. من أصحاب أبي علي الفارسي وأبي سعيد السِّيرافي. وكان ذكيا حاذقا جيد الخط صحيح الضبط. صنف كتبا، منها في علم العروض (الموضح) ولعله الكتاب الذي ينقل عنه ياقوت هذا النقل. توفي ببغداد سنة ٣٨٧. معجم الأدباء ص ١٥٧٧، وإنباه الرواة ١٥٤/٢.

(٣) هو علي بن عبيد الله بن عبد الغفار، من أهل بغداد، ومات بها سنة ٤١٥، وكان صدوقًا ثقة في الرواية، صاحب خط متقن في الصحة، مرغوب فيه لتحقيقه. إنباه الرواة ٢٨٨/٢، ٣٠٥، ومعجم الأدباء ص ١٨١٧.

وهذا لا يتعلّق بالعروض، وضمَّ إليه بابًا في الإيقاع ونسَبه، وغيرُه به أحذق، وختمه بقصيدة في العروض، ولم يُفد بها غير التكرير، وكان ينبغي أن يوفّيَ صناعتَه حقّها، ولا يُخلّ بشيء منها، ثم لا يتعرّض لما قد ضمّه إليها». انتهى نقل ياقوت .

قلت : كلام أبي القاسم الأسدي هذا في حقّ أبي الحسن العروضي ينبغي أن يُحمل على ما يقوم بين أهل الصنعة أحيانًا من الحسد والتنافس، وقد نبّه العلماء من قديم إلى الحذَر في قبول آراء العلماء بعضهم في بعض ، ورَوَوْا في ذلك أحاديث وآثارًا، منها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «استمعوا علم العلماء ولا تُصدّقوا بعضَهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لَهُمْ أشدُّ تغايُراً من التُّيوس في زُرُوبها»[1] .

وقد علّق صلاحُ الدين الصّفدي على كلامِ أبي القاسم الأسديّ هذا، فقال: «ما أنصف أبو القاسم الأسديُّ أبا الحسن العروضيَّ ؛ لأن علم القافية له علاقة بالعروض، كعلاقة التصريف بالنحو، لأن[2] كلّ علم منهما متسقلٌ برأسه، وأما الإيقاع فإنه أنسَبُ بالعروض من غيره؛ لأن النَّقَرات والضروب بمنزلة التفعيل، ولذلك قال الرئيس ابن سينا : وواضع النحو والعروض في العربية يشبه واضع المنطق والموسيقى في اليونانية. ويقال: إن الخليل إنما استنبط العروض من سماعه وقْعَ مطرقة بعض الصّفّارين[3] . وأما المُعَمَّى فنَعَمْ ما له علاقة بالعروض ماسّة » .

(١) راجع كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٥٠/٢ ، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٩/٢ .

(٢) هكذا في الوافي، ولعله : لا أن كل علم منهما ... إلى آخر الكلام .

(٣) أي النّحاسين، الذين يطرقون النحاس، والنسبة معروفة قديما، ولايزال اللفظ مستعملاً إلى الآن بالمغرب الأقصى. وحيّ الصّفارين معروف إلى الآن بالقرب من جامع القرويين، بمدينة فاس المغربية.

هذا وقد قادتني ترجمة ياقوت للعَرُوضيّ إلى نَقْلٍ آخَرَ عالٍ موثّق لكتابنا هذا ونسْبته إلى أبي الحسن العروضيّ ، وذلك أن ياقوتاً ذكر في ترجمة العروضيّ أن أبا عبيد الله محمد بن عمران المرزباني روى عنه . وقد نظرت في كتاب المرزباني « الموشّح » فوجدت فيه نقلين عن أبي الحسن العروضي ، من كتابه هذا . وأول النقلين ما حكاه عنه في « الإقواء » قال : حدثني أحمد بن محمد العروضي ، قال : الإقواء : رفع قافية وخفض أخرى ، وذلك معيب ... ثم نقل تعريفه وشواهده للإكفاء والسِّناد والإيطاء : والتضمين والرَّمَل . وذلك كلّه موجودٌ بحروفه في كتابنا[1] .

وثاني النقلين : ما ذكره المرزبانيّ في ضرورات الشعر ، قال : حدّثني العروضيُّ ، قال : اعلم أن ما لا ينصرف يجوز صرفه في الشّعر ؛ لأنه يردّ إلى أصله ... ثم أخذ في نقل طويل في الضرورة الشعرية ، وهو كلّه في كتابنا[2] .

وهذان النقلان الموثّقان يزيلان عنك ما يكون قد لَحِقَك من شبهة من قول أبي هلال : وأظنّه ...

* *

انكشف كلُّ خَبِيء ، ووضَحَ كلُّ مُعَمّى ، وثَبَت – إن شاء الله – بنقل أبي هلال العسكري ، وبرواية المرزباني ، وبرؤية ياقوت للكتاب ، ووصْفه له ، ومطابقة ذلك كلّه لهذا الكتاب الذي بين أيدينا . أقول : ثبت أن الكتاب في علم العروض ، وأنه لأبي الحسن أحمد بن محمد بن أحمد العروضيّ ، المتوفى سنة ٣٤٢ .

(١) الموشح ص ٢٢ – ٢٤ ، وقارن بكتابنا ص ٢٩٦ – ٣٠٢ .

(٢) الموشح من ص ١٤٤ إلى ص ١٥٥ ، وهذا النقل مفرّق في موضعين من كتابين : الموضع الأول من ص ١٧٤ إلى ص ١٧٦ ، ومن ص ٨٠ إلى ص ٨٩ ، وهذا يدل على أن بعض أوراق المخطوطة التي نشر عنها المحقق غير مرتّبة .

عَرْض الكتاب

هذا كتابٌ عالٍ جدًا في علم العروض والقافية، وهو أوفى كتاب جاءنا من هذا العِلم في هذا الوقت المبكّر من التصنيف فيه، فالذي بين أيدينا الآن مطبوعًا منه، مثل ما بقي من عروض الأخفش، وما طبع من عروض الجوهري – المسمّى عروض الورقة ـ وابن جني ، وما نُشِر في كتاب ابن عبد ربّه : العقد الفريد، يقصر عن ذلك الكتاب كثيرا ، بل يقصر عنه أيضا ما طبع بعد القرن الرابع ، مثل الكافي للخطيب التبريزي ، والبارع لابن القطاع ، والمعيار للشنتريني ، وما نُشِر في كتاب الحور العين لنشوان الحميري .

وإن مادّة الكتاب وطريقة معالجتها تنطق بأن هذا المؤلّف كان عروضيًا ضليعًا جدًا، وعبارة القفطي التي نقلتها قريبًا تدلُّ على ذلك، فهو يقول : «أديب قيِّمٌ بعلم العروض» ويقول الصلاح الصفديّ : «كان أوحدَ الزمان في علم العروض» ، وشهادة أبي علي الفارسيّ له فيها المَقْنَع والبلاغ ، وما أظن أن أبا الحسن العروضيّ هذا كان مبالغاً ، أو ذاهبًا عن نفسه ، حين قَرَن كتابه هذا بكتاب شيخه أبي إسحاق الزجاج، فقال : « وما رأيت في هذه الكتب كتاباً هو أنفع ولا أجمع من كتاب أستاذنا أبي إسحاق الزجّاج، رحمه الله ، فإنه كثير الفائدة ، قريبٌ من قلب المبتدئ، مقنع الاحتجاج، بيّن الشرح ، وهذا الكتاب لا يقصُر عنه إن شاء الله ، لما نُلحق فيه من الزيادات التي لم يذكرها أبو إسحاق...» ثم ذكر زياداته على كتاب شيخه[1] .

---

(١) الكتاب ص ٢٨ ، ٢٩ .

وقد بدأ المؤلف كتابه بمقدمة ، أبان فيها عن منهجه ، ونقد مؤلفات من سبقوه ، ثم ثنّى بباب عقده للحضّ على تعلّم علم العروض ، وقد أطال النَّفَسَ في هذا الباب ، وعالج موضوعه لا كما يعالجه المؤلفون ؛ كلامًا مجرّدًا يديره بينه وبين نفسه ، وإنما أقام الدفاع عن العروض على تجارب بينه وبين معاصريه: فهذا رجلٌ يُحاجُّه في عدم جَدْوَى العروض بأن ثَعْلبًا ، وهو الإمام أحمد بن يحيى ، كان يجهل هذا العلم ، فَيَرُدُّ عليه بقوله : «ولو ذهب الناس حتى يزهدوا في العلوم ؛ لأن أحمد بن يحيى لم يكن يُحسنُها ولم ينظر فيها ، لترك الناس علماً كثيراً»[1] .

وهذا رجلٌ آخر من أهل العلم بالشعر الحُذَّاق فيه يُنشد أبياتا يُخطئ في وزنها[2] .

وذلك شيخ من مشايخ أهل العلم والرواية ينشد بيتًا من الطويل على عشرة أجزاء[3] .

وهذا رجلٌ رابع يضع أبياتا من الشعر ، يزعم أنها من أوزان اخترعها وابتدعها ، لم يسبقه أحدٌ إلى مثلها . فينهض له أبو الحسن ، ويردّ هذه الأوزان إلى بحورها من العروض ، ذاكرًا ما حدّث فيها من شذوذ الزحافات[4] .

---

(١) الكتاب ص ٢٩ .

(٢) الكتاب ص ٣٠ .

(٣) الكتاب ص ٣٢ .

(٤) الكتاب ص ٦٢ .

ثم يشير إلى شعر رَزِين العروضيّ[1] ، الذي قيل إنه خرج به عن قانون العروض ، ويذكر ما فيه من شذوذ الزحاف ، وأنه يُخَرِّج على العروض بشيء من التلطُّف[2] .

وهكذا أدار أبو الحسن العروضي الكلامَ في هذا الباب ، وفي غيره من أبواب الكتاب ، على شواهد وأمثلة ممّا وقع أمامه أو أُخْبِر به ، وهذا نَمَطٌ من التأليف مُعْجِبٌ ؛ لأنه يقوم على الملاحظة والتجريب والمُجاذَبة والمعاناة ، وسواء أكانت هذه المعاناة العروضية ممّا واجَهَهُ أبو الحسن من معاصريه فعلا ، أم كانت مما اختلقه هو اختلاقا ، واصطنعه اصطناعا[3] ، فإنها مفيدة جدا ، ومثمرة جدا ، إذ كانت تخلّص التأليف العروضي ممّا وُسِم به من الجفاف والنّمطيّة المعهودة في تكرار الشواهد بعينها في كل كتاب عروضيّ .

وبعد أن يذكر أبو الحسن تخليط بعض علماء عصره ، في البحور والأوزان ، يذكر على سبيل الإجمال جملة الأبواب التي ينبني عليها كتابه ، وهي ثمانية وثلاثون بابا ، بدأ منها بباب معرفة الساكن من المتحرّك ، وباب الجمع بين الساكنين ، وباب الوقف والابتداء ، وباب تفسير الأصوات ، وباب الهجاء ، وباب الاحتياج - أو الاحتجاج - للعروض ، وباب الخفيف والثقيل ، وباب

(١) هو رَزِين بن زندورد العروضي . يكنى أبازُهير ، وهو مولى طيفور بن منصور الحميري خال المهدي العبّاسي . ويقال : هو مولى بني هاشم . قال ياقوت : وهو بغدادي كثير الشّعر ، وأكثر شعره يخرج عن العروض . توفي سنة ٢٤٧ . معجم الأدباء ص ١٣٠٤ - ١٣٠٦ ، وانظر الورقة لابن الجرّاح ص ٣٢ - ٣٦ .

(٢) الكتاب ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) ألم أقل لك من قبل إنه رجلٌ كثير الحركة والتلفُّت ، وأنه خرّاجٌ ولاّج .

أول الكلمة وآخرها ، وباب ما يحتمل الشعر ، وباب تقطيع الشّعر ، وباب الدوائر وفكّها ، وباب الأسباب والأوتاد .

وذِكر هذه الأبواب ومعالجتها قبل ذِكر البحور والحديث عنها هو بمثابة (باب الأصول) في علم القراءات ، الذي يُقَدِّم على (باب الفَرْش) وهو الكلام على القراءات سورةً بعد سورة .

وقد أخذ أبو الحسن العروضيّ بعد ذلك في ذِكر الخمسة عشر بحراً ، بدءاً بالطويل ، وانتهاءً بالمتقارب . أما البحر المتدارَك فقد عَرَضَ له في الحديث عن الدائرة الخامسة ، ولم يُسمِّه باسمه هذا المعروف ، وإنما سمّاه «الغريب» ، وذكر أنه في الشعر القديم نزْرٌ قليل ، أمّا المحدثُون فقد أكثروا منه ، ثم ذكر سبب ترك الخليل لهذا الوزن ، وإخراجه عن أشعار العرب[1] .

وقد جرى هذا المؤلّف على منهج تعليمي ، لم يُسبَق إليه ، ولم يُتابَعْ عليه – فيما أعلم – وذلك أنه بعد أن يفرغ من الحديث عن البحر وزحافاته ، وصور تفعيلاته بعد الزحاف ، يختم ذلك بذكر بيت لا يستقيم على البحر الذى هو بصدده إلاّ بإجراء بعض التغيير الذي هو في نطاق (ما يحتمله الشعر) من حذف أو تخفيف ونحو ذلك حتى يصحّ ويتّزن ، وقد كشف عن منهجه التعليميّ هذا في آخر الكلام على البحر الطويل ، فقال : « ونذكر في هذا الموضع بيتًا من أبيات المعاني ، يعْلَم به مسلك العروضيّين فيه ، واستخراجهم لمعانيه ، وغوصهم على غوامضه ، واستعمالهم الأشياء التي تجوز في موضعها ممّا قدّمنا ذكره في باب ما يحتمل الشعر ؛ ليكون ذلك عونًا للمتعلّم ودُرْبة إن شاء الله تعالى ، بما

(١) الكتاب ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

يلقيه أصحاب العروض من الأبيات التي يمتحن بها بعضُهم بعضا »[1] . ثم ذكر البيتَ الممتحنَ به ، وجرى على ذلك في خاتمة كلِّ بحر ، بقوله : فإذا سئلت عن مِثل هذا البيت ...

وفي ظنّي أن هذه الأبيات من اختراعات أبي الحسن العروضيّ نفسه ، ثم رأى أن يجمع الكلام في ذلك في باب سمّاه (باب أبيات المعاياة)[2] .

ومن الأبواب الجيّدة التي عالجها أبو الحسن العروضي في هذا الكتاب ، باب سمّاه (باب ما جاء ممّا لم يقله الخليل وما لم يجئ مما قاله) ، قال في مفتتح هذا الباب : « اعلم أن الخليل رحمه الله قد ذكر أشياء لم تجئ في الشعر، ولم تكثر بها الرواية ، وقد جاءت أشياء أخر لم يكن يذكرها ، إمّا أن تكون لم تقع إليه ، وإما أن تكون مُطّرحة عنده لشذوذها ، وقد ذكرنا ذلك أجمع في هذا الباب مُسْتقصًى »[3] .

وبعد أن فرغ من العروض وقضاياه عمد إلى باب القوافي : تعريفها وألقابها. ثم ختم الكتاب بباب استخراج الـمُعَمَّى . وهكذا وقف الكتاب ، ولاشك أن به نقصا ، فقد ذكر أبو الحسن في مقدمته أن آخر باب فيه هو (باب في استقصاء الحجة على من طعن في العروض والرّدّ على الناشئ)[4] وكذلك ذكره في

(١) الكتاب ص ٩٩ .

(٢) ص ٢٣١ .

(٣) ص ١٨٤ .

(٤) ص ٢٩ ، والناشئ : هو الناشئ الأكبر ، واسمه عبد الله بن محمد بن شِرْشِير . أو العباس ، من أهل الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم نزل مصر وتوفي بها سنة ٢٩٣ ، قال عنه الذهبي : «وكان قويّ العربية والعروض ، أدخل على قواعد الخليل شُبَهًا ، ومثّلها بغير أمثلة الخليل ...=

فهرست أبواب الكتاب[1] ، ولم يأت هذا الباب في آخر الكتاب . ثم قال المصنف أيضا في مقدّمته بعد ذكر هذا الباب الأخير : «ونختم كتابنا هذا بقصيدة في أبواب العروض جامعة تكون علَمًا لتمامه وكماله » وكذلك جاءت الإشارة إلى هذه القصيدة فيما وصف به ياقوت الكتاب ، ولم تأت هذه القصيدة في آخر الكتاب .

ويبقى من عرض الكتاب أمران :

الأول : أن الكتاب – وإن أغفل المحقّق ذِكر أصله الذي نشره عنه – مقسّمٌ إلى خمسة أجزاء حديثية : الأول من ص ٢٧ إلى ص ٨٩ ، والثاني من ص ٩٣ إلى ص ١٦٩ ، والثالث من ص ١٧١ إلى ص ٢١٦ ، والرابع من ص ٢١٧ إلى ص ٢٦٧ ، والخامس من ص ٢٦٩ إلى ص ٣٣٢ ، وهذه التجزئة من سِمات المخطوطات القديمة ، أو المنقولة عن أصول قديمة ، كما يعرفه

=وكان من أذكياء العالم » . وقال المرزباني : « وكان أبو العباس الناشئ متهوّسًا شديد الهَوَس ، وشعره كثير ، وهو مع كثرته قليل الفائدة ، وقد قرأت بعض كتبه فدلّتني على هَوَسه واختلاطه ؛ لأنه أخذ نفسه بالخلاف على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم » . وقال القفطي : « كان يعلّم العلوم ويتبحّر فيها ، عَلِم النحو وأحكمه ، ونظر في عِلَله وهو متكلم ، فتبيّن له بقوّة الكلام نقض أصوله ، فنقضها وصنّف فيها ، وكذلك العروض أدخلَ على قواعده شُبَهًا ناقضة لها ، ومثّله بأمثلة غير أمثلة الخليل ، وإحسن والله في كل ذلك ، وأظهر قوّة ، وكذلك فعل بالكتب المنطقية ، وإذا وقف الواقف على تصانيفه وأنصف ظهر له أثر الاجتهاد والإمتاع ، حتى إن الغير [هكذا] منصف ينسبه إلى التهوّس ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هي قوّة وفِطنة » إنباه الرواة ١٢٨/٢ ، وانظر تاريخ بغداد ٩٢/١٠ ، ووفيات الأعيان ٩١/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٤١/١٤ ، وطبقات المعتزلة ص ٩٢ ، وحسن المحاضرة ٥٥٩/١ .

(١) ص ٤٧ ، وانظر أيضا ص ٧٠ ، ٣٣٠ .

المشتغلون بعلم المخطوطات .

الأمر الثاني : أن المحقق ذكر في بعض المواضع من الكتاب أن هناك سقطًا ؛ لعدم التئام أجزاء الكلام[1] . والحقيقة أن لا سقطَ ولا خَرْم ، وإنما أوراق المخطوطة اضطرب ترتيبها بين يدي المحقّق ، ولم يتنبّه لذلك . وقد رأيتُ أنا شيئًا من ذلك : وهو ما جاء في ص ٨٠ من الكتاب (باب ما يحتمل الشعر) فقد قال المصنّف : « قال سيبويه إنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام » ثم وقف كلام سيبويه ، ولكنّ تكملته جاءت في رأس ص ١٧٤ هكذا : « من صرف ما لا ينصرف وحذف ما لا يُحذَف » والكلام هكذا ملتئم في كتاب سيبويه . الجزء الأول ص ٢٦ ، ولم يتنبه المحقق لذلك فقال في حاشية تلك الصفحة ص ١٧٤ : كذا تبدأ الصفحة ولعله نقص الأصل .

* *

ومن وراء هذا الذي ذكرتُه مِن عرض الكتاب ومنهج المؤلِّف فيه ، ينبغي ألا نغفل الإشارة إلى تلك الغايات التعليمية التي عُني بها أبو الحسن العروضي ، من الحثّ على العلم ، والصبر على تكاليفه وأعبائه ، وذمّ الجهل والتنفير من أوزاره وأثقاله :

فمن ذلك قوله : وقلّ من يرغب في العلوم الرئيسية إلاّ ذو فطنة لطيفة وهمّة جليلة ، ومن أراد الشفاء صبر على مرارة الدواء ، وآفة الناس في طلب العِلم الكسلُ وقلّةُ الرغبة ، وبعضهم يروم تطلُّبَ الشيء ، فإن صادفه في أوّل

(١) انظر على سبيل المثال آخر ص ١٧٦ ، وأول ص ١٧٧ ، ثم انظر أول ص ١٧٤ ، وقارن بما نقله عنه صاحب الموشح ص ١٤٤ ، وانظر تعليقي فوق .

وهلة وناله مع أول فكرة ، وإلاَّ أضرب عن ذكره ، وأعرض عنه صفحا ، فلا يعود إليه ألْبتَّة ، ولا يُذكر بحضرته إلاَّ استثقلَه واستبرده وطعن فيه ، وليست كذا سبيل الراغبين في العلم ، الذين يقصدون قصده ، ويصبرون على دراسته وقراءته وترداده ، والتفتيش عنه ، والسؤال عن غوامضه ، والخدمة لأهله ، فبذلك ينالون غايتهم فيه ، ويبلغون مأربهم منه ، ويستعذبون صدور وِرْدهم ، ويحمَدون غِبَّ جدِّهم ، وبقلّة الرغبة وإيثار التفريط ودواعي الكسل يصيرون إلى ما ذكرنا من الجهل[1] .

وقوله : فلا يمنعك مِن طلب العلم زهدُ من زَهِد فيه ، ولا جهلُ من رغِب عنه وطعَن فيه ، وقد قالَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « قيمة كلِّ امرئ ما يُحسِن » ، ولم يقل : قيمة كلِّ امرئ ماله ولا شرفه ولا جمالُه[2] .

وقوله : وليس يكون التقطيع إلاَّ على لفظ الحرف في السَّمع ، لا على صورته في الخطّ ، فتأمَّلْ ما قلتُه ، وإذا ضَجِرْتَ فلا تَعْسف ؛ فإن الضجر يصدُّ الفهمَ ويشغل القلب ، ولكنْ في وقت الخَلْوة والنَّشاط ؛ فإن ذلك أَعْوَنُ على متناوله وأسهل لطلبه إن شاء الله[3] .

وقوله : فلا تنظر إلى قلّة الراغب وزُهد الطالب ، واقصد إلى طلب العلوم لنفسك ، واجعل فيها لذّتك ونهمك[4] ، تنلْ بها شرفًا عاليًا ، وذِكرًا على الأيام

(١) الكتاب ص ٣٢ .

(٢) ص ٤٢ .

(٣) ص ١٠٠ .

(٤) في الكتاب : « وفهمك » .

باقيا[1] .

وقوله : وإنما أخبرنا بهذا لتحرص على طلب العلم وجمْعه ودراسته ، ولا ترضى فيه بالتقصير والأخْذ بالهُوَيْنَي ، فرُبَّ شيءٍ يسير لا يُعْبأ به يهدم جاهاً جليلا وقَدْراً نبيلا ، فلا تُفرِّطنَّ في طلب العلوم ؛ فإنه جاهٌ لا ينْفَد ، وذِكرٌ لا يَدْرُس[2] .

وقوله : وبقلّة الصبر وفتور الشهوة وإيثار الراحة تنقص القريحة ، وتضلّ البصيرة ، ولا يُوصَلُ إلى البعيد ، ولا تُنال الطِّلبة ، ولو كانت العلوم الخفيّة سهلة المأخذ قريبةَ المتناوَل ، نحو ما يدقّ من أُمور الفقه ، ويلطُف من مسائل النحو ، ويُستَصْعَب من أوزان الشعر والعروض ، ويُشكَل من أبواب الحساب ، ويُلتبس من أشكال الهندسة ، ويتعب من أبواب النحو ، ويتعب من أسباب النجوم ، ويبْعُد من أوضاع القياس ، ويخفى في صناعة المنطق : لكان العلماء بها يكثرون ، وأهل الطلب لها مشهورين ، وذوو الحذق بها معروفين ، وإنما تجد في كلّ صناعة شرْذمة قليلة ، وطائفة يسيرة ، يعرفون أوائلها وما صَحّ من مسائلها . فأمّا أهل الحَذق بها والوصول إلى نهاياتها ، فإنك تجد منهم واحداً أو اثنين لا ثالث لهم ، وإذا تصفَّحْت هذا كان كما أخبرتك ، والأمر فيه كما عرّفتك ، فلا تلتفت في العلوم وطلبها إلى زُهد من زَهد فيها وكسل من فشل[3] ، فإن أقواماً أراهم كثيراً إذا بعُد الشيء عليهم سبُّوه واطَّرحوه ، وعابوا

---

(1) ص ٢٥٩ .

(2) ص ٢٨٣ .

(3) هكذا في الكتاب ، ولعل في الكلام نقصا .

أهلَه ، واستجهلوهم في طلبه والنظر فيه ، ويقولون : هذا وسواس وجنون[١] .

وقوله : وقد رُوِي عن بعض الحكماء ، أنه قال : ما نظري في العلوم علِى كثرتهـا وبعـد نهايتها طلب البلوغ إلى غايتها ، ولكنْ بمقدار ما لا يحسن بالإنسان جهلُه . وما أحسن ما قال هذا الرجل ، فبقول مثله تمسَّكْ ، وبرأيه فتأدَّبْ ، وعلى غيره لِا تُعوِّلْ ، وخذ من كلِ علم بمقدار ما تقف بقليله على كثيره ، فبالعلم تسودُ في الدنيا ، وبه تشرُف في الآخرةِ ، فلا تزهدَنَّ في شيء منه ، ولا تطعنِ فيه لأنك تجهله ، فإن العلم كلّه جنسٌ واحد ، وإن كان تحته أنواعٌ هو جنس منها ؛ إلا أن الأنواع التي تحته تتفاضل كتفاضل الحيوان ؛ لأن الحيّ جنسٌ لأنواع تحته ، وبعض الأنواع أشرف من بعض ، كالإنسان الذي هو أشرف الحيوان ، ثم الفرس ، ثم ما يتلو ذلك من سائر الحيوانات ... وأنت إذا تبحَّرْت العلوم كلَّها رأيت بعضَها منُوطاً ببعض ، وبعضَها يشهد لبعض ، وبعضَها يعين على بعض ، فلا تذمَّنَّ منها شيئا ، ولا تقل باطِّراحه وهَجْره ، والتعصُّب على أهله ، والطعن عليهم ، فأن يكون قصدُك إلى معرفة ذلك العلم ، والبلوغ إلى آخره ، دون الوقيعة فيه وفي أهله ، فليس ذلك مِن فعل أهل النَّصَفَة ، ولا ذوي الرأي والخِبرة والفهم والمعرفة[٢] .

وبمثل هذا الكلام يكون المؤلِّف في علم من العلوم صاحبَ فكرٍ يتحمَّسُ له، وقضيّةٍ يدافع عنها ، ولا يكون همّه فقط أن يفرغ من قواعد علمه وأصول فنّه ؛ ليأخذ من شاء ما شاء ، ويدع من شاء ما شاء .

---

(١) ص ٣٢٧ .

(٢) الكتاب ص ٣٢٩ .

نقد نشرة الكتاب

يدور نقدي حول نقطتين : أولاهما ما جاء في مقدمة المحقّق . وثانيتهما : متن الكتاب ، وما ظهر لي فيه من أوجُه السّهوِ والنقص .

أما ما يتصل بما ذكره المحقق في مقدّمته ، فقد فرغت من كثيرٍ منه ، وهو ما يتصل بعنوان الكتاب ، ونَفْي نسبته إلى أبي سعيد السِّيرافي ، ثم إغفال المحقق وصْفَ مخطوطة الكتاب ، وطَيِّه اسم المكتبة أو المكان الذي وُجدت به هذه المخطوطة .

ولم يبق من هذه المقدمة مما يستحقّ أن يناقَشَ فيه المحقّق إلا قولُه : « فقد ضاع علم الخليل ، وظهر كتابان منسوبان إلى الأخفش لم تثبت صحّةُ نسبتهما إليه»[1] .

هذا كلامه بحروفه ، والكتابان المنسوبان للأخفش هما : كتابه في القوافي، وكتابه في العروض ، ولست أدرى من أيّ جهة دخل الشكُّ في نسبة الكتابين إلى الأخفش ، إلى المحقق واستقرّ عنده حتى ينقله إلى القارئ هكذا ؟

لقد نُشر كتاب أبي الحسن الأخفش في القوافي بالشام مرّتين : الأولى بتحقيق الدكتور عِزّة حسن[2] ، والثانية بتحقيق علاّمة الشام، شيخنا أحمد راتب

(١) مقدمة التحقيق ص ١٩ .

(٢) سنة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م .

النفاخ[1] ، برّد الله مضجعه . ولم يشكّ أيٌّ من الأُستاذين في نسبة الكتاب إلى الأخفش . وقد جاء في مقدمة شيخنا النفاخ للكتاب ما يدفع كلّ شك ، وينفي كلّ شبهةٍ . وكان ممّا قاله : « ويبقى كتاب أبي الحسن بعد هذا كلّه أجلّ ما انتهى إلينا في هذا العلمِ وآصلَه »[2] . وقال في حديثه عن المخطوطة الوحيدة التي نُشر عنها الكتاب ، وقد كتبها أحمد بن عبد الله بن عبد الله الأندلسي الوادياشي المعروف بابن مهاجر ، المتوفى سنة ٧٣٩ : « ولم يُشر إلى الأصل الذي نقلها عنه ألبتة ، فجمعتْ إلى تأخرها جهالة النسَب أيضا ، بيد أن ذلك - وإن غَضّ منها - لا يَرْقَى إلى أن يكون حاملاً على اطّراحها ، أو داعيًا إلى الشكّ في أن يكون هذا الكتاب كتاب أبي الحسن الأخفش الذي يذكره المتقدّمون ... وأما نسبة الكتاب إلى أبي الحسن فيصدّقها موافقة ما جاء فيه للمحكيّ من أقواله ومذاهبه في هذا العلم من جهة ، ومطابقة ما جاء في « المحكم » لابن سيده ، ثم في « لسان العرب » لابن منظور من نقول عن أبي الحسن ، وهي كثيرة ، لما ورد فيه أيضا من جهة أخرى »[3] .

وقال مرّة ثالثة : « وجملة القول في هذه النسخة أنها تصلح ـ على ما فيها من معايب ـ لأن تُتّخذ قاعدة في نشرة للكتاب لا تبعُد عن أصل مؤلّفه بُعداً كبيرا، وأن إهمالَها من التفريط الذي لا مُسوّغ له، فإن الكتاب أقدم ما انتهى إلينا في بابه وأجلّه ، والظفر بالجانب الأكبر منه صحيحا سليما - وهو ما أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى تحقيقه - غُنْمٌ للمَعْنيّين بعلوم العربيّة غير يسير » .

(١) سنة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

(٢) مقدمة تحقيق القوافي ص ٣٥ .

(٣) المقدمة ص ٣٧ .

فهذا ما كان من أمر كتاب القوافي للأخفش ، وأسباب الاطمئنان إلى نسبته إليه .

أما كتابه في العروض ، فقد نشر القطعة الموجودة منه المحفوظة بدار الكتب المصرية : الدكتور أحمد عبد الدائم ، بالمكتبة الفيصلية بمكة المكرّمة . وقد ضاهى نقول ابن القطاع عن الأخفش بما في كتابه هذا ، فوجدها هي هي ، ثم قدّم أدلّةً أخرى على توثيق نسبة الكتاب إلى الأخفش .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا ، والذي نشره الدكتور جعفر ماجد باسم «صنعة الشعر والبلاغة» ونسبه لأبي سعيد السِّيرافي ، وانتهينا إلى أنه كتاب في العروض لأبي الحسن العروضي : هذا الكتاب ينقل عن الأخفش كثيرا في علمي العروض والقافية بما يتفق مع المطبوع منهما اتفاقًا تامًّا، ويؤكّد نسبتهما إليه :

فقد نقل عن « عروض الأخفش » في هذه الصفحات ١٦٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ (مرّتين) ٢٠٨ ، ٢١٠ ، وهذه الصفحات من كتابنا تقابل في كتاب العروض للأخفش الصفحات ١٦٤ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٩ .

كما نقل عنه من « القوافي » في الصفحات ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، وهذه الصفحات من كتابنا تقابل في «قوافي الأخفش» الصفحات ٥ ، ٧ ، ٥٠ ، ٣١ ، ٤٧ ، ٦٤ .

أفيبقي بعد ذلك موضعٌ لقول المحقق: إن الكتابين المنسوبين للأخفش لم تثبُتْ صحّةُ نسبتهما إليه ؟

* *

وهذا أوان الشروع في نقد المتن الذي أدّاه إلينا المحقّق ، وأسارع فأقول : إن هذا المحقق – على فضله في نشر هذا الأثر – حين عمل في إخراج هذا الكتاب كان في عَجَلةٍ من أمره ، ينبئك بهذا تلك الأخطاء المطبعية الكثيرة التي تمتلئ بها صفحات الكتاب ، ولذلك فإني سأعرض عنها إلاّ ما يتحتّم التنبيه عليه . وسأكتفي في نقدي – إن شاء الله ـ بالتنبيه على التصحيف والتحريف ، وتحرير الشواهد الشعرية ، وتكملة ما ترك المحقق تكملته ، ونسبة ما لم ينسبه ، ما أمكنني عونُ الله وتوفيقُه . وكنت أتمنى أن تكون صورة الأصل المخطوط تحت يدي ، فإني وجدت بعض المواضع وكأن بها سقطا ، ومثل هذا لا يُصار إلى إصلاحه إلاّ بالرجوع إلى الأصل ، أو إلى مصدرٍ ناقل .

الصفحة والسطر	الخطأ أو المَلْحَظ . وتحته يأتي الصواب أو التعليق
٢/١٧	ولَمَنْشُودك ولَمَنْشُورك
٣/١٧ من أسفل	وأبو على الفسوي النحوي هو أبو علي الفارسي المذكور في السطر السابق
١/٢٩	المعنى المُعَمَّى
٢٩/الأخير	يعني ثعلب يعني ثعلبا
٩/٣٣	مادام مخٌ في سُلامَى أو عَيْنْ علّق المحقق على هذا الشاهد بقوله : «لم نقف عليه» . والشطر

من أرجوزة طويلة في صفة الخيل ، ذكرها ابن قتيبة في المعاني الكبير ١٧١/١ - ١٧٨ ، وذكر الشاهد مع شطر سابق في ص ٦٢ ، ثم أورد أشطاراً من الأرجوزة في عيون الأخبار ١٥٦/١ ، ونسبها إلى أبي ميمون النضر بن سلمة العِجْلي . وانظر الشاهد في اللسان (ملح - ليل - نقا) .

٢/٣٤ مقاتل الأعراق

مُقابَل . والمقابل - بالباء الموحَّدة - الكريم مِن كلا طَرَفَيْه. قال الشاعر :

إن كنت في بكر تَمُتُّ خُؤُولةً   فأنا المُقابَلُ في ذوي الأعمامِ

راجع اللسان (قبل)

٥/٣٥ كأن فاها عبقر بـــاردٌ   أو ريحُ رَوْشٍ مسَّه تنّقاحُ

في رواية الشطر الثاني تصحيف ونقص، وصحّته وتمامه :

أو ريحُ روضٍ مسَّه تَنْضاحُ رِكْ

والتنضاح : ما ترشّش من المطر . والرِّكّ : المطر الخفيف . انظر الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ٨٤/١ ، ومجمع الأمثال ١١٧/١ ، والمستقصى ١٦/١ ، وفى «عبقر» في صدر البيت كلام كثير ، انظره في المراجع المذكورة واللسان (عبقر) ٢٠٨/٦ .

٦/٣٩ يُكَتِّمُ الحبَّ ويخفيه كما   تُكَتِّمُ البِكرُ من الناس الوَحَمْ

هكذا ضبط المحقق التاء ، في «يكتّم» و «تكتّم» بالتشديد، وكتب في الحاشية : يُخَرَّج على الرجز ، ثم قطّعه على

تفعيلات الرجز هكذا :

متفعلن مستعلن مستفعلن [إذا أشبعت الهاء من يخفيه]

متفعلن مستعلن مستفعلن

ونعم إن البحر بهذا التشديد في الفعلين يُخرِّج على الرجز ، ولكنْ يرتكب فيه بعض الزحافات «متفعلن – مستعلن» ، ولكنْ من الذي ألزمه أن يكون البيت من الرجز ؟ لماذا لا تخفف التاء في الفعلين ، ويكون من بحر الرمل ، ويؤيد ذلك رواية ابن سيده في المحكم ٢٥/٤ ، وعنه اللسان (وحم) ١١٦/١٦:

كَتَمَ الحبُّ فأخفاه كما تكتُم البِكرُ من الناس الوَحَمْ

فهذا من الرمل بلا شبهة ولا مداخلة .

٧/٤٠ وقد أرسلك

وقد أرسلتَ

٩/٤٠ أبا نُواس

أبا نُواسِكْ

٩/٤٢ وتُذكَرَ أخلاق الفتى حيث لا يدري

هكذا جاء الشطر دون تكملة، ودون نِسبة، وتمامه وصِلتُه :

وإنا وجدْنا الناسَ عُودَيْن طيِّبًا　　وعُوداً خبيثًا لا يَبِضُّ على العَصْرِ

تزين الفتى أخلاقُه وتشينُه　　وتُذكر ... البيت

والشعر لأبي البلاد الكوفي . البيان والتبيين ٢/١٠٤، ٣/٨٩، وبهجة المجالس ١/٥٩٨، وقال ابن قتيبة في ترجمته : «كان من أروى أهل الكوفة وأعلمهم، وكان أعمى جيِّدَ اللسان، وهو مولى لعبد الله بن غطفان، وكان في زمن جرير والفرزدق» المعارف ص ٥٤١ ، قال شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله: وأبو البلاد هذا غير أبي البلاد الطهوي، وهو المعروف أيضا بأبي الغُول الطهوي. البيان والتبيين ١/٣٥٤.

٤٧/٩　فامتحنته

فامْتَحَنْهِ

٤٧/١١، ١٢　بليته

بنيْتِه

٦١/٥　أنشد المصنِّف لأبي نواس :

عُوجا صُدورَ النَّجائب البُزَّلْ　　فسائلا عن قطينةِ المنزلْ

ثم قال : «فإن هذا من المنسرح، وأجزاؤه كلها صحيحة في الوزن ، إلاَّ الجزءَ الأخير ؛ فإنه جاء على «مفعولن» وهذا لم يُجزه الخليل، ولا رُوي في شعر قديم، والـمُحْدَثون كثيراً ما يستعملون «مفعولن» في هذا النوع، وما أرى بإجازته بأساً»[1].

---

(١) وقد أشار المصنف إلى هذا المقطوع أيضا «مفعولن» في ص ١٥٣ .

قلت: و «مفعولن» هو من المقطوع الضرب ، وهو ما أسقط ساكن وتده ، وأسكن متحرِّكه ، وقد تكلم عليه العروضيُّون. راجع الكافي للتبريزي ص ١٠٥ ، والإقناع للصاحب بن عباد ص ٥٧ ، والعيون الغامزة للدماميني ص ٢٠٣ ، وشرح تحفة الخليل لعبد الحميد الراضي ص ٢٣٩ ، وقد أدَرْتُ على ذلك كلاما في دراستي للعروض في كتاب ديوان المعاني لأبي هلال العسكري[1] .

٨/٦٧ بعد الغَنَمْ حادِ نَغَمْ
بعد العَتَمْ جادَ بِفَمْ

٩/٦٧ إذا نَظَمْ
إذا يُضَمْ

قلت : وهذا الرجز المُصَرَّع يُنْسَب – في ظَنّ ابن رشيق – إلى عليّ بن يحيى ، أو يحيى بن علي المنجّم. انظر العمدة ١٨٤/١ ، وأورد السيوطي من هذا الرجز أشطاراً كثيرة، وذكر أنه لبعضهم في مدح المعتضد بالله الخليفة العباسي (٢٨٩هـ) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٢، وانظره أيضا في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٢٤٥/٧[2] .

٧٣/ الأخير أنشد المصنِّف من شعر رَزِين العروضيّ :

(١) نُشرت هذه الدراسة بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ؛ الجزء الثالث من المجلد السادس والستين ١٤١٢هـ = ١٩٩١ م .

(٢) وتأمَّلْ كيف تحتاج كتب الأدب إلى كتب التاريخ والتراجم ؛ والمكتبة العربية كتابٌ واحد .

قرّبوا جِمالَهم للرحيل غدوة احتلّ بك السالبوكْ

وفي عجز البيت تحريف في «احتلّ بك»، صوابه : «أجِبُّتكَ» راجع الورقة لابن الجرّاح ص ٣٥ ، وفي بقيّة شعر رزين الذي أنشده المصنّف اضطراب، ينبغي أن يراجع ويُصحّح .

١١/٧٨ وهي التى في قولك : ن و لا ي

ن هـ و لا ي

٨٠/ الأخير لو عُصْرَ منه البانُ والمِسْكُ انْعَصَرْ

جعله المحقق من الكامل ، وهو من الرجز ، ولم ينسبْه، وهو لأبي النجم العجلي، في ديوانه ص ١٠٣ ، وإصلاح المنطق ص ٣٦ ، وانظر معجم شواهد العربية ص ٤٦٩ .

٣/٨١ ألا رُبَّ مولودٍ وليس له أب وعَدْوِلْكَ لم يَلْدَه أبوان

هكذا ضبط المحقق «وعَدْوِلْكَ» بفتح العين وسكون الدال وكسر الواو وسكون اللام وفتح الكاف، وكأنه شيء صحيح ثابت عنده، وهو تحريف بيّن، وصحة الكلمة «وذي وَلَدٍ»، وهو شاهدٌ معروف سيّار. انظره في الكتاب ٢٦٦/٢، ١١٥/٤، والخزانة ٢٨١/٢، وما في حواشيهما.

٥/٨١ من ورق الحَمَا

من ورق الحَمِي. وهو شاهدٌ سيّارٌ أيضا

٧/٨١ كما يقال : تظَنّيْتُ

كما يقال في تظنّنْتُ : تظَنَّيْتُ . وراجع الكتاب ٢٦/١، وضرورة الشعر ص ٩٢، ١٣٦ ، واللسان (حمم) .

٣/٨٤ القومُ كلّ القوم ...

هم القوم كل القوم ...

٥/٨٤ غير مستعقب

غير مُسْتَحْقِب ... وهو من الشواهد المحفوظة .

١/٨٥ بالدَّوِّ أمثا السَّفين العُوَّمِ

أمثال ... والشاهد لم ينسبه المحقق ، وهو لأبي نخيلة السعدي .

ضرورة الشعر ص ١٢٠ ، وضرائر الشعر ص ٩٦

٩/٨٥ وقبيل من بكير شاهدٌ رَهْط مرجوم ورهط ابن المعلْ

هكذا جاء الشاهد محرّفًا، وغير منسوب، وغير مستقيم الشطرين . و«بكير»: صوابها لُكَيْز، وهو بضم اللام وفتح الكاف : ابن أفصي بن عبد القيس . و«رهط» تنقل إلى أول العَجُز. والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص ١٩٩ ، وليس في أصل الديوان، وأثبته محققه من كتب العربية . وانظر أيضا ضرورة الشعر ص ٨١، وأمالي ابن الشجري ٢٩٣/٢

٣/٨٦ فأطولت القدود

فأطولت الصُّدود

٥/٨٦ وأبيك يحتمل

وأبيك يَعْتَمِلْ

٩/٨٦ إلاّ مُملّكٌ أَبو أمه فتعَسَّف

إلا مملّكٌ أبو أمه أبوه فتعسّف . وهو التقدير المحفوظ في بيت

الفـرزدق هذا . راجع الموشح ص ٨٦ ، نقـلاً عن كـتـابنا، وضـرورة الشـعـر ص ١٨٦ ، ومـا في حـواشـيـه، والفـصـول الخمسون لابن معطي ص ٢٧٦

٨٦/ الأخير وإنا زدنا

وإنما زِدنا . وهو كذلك في نقل الموشّح عن كتابنا

٨/٨٧ مأَلَطَة

مَـأْلُكَة

١/٩٣ يقول المصنف في (باب تقطيع الشعر) : اعلم أن تقطيع الشعر أن تعرف أجزاء ذلك النوع من الشعـر، فإذا عـرفتـه جعلت بحـذاء كل جـزء من الأجـزاء مـا يعـادله من ذلك الحـرف، المتحرّك بحذاء المتحرّك، والساكن بحذاء الساكن مثالا يعرف به، وهو الهاء وللحرف الساكن الألف ...

هكذا جاء الكلام، ولاشك أن في الجزء الأخير منه نقـصـا، ويكون تمامه: وهو الهـاء للحرف المتحرّك، وللحرف السـاكن الألف .

وهنا فائدة : وهو أن ما اصطلح عليه العروضيون المعاصرون من الرمز للحرف المتحرك بالألف، وللحرف الساكن بالهاء هكذا: قَدْ = ا ه غيـر صحيح، والصحيح ما رأيتَه الآن من كـلام العروضيّ، وهو كذلك عند العروضيين القدماء: قَدْ = ه ا.

٦/١٢٠ فكَمْ نَزَعْتَ

فَلِمْ نَزَعْتَ ... وهو من شاهد معروف، انظر له الكافي ص ٦١

١١/١٥١ حَلَّ أهلِي ما بينَ درْنَى فَنادَوْا لا وحَلَّتْ عُلْوِيَّةٌ بالسِّخالِ

هكذا أثبت المحقق البيت وضبطه، ثم لم ينسُبْه .

والصواب : فبادَوْلَى ... عُلْوِيَّةٌ بالسِّخالِ

وبادولَى : بالباء الموحّدة بعدها الدال والواو واللام ثم الألف المقصورة .

والسِّخال : بكسر السّين : موضعان ، انظر لهما معجم ما استعجم صفحات ٢٢٠ ، ٧٢٧ ، ١٠٠٥ .

والبيت للأعشى من قصيدته الفخمة العالية ، التى مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالي فهل تردُّ سؤالي

ديوانه ص ٣ ، وانظر المعيار للشنتريني ص ٧١ .

٨/١٦٠ عارِفان كالبَرَد

عارِضان كالبَرَدِ ... وهو شاهدٌ معروف

١٥/١٧٤ يفوقانِ شَيْخَيَّ في مجمعِ

شَيْخَيَ ... راجع ضرورة الشعر ص ٤٥

٦/١٧٥ والمرءِ يبليه بلاء السِّربالْ

لم ينسُبْه المحقق ، وهو للعجاج . معجم شواهد العربية ص ٥١٧ وسها شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله، فجعله من الرجز، وهو من السريع، وقد نصّ العيني على ذلك. انظر شرح الشواهد الكبرى بحاشية الخزانة ٥١٤/٤، ثم انظر ضرائر الشعر ص ٤٠ ، وسها محققه أيضا فوضعه في فهارس الشعر تحت الرجز . واختلاط السريع بالرجز معروف قديما . راجع الخزانة ٣١٣/٢ .

٧/١٧٥ صاغ

ساغ

٧/١٧٦ يختطن

يخبطن

١٧٦/حاشية ٣ لمضر بن رِبعي

لمضرِّس بن ربعي . على أن هذا الشاهد ينسب أيضا ليزيد بن الطثرية ، وهو في شعره جمع الدكتور ناصر بن سعد الرشيد ص ٦٠ ، وانظر ضرورة الشعر ص ٢١٥ ، وحواشيه .

٣/١٧٩ صرَح

صرّع

٨/١٩٤ يُقْمِن طلبه

يُقْمِن صُلْبَه

٦/٢٠٣ فحَسَّبُوه فألْفَوْه كما حَسَبَتْ

هكذا ضبط المحقق «فحسّبوه» بتشديد السين ، والصواب «فحسَبوه» بالتخفيف ، وهو موضع الشاهد الذى ساق المصنّف البيت من أجله ، قال : «فالجزء الأول من هذا البيت فَعَلَتُنْ » وهذا هو الخَبْل ، قال أبو العلاء المعرّي : « فإذا سقطت سين « مستفعلن » وفاؤه حُوِّل إلى « فَعَلَتُنْ » وسُمّي مخبولا ، وهو مثل قول النابغة :

فحَسَبُوه فألْفَوْه كما حَسَبَتْ»

الفصول والغايات ص ١٨٠ ، وكذلك ضبط بالتخفيف على

الوجه الصحيح في شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٤٥٨ ، ولكنه ضُبط بالتشديد في ديوان النابغة ، نشرة الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٤ ، ونشرة الدكتور شكري فيصل – صنعة ابن السكيت – ص ١٦ ، وإن ضبط بالتخفيف في الشرح ، فقال : ويُرْوَى : فحَسَبُوه وأَلْفَوْه .

وضبط بالتشديد أيضا في شرح القصائد التسع للنحاس ص ٧٥٦ والعجب من العلاّمة البغدادي ينصّ على أنه بالتشديد ، فقال في شرح بيت النابغة : « حسّب بتشديد السين بمعنى المخفّف » الخزانة ٢٥٩/١٠ .

١٢/٢٠٥ فإن تصله بغيره

بأن تصله بغيره

١٤/٢٠٦ ومتفاعلاتن

ومتفاعلانْ وانظر الكافي ص ٦٢

٢٢٦/ الأخير وأخو الغَوانِ من يشأ يَصْرِمْنَه

متى يشأ

وتمام البيت : ويَعُدْنَ أعداءً بُعَيْدَ ودادِ

وهو للأعشى ، في ديوانه ص ١٢٩ ، برواية : « وأخو النساء » وعليها يفوت الاستشهاد ، لكن انظر ضرائر الشعر ص ١٢٠ .

٢/٢٣٩ كالّذْ تزيّا

كالّذْ تَزَبَّى والشاهد لرجلٍ من هذيل لم يُسَمَّ . شرح أشعار الهذليين ص ٦٥١ ، وضرورة الشعر ص ١٦٧ .

٤/٢٣٩ له رَجل

له زَجَلٌ وسبق في ص ١٧٥ .

١٢/٢٧٣ أنشد للنابغة في الإقواء :

زعم العراف بأن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

ولم أجد « العراف » هذه ، في ديوان النابغة بطبعتيه المذكورتين من قبل ، ولا في سائر المراجع ، فإن كانت روايةً محفوظة فينبغي أن تكون « الغداف » بالغين المعجمة والدال المهملة ، وهو الغراب أيضا . وقد جاءت روايةً في عجز البيت، في بعض الروايات :

وبذاك خبَّرنا الغُدافُ الأسود

على أن صدر البيت يروى : زعم الغرابُ ... و : زعم البَوارِحُ

٨/٢٧٦ إن مسحوا

إذْ مسحوا . والشاهد من قصيدة للأسْعَر الجعفي ، في الأصمعيات ص ١٤٢ .

٣/٢٧٦ من أسفل إذا قام يبتاع القلاص ذَميلُ

ذَميمُ بالميم ، وهو الشاهد على اختلاف الرويّ لأن قبله «قليل» . وراجع قوافي الأخفش ص ٥١ .

٦/٢٧٧ وما ليث غريبٍ

غريفٍ . والغريف : الموضع الذي يكثر فيه الشجر من حلفاء ، وغرف ، وهو شجرٌ تعمل منه القسيّ . قوافي الأخفش ص ٥٠ والموشح ص ١٣ .

٧/٢٧٧ كحَيٍّ

كَحِبِّي وهذه الكلمة وسابقتها ، في شعر خلّط المحقّق في ضبطه . وهو على الصواب في الموضع المذكور من قوافي الأخفش .

١٣/٢٨٠ رَمَيْتُه فأقْصَرْتِ فما أخطأته الرَّمْيَهْ

رَمَيْتِيهِ فأقْصَدْتِ فما أُخْطَأَتِ الرَّمْيَهْ

وهو في الحجة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي ٤١٦/٤ ، ٣٠/٥ ، والقوافي للتنوخي ص ٨٠ ، والخزانة ٢٦٨/٥ ، وتذكرة أبي حيان ص ١١٧ ، وفيها زيادة أخلَّتْ به . وأقْصَدْتِ : قتلْتِ .

١٤/٢٨١ تقيس فِعْلاً بِنَعْلٍ حين تحذوها

نَعْلاً بنَعْلٍ ... والشعر لسابق البربري ، كما في الحماسة المغربية ص ١٤٣١ .

١٣/٢٨٤ ، ١٤ عِزْو وضَبْي

غَزْو وظَبْي

٨/٢٨٥ على دالِ

على رالِ . والشعر لامرئ القيس . ديوانه ص ٣٦ ، وقوافي الأخفش ص ٢٤ .

٤/٢٨٧ وطالما وطالما غلبتُ عاداً وغلبتُ الأعْجَما

البيتان لأبي النجم العجلي ، كما في قوافي الأخفش ص ٣١ ، واقرأ حاشيته ففيها فوائد جمّة .

٦/٢٩٦ خاوي المخترق

خاوي المخترقْن .. وهو شاهد التنوين الغالي . راجع الكافي ص ١٥٩ .

١/٣٠٠ فزادوا مَتْنَه لينا

هذا الشعر لابن مقبل . ديوانه ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

٥/٣٠٢ ولا يجدون فيه شيئا

ولا يَحُدُّون فيه شيئا ... كما في قوافي الأخفش ص ٧٢ ، وكما في الموشّح ص ٢٣ ، نقلا عن كتابنا . وأشرت إليه من قبل .

٩/٣٠٢ ألا لله قومٌ ولَدَتْ أختُ بني سَهْمِ

هشامٌ وأبو عبد منافٍ مِدْرَهُ الخَصْمِ

هكذا كتب المؤلف ذلك الشعر ، على أنه بيت واحد من مصراعين . والصحيح أنهما بيتان من الهزج ، يكتبان على هذا النحو :

ألا لله قـــــومٌ وَ   لَدَتْ أختُ بني سَهْمِ

هشـــــامٌ وأبو عبدِ   منـــافٍ مِدْرَهُ الخَصْمِ

وقد جاء فيه الكفُّ ، وهو سقوط السابع الساكن ، فصارت مفاعيلن = مفَاعيلُ والبيتان من مقطوعة لعبد الله بن الزبعرى. قوافي الأخفش ص ٧٣ ، والموشح ص ٢٢ – نقلاً عن كتابنا – وطبقات فحول الشعراء ص ٢٤٠ .

١٦/٣٢٨ لا داء أدوأ من الجهل

هكذا جاء « أدوأ » بالهمز ، وهو صحيح ، لكنه أكثر ما يُروى: « أَدْوَى » وبذلك جاء في الحديث : « وأي داء أدوى من البخل » فتح الباري (كتاب فرض الخمس) ٢٣٨/٦ ، ٢٤٢ ، و (باب قصة عُمان والبحرين . من كتاب المغازي) ٩٥/٨ ، ومسند أحمد ٣٠٨/٣ ، ومجمع الزوائد للهيثمي (باب في البخل . من كتاب الزكاة) ١٢٦/٣ ، والطبقات الكبرى لابن سعد (ترجمة الجَدّ بن قيس) ٥٧١/٣ ، والأدب المفرد للبخاري (باب البخل) ص ٩٠ ، وأمثال الحديث ، لأبي الشيخ الأصبهاني ص ٥٧ ، والإصابة (ترجمة عمرو بن الجموح) ٦١٥/٤ .

قال أبو سليمان الخطابي : « هكذا يرويه أصحاب الحديث ، لا يهمزونه ، والصواب أن يهمز ، فيقال : أدوأ ؛ لأن الداء أصله من تأليف دالٍ وواوٍ وهمزة » غريب الحديث ٢٥٥/٣ .

وقال القاضي عياض : « كذا وقع « أَدْوَى » غير مهموز ، مِن : دَوِيَ ، إذا كان به مرضٌ في جوفه ، والصواب « أدوأ » بالهمز ؛ لأنه من الداء ، فيحمل على أنهم سَهّلوا الهمزة » فتح الباري ٢٤٢/٦ ، وقال ابن بَرّي : «والصواب « أدوأ من البخل » بالهمز ، وموضعه الهمز ، ولكنْ هكذا يروى ، إلا أن يُجعل من باب دَوِيَ يَدْوَي دَوًى ، فهو دَوٍ : إذا هلَكَ بمرضٍ باطن » اللسان (د و ي) ٣٠٥/١٨ .

وواضحٌ أن لا خطأ من المحقّق هنا ، ولكني رأيتها فائدة لغويّة فأثبتُّها ، ثم كانت مناسبة طيبة لأن أختم مقالتي بكلام يتّصل

بلغة الحديث النبويّ الشريف ، التماسًا للبركة ، وإحرازاً للأجر، وعلى الله القبول ، ومنه العون .

* *

وبعد :

فمهما يكن من أمر ، فإن من حقّ الدكتور جعفر ماجد علينا أن نقدّم له الشكر لأنْ أظْفَرَنَا بهذا النص القديم القيّم في علم العروض ، وإن شابَ عملَه شيءٌ من النقص والتخليط ، لعله يستدركه في نشرة أخرى ، أو يُيسِّر الله لهذا الكتاب من يُعطيه حظّه من النَّظَر والتأمل فينشره نشرة علمية صحيحة .

المصادر و المراجع

- أخبار النحويين البصريين . لأبي سعيد السيرافي . تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا . دار الاعتصام . القاهرة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .
- الأدب المفرد . للبخاري . تحقيق عبد الرحمن حسن محمود . مكتبة الآداب . القاهرة ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩ م .
- الإصابة في تمييز الصحابة . لابن حجر العسقلاني . تحقيق علي محمد البجاوي . نهضة مصر ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .
- إصلاح المنطق . لابن السكّيت . تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م .
- الأصمعيات . للأصمعي . تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .
- الإقناع في العروض وتخريج القوافي . للصاحب ابن عباد . تحقيق محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف . بغداد ١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م .

أمالي ابن الشجري . تحقيق محمود محمد الطناحي . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

- الإمتاع والمؤانسة . لأبي حيان التوحيدي . تحقيق أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م .
- أمثال الحديث – أو الأمثال في الحديث النبوي – لأبي الشيخ الأصبهاني . تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد . الدار السلفية . بومباي . الهند ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .
- إنباه الرواة على أنباه النحاة . للقفطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ .
- البارع في علم العروض . لابن القطاع . تحقيق الدكتور أحمد محمد عبد الدايم . المكتبة الفيصلية . مكة المكرمة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .
- بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس . لابن عبد البر . تحقيق الدكتور محمد

مرسى الخولي . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة ١٩٦٢ م .
– البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠ م .
– تاريخ بغداد . للخطيب البغدادي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ هـ .
– تاريخ التراث العربي . للدكتور محمد فؤاد سزكين . نقله إلى العربية الدكتور محمود فهمي حجازي . وراجعه الدكتور عرفة مصطفى . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .
– تاريخ الخلفاء . للسيوطي . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م .
– تاريخ العلماء النحويين . لابن مِسْعَر . تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو . دار هجر . القاهرة ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .
– تذكرة النحاة . لأبي حيان النحوي . تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .
– جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . لابن عبد البر . دار الكتب العلمية . بيروت ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م مصورة عن الطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٦ هـ .
– الحجة للقراء السبعة . لأبي علي الفارسي . تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي . دار المأمون للتراث . دمشق . الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .
– حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م .
– الحماسة المغربية . لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية . دار الفكر المعاصر . بيروت . دار الفكر . دمشق ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .
– الحُور العِين . لنشوان الحميري . تحقيق كمال مصطفى . دار آزال للطباعة والنشر . بيروت . المكتبة اليمنية . صنعاء ١٩٨٥ م .
– خزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب . لعبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي بمصر . ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م .
– الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة . لحمزة الأصفهاني . تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش . دار

المعارف بمصر ١٩٧٢ م .
– ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس . شرح الدكتور محمد محمد حسين . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٥٠ م .
– ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .
– ديوان لبيد . تحقيق الدكتور إحسان عباس . وزارة الإرشاد والأنباء . الكويت ١٩٦٢ م .
– ديوان المعاني . لأبي هلال العسكري . مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٥٢ هـ .
– ديوان ابن مقبل . تحقيق الدكتور عِزّة حسن . وزارة الثقافة والإرشاد . دمشق ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م .
– ديوان النابغة الذبياني . صنعة ابن السكّيت . تحقيق الدكتور شكري فيصل . بيروت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م . وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م .
– ديوان أبي النجم العِجلي . صنعة علاء الدين أغا . النادي الأدبي بالرياض ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م.
– سير أعلام النبلاء . للذهبي . تحقيق جمهرة من العلماء ، وإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م .
– شرح أشعار الهذليين . صنعة السُّكَّري . تحقيق عبد الستار فراج . ومراجعة محمود محمد شاكر. دار العروبة . القاهرة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م .
– شرح تحفة الخليل . لعبد الحميد الراضي . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م .
– شرح الشواهد الكبرى – ويسمّى المقاصد النحويّة – لبدر الدين العَيني . طبع بهامش خزانة الأدب للبغدادي . بولاق ١٢٩٩ هـ .
– شرح القصائد التسع . لأبي جعفر النحاس . تحقيق الدكتور أحمد خطاب العمر . بغداد ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣ م .
– شرح القصائد العشر . للخطيب التبريزي . تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة . دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .
– شعر يزيد بن الطثرية . جمع الدكتور ناصر بن سعد الرشيد . دار مكة للطباعة والنشر . المملكة العربية السعودية ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .

– الصداقة والصديق . لأبي حيان التوحيدي . تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني . دار الفكر بدمشق ١٩٦٤ م .
– الصناعتين . لأبي هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م .
– ضرائر الشعر . لابن عصفور . تحقيق السيد إبراهيم محمد . دار الأندلس . بيروت ١٩٨٠ م .
– ضرورة الشعر . لأبي سعيد السيرافي [مستلّ من شرحه على كتاب سيبويه] تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب . دار النهضة العربية . بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .
– طبقات الشافعية الكبرى . لابن السبكي . تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م . والطبعة الثانية بدار هجر . القاهرة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .
– طبقات فحول الشعراء . لابن سلاّم . قرأه وشرحه أبو فِهر محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .
– الطبقات الكبرى . لابن سعد . دار صادر . بيروت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .
– طبقات المعتزلة . لأحمد بن يحيى بن المرتضى . تحقيق سُوسَنَّة ديفيلد . سلسلة النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية . بيروت ١٩٦١ م .
– العروض . للأخفش . تحقيق الدكتور أحمد محمد عبد الدايم . المكتبة الفيصلية . مكة المكرمة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .
– العروض . لابن جني . تحقيق الدكتور حسن شاذلي فرهود . بيروت ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .
– عروض الورقة . للجوهري . تحقيق الدكتور صالح جمال بدوي . نادي مكة الثقافي . مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م .
– العقد الفريد . لابن عبد ربّه . تحقيق أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م .
– العمدة في صناعة الشعر ونقده . لابن رشيق . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة . دار الجيل . بيروت ١٩٧٢ م ، مصوّرة عن طبعة المكتبة التجارية بمصر ١٩٦٣ م .
– عيون الأخبار . لابن قتيبة . دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ .

– العيون الغامزة على خبايا الرامزة . للدماميني . تحقيق الحسّاني حسن عبد الله . مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٣ م .
– غريب الحديث . للخَطّابي . تحقيق عبد الكريم العِزْباوي . وخرّج أحاديثه عبد القيوم عبد ربّ النبي . مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي – جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .
– فتح الباري بشرح صحيح البخاري . لابن حجر العسقلاني . رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي . وصحّحه وأخرجه محب الدين الخطيب . المكتبة السّلفية . القاهرة ١٣٧٩ هـ .
– الفصول الخمسون ، في النحو . لابن معطي . تحقيق محمود محمد الطناحي . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م .
– الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ . لأبي العلاء المعرّي . تحقيق محمود حسن زناتي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .
– الفهرست . لابن النديم . مصوّرة مكتبة خياط . بيروت ١٩٦٤ م ، عن طبعة ليبزج ١٨٧١ م ، بتحقيق جوهانس رودجر .
– فهرست ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي . المكتب التجاري . بيروت . الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م .
– القوافي . للأخفش . تحقيق أحمد راتب النفاخ . دار الأمانة . بيروت ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .
– القوافي . للتنوخي . تحقيق عمر الأسعد ومحيي الدين رمضان . دار الإرشاد . بيروت ١٣٨٩ هـ = ١٩٧٠ م .
– الكافي في العروض والقوافي . للخطيب التّبريزي . تحقيق الحسّاني حسن عبد الله . مجلة معهد المخطوطات (الجزء الأول من المجلد الثاني عشر) القاهرة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م .
– الكتاب . لسيبويه . تحقيق عبد السلام محمد هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . للحاج خليفة . إستانبول ١٩٤١ م .
– لسان العرب . لابن منظور . مطبعة بولاق بمصر ١٣٠٠ هـ .
– مجمع الأمثال . للميداني . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة

بمصر ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . لنور الدين الهيثمي . مؤسسة المعارف - بيروت ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م . مصوَّرة عن نشرة حسام الدين القدسي بمصر ١٣٥٢ هـ .
- المحكم . لابن سيده . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .
- المستقصى في أمثال العرب . للزمخشري . حيدرآباد . الهند ١٩٦٢ م .
- مسند أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
- المعارف . لابن قتيبة . تحقيق الدكتور ثروت عكاشة . دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .
- المعاني الكبير . لابن قتيبة . تحقيق كرنكو ، وعبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي اليماني . حيدرآباد. الهند ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .
- معجم الأدباء . لياقوت الحموي . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي . بيروت ١٩٩٣ م .
- معجم شواهد العربية . لعبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . لأبي عبيد البكري . تحقيق مصطفى السقّا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م .
- المعيار في أوزان الأشعار . للشنتريني . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية . دار الأنوار . بيروت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.
- المقابسات . لأبي حيان التوحيدي . تحقيق حسن السَّندوبي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧هـ= ١٩٢٩ م .
- الموشّح . للمرزباني . تحقيق على محمد البجاوي . نهضة مصر ١٩٦٥ م .
- الوافي بالوفيات . للصفدي (الجزء السابع) تحقيق الدكتور إحسان عباس . جمعية المستشرقين الألمانية . بيروت ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م .
- الورقة . لابن الجرّاح . تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وعبد الستار أحمد فراج . دار المعارف بمصر ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م .
- وفيات الأعيان . لابن خلّكان . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر . بيروت ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .

* * *

نتائج الفِكْر للسهيلي :

نظرات في تخريج شواهده ونقوله

بنيونس الزاكي*

كتاب «نتائج الفكر» لأبي القاسم السُّهَيْلي المتوفى ٥٨١هـ، من المصادر الأساسية والمتميزة في تراثنا النحوي . وقد صدر لأول مرة عام ١٩٧٨ ، عن جامعة قاريونس ـ ليبيا، وأعقبت هذه النشرة نشرتان : عام ١٩٨٤ ، عن دار الاعتصام بالقاهرة ، وعام ١٩٨٤ أيضًا، عن دار الرياض للنشر والتوزيع، والنشرات الثلاث بتحقيق د. محمد إبراهيم البنا، الذي يعترف له الدارسون بفضل السَّبْق في الوقوف على تراث السهيلي وتحقيقه ودرسه .

وهذا البحث يعرض لعمل د. البنا في تخريج شواهد السهيلي ، في كتابه : شواهده القرآنية ، والحديثية والآثار ، وأقوال الصحابة ، وأقوال العرب ، والشعر ، وأخيراً النقول المختلفة .

---

* باحث من وجدة بالمملكة المغربية .

حاز التُّراث الفكري – في العقود الأخيرة من هذا القرن – عناية خاصة من لدن الباحثين والمحققين الذين ولّى طائفة منهم وجوهَهم شطر الغرب الإسلامي، ينفضون الغبار عن كنوزه، ويبرزون إسهام علمائه في إذكاء الثقافة الأدبية والإسلامية.

وقد كان القرن السادس الهجري من أخصب القرون علمًا وثقافةً في الأندلس، إذ برز فيه طائفة من حذّاق العلم، وجهابذة الفكر، ممّن طبقت شُهرتُهم الآفاق، حتى صار الواحد منهم تُضربُ إليه أكبادُ الإبل، وتحطّ بِفِنائه رِحالُ الرِّجال.

وقد كان الإمام السّهيلي (٥٠٨–٥٨١) أحدَ أعلام هذه الفترة، وصاحبَ سهمٍ وافر في نهضتها العلمية، وإسهامُه الفكري مما لا يسع أحدا من الدارسين جهلُه أو تجاهله.

ولم يكن السهيلي – قبل العقدين الأخيرين من هذا القرن – يعرف بين جمهور العلماء والباحثين إلا بكتابه الفريد «الروض الأُنف» الذي شرح فيه سيرة ابن هشام، فطلع على أهل العلم بمصنف لم يُعرفْ شرحٌ أوعب ولا أكثرُ جمعاً منه[1].

(١) من كلمة قالها الدكتور محمود محمد الطناحي في تصديره لكتاب « البسيط في شرح الجمل» لابن أبي الربيع السبتي ٨/١ . ط/ دار الغرب الإسلامي.

ثم شاء الله – تعالى – أن يولّي فئة من الباحثين وجوههم شطرَ إنتاج السهيلي الفكري،ويعمدوا إلى تحقيق ودراسة ما اهتدوا إليه مخطوطًا، ونَشِط آخرون في إعداد أبحاث انصبت على اهتمامات السهيلي وإنجازاته المتنوعة في أهم مجالات الثقافة الإسلامية المعروفة في عصره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وإنصافًا للعلم وأهله، ينبغي الإشارة ابتداء إلى أن دارسي السهيلي مدينون إلى مَنْ كان له فضل سَبْق الوقوف على تراثه مخطوطا، ومكابدة تحقيقه ودراسته، وأعني به الدكتور محمد إبراهيم البنا.

فقد نشر له تباعًا: «الأمالي»، و «نتائج الفكْر» وكتاب «الفرائض وشرح آيات الوصية»، وأفاد أنه يعد كتاب «التعريف والإعلام» للنشر[1]، كما أنجز دراسة علمية رصينة عن السهيلي ومذهبه النحوي[2].

وكتاب «نتائج الفكر» هو أقدم تآليف السهيلي فيما أفاد محققه. وقد عُني فيه بجوانب خمس :

الدلالة، والعلة، والعامل، ونظم القرآن، ونظم المصطلحات والتعريفات.

وقد ظهر لكتاب « النتائج» ثلاث نشرات: الأولى عن جامعة قاريونس بليبيا عام

(١) مقدمة نتائج الفكر: ٥ .

(٢) صدرت عن دار البيان العربي بجدة عام ١٩٨٥ .

١٩٧٨ م ، والثانية عن دار الاعتصام بمصر سنة ١٩٨٤م، والثالثة في نفس السنة عن دار الرياض للنشر والتوزيع.

وأبان المحقق عن منهج تحقيقه للكتاب في مقدمته (ص ٢٤)، فنبه على أنه عُني بضبط النص، وبالمقابلة بين نسختي الكتاب، بتخريج الأحاديث والأشعار والأمثال... إلخ.

أقول: و لي على بعض شواهد الكتاب الملاحظات الآتية :

الشّواهد القرآنية :

عُني المحقق بتخريج كل الشواهد القرآنية، وفاته ضبط آيتين اثنتين الضبط الصحيح.

الأولى : في صفحة ٤٦، وهي قوله تعالى (سبح باسم ربك العظيم) فاكتفى المحقق ببيان أنها من سورة الواقعة آية ٧٤، ولم ينبه إلى أن صوابها (فَسبح) لا (سبح) كما جاء في المتن.

الثانية: في صفحة ١٠٥، وسيق في قوله تعالى ﴿ذواتاَ أفنان﴾ [الرحمن: ٤٨]، فضبط المحقق «ذواتا» بالتنوين، وصوابها (ذواتا).

الشواهد الحديثية والآثار:

حرص المحقق على تخريج أكثر الأحاديث وأقوال الصحابة، ومع ذلك، فقد أعياه بعضها، فسكت عنه دون أن يصرح بعدم وقوفه عليه، وتساهل في تخريج بعض الأحاديث بواسطة، مِن غير رجوع إلى مظانها.

أ - ما لم يَهْتَدِ إلى تخريجه :

١- الحديث: «أعنق ليموت» (النتائج: ١٤٠)، وأحال المحقق على لسان العرب وجمهرة ابن حزم.

قلت: اللسان والجمهرة غير معدودين في مصادر الحديث.

والشاهد في طبقات ابن سعد ٥٤/٢، ومجمع الزوائد ١٢٦/٦، وغريب الحديث للخطابي ١٣٦/١، ١٣٧، والفائق ٤١٢/٣، والإصابة ٢١٨/٦ (نشرة البجاوي).

٢- حديث « اسكتي يا لاشيء » (النتائج: ١٦٠).

سكت عنه المحقق ولم يعلق عليه بشيء.

قلت: أورده الغزالي في الإحياء ٢٠٤/٣ (ط/ دار الندوة) مرفوعا إلى رسول الله ﷺ، وساقه ثانيةً في ٢١٠/٣ موقوفا، قال أبو هريرة: « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالسنّ البالي تنادي ربها إلى يوم يفنيها: يا رب ، يارب ، لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء» وينظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥٤٨/٩، ٥٧٢.

٣- حديث « دع ما حاك في نفسك، وإن أفتوك به وأفتوك » (النتائج: ٢٦١).

قلت: وقف به السهيلي عند ابن مسعود، فتوهم المحقق أنه قول له، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

والصحيح أنه حديثٌ لرسول الله ﷺ، ونصّه كما في مسلم ١٩٨٠/٤، والمسند ٢٢٨/٤، والترمذي ٥٩٧/٤ «عن وَابِصة بن معبد الأسديّ أن رسول الله

ﷺ قال لوابصةَ: جئتَ تسأل عن البر والإثم؟ قال: قلت: نعم، قال: فجمعَ أصابعَه فضربَ بها صدره، وقال: استفت نفسَك، استفت قلبك، والإثمُ ما حاكَ في النفس وتردّد في الصدر وإنْ أفتاك الناس عنه وأفتوكَ»، والحديث أيضا في سنن الدّارمي كتاب البيوع، باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٢٤٦/٢، وينظر الفائق ٣٠٢/١، والحديث مَثَلٌ عند البكري، ينظر فصل المقال: ٣٠٩/ط٣.

٤- حديث «لكلّ آية ظهرٌ وبطن، ولكلّ حرف حدّ، ولكل حَدّ مطلع» (النتائج: ٢٦٨).

علق عليه المحقق بقوله:«انظر الإتقان للسيوطي» دون الإشارة إلى أنه حديث.

قلت: وهو في صحيح ابن حبان. ينظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٦/١، ومشكاة المصابيح ٨٠/١، وشرح السنة للبغوي ٢٦٣/١، ومجمع الزوائد ١٥٢/٧.

٥- الحديث: «نظرتُ إلى جبريلَ كأنّه حِلْسٌ لاطٍ فعرفت فضل عمله علي» (النتائج: ٣٠٣).

قلت: في الفائق ٣٠٥/١، حديث قريب من هذا ونصه: «مررت على جبريل ليلة أسري بي كالحِلْس من خشية الله».

٢- مالم يتحر الدقة في تخريجه :

١- حديث: «لا تتراءى ناراهما» (النتائج: ١٤٢).

قال المحقق: أخرجه النّسَائي، وروايته فيه: « ألا لا تراءى ناراهما ».

قلت: الحديثُ كما جاءَ عند السهيلي في شرح السنة للبغوي ٢٤٤/١٠،

وهو بتمامه: «أنا بريء من كلّ مسلم مقيمٍ بين أظْهُرِ المشركين قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: لا تتراءى ناراهما».

٢- حديث «إنها أهون على الله من الجيفة (النتائج: ١٦٠).

قال المحقق: أخرجه ابن ماجةَ في باب مثَل الدنيا: ٣٣٣.

قلت: تتبعت الأحاديث الواردة عند ابن ماجة في الباب الذي ذكر المحقق، فلم أجد في واحد منها ذكراً للفظ الجيفة. وأقرب الروايات فيه لما ذكر السهيلي روايتان:

الأولى: «أترون هذه هينةً – يقصد شاة ميتة شائلة – على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده لَلدنيا أهونُ على الله من هذه على صاحبها».

الثانية: «أترونَ هذه هانتْ على أهلها؟ قال: قيل: يا رسول الله ! من هوانها ألقوها. أو كما قال. قال: « فوالذي نفسي بيده لَلدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» سنن ابن ماجة. كتاب الزهد. باب مثل الدنيا ١٣٧٧/٢ . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

وبهذه الرواية ورد الحديث في كل ما تيسر لي الرجوع إليه من المصادر. ينظر المستدرك على الصحيحين ٣٠٦/٤، والترمذي ٣٨٣/٣، والمسند ٣٣٨/٢، ٢٢٩/٤، ومجمع الزوائد ٢٥٣/١ ، والترغيب والترهيب ١٧٣/٤، وشرح السنة للبغوي ٢٢٧/١٤، وشُعب الإيمان ٣٢٥/٧ ، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣٨/٨.

أقول: وقد جاء في كشف الخفاء للعجلوني: ٤٩٢ « الدنيا جيفة، وطُلاَّبُها كِلاب»، وهو حديث آخر.

٣- حديث: «أقربُ ما يكونُ العبد إلى الله إذا كان ساجدا» (النتائج: ٢٧٣).

قال المحقق: أخرجه مسلم وأبو داود والنَّسَائي عن أبي هريرة. انظر الفتح الكبير ٢١٩/١.

قلت: في جميع هذه المصادر ورد الحديث بلفظ «من ربه» بدل «إلى الله» و «وهو ساجد» عوض «إذا كان ساجدا».

٤- حديث: «يمين الله في الأرض» (النتائج: ٢٩٣).

قال المحقق: أخرجه ابنُ عساكر والخطيب عن جرير. انظر الفتح الكبير ٧٩/٢.

قلت: الحديث في كنز العمال ٢٣٢/١، ونصه فيه « يمين الله – عز وجل– طباق السموات والأرض».

٥- حديث: «مسكين رجل لا زوج له ! مسكينة امرأة لا زوج لها» (النتائج: ٤٠٧)

قال المحقق: أخرجه البيهقي عن أبي نُجيح مرسلا. انظر منتخب كنز العمال ٣٩٠/٦.

قلت: الحديث في شعب الإيمان ٣٨٢/٤: ونصه فيه «مسكين مسكين رجلٌ ليستْ له امرأة، قيل: يا رسول الله وإن كان غنيا ذا مال؟ قال: وإن كان غنيا من مال، قال: ومسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج. قيل يا رسول الله: وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: وإن كانت».

أقوال الصحابة:

لم يُعْنَ المحقق بتخريج آثار الصحابة الآتية:

١- قول عائشة رضي الله عنها: «إذا حاضت المرأة حرم الجُحْران» (النتائج:٥٤).

أقول: هو في غريب الحديث لابن قتيبة ٤٥٤/٢، والنهاية ٢٤٠/١، والفائق ١٩١/١، والأساس (جحر) وتهذيب اللغة ١٣٦/٤، ١٣٧، والإنصاف البطليوسي: ١٦٧، واللسان (جحر)، وجنى الجنتين للمحِبّي ٣٣،والتاج (جحر) ٣٧٥/١٠ (ط/الكويت).

قلت: ودعوى السهيلي أنّ «الجُحْران» بالرفع هو قول طائفة من أهل العلم غيرَ القتبي غير مُسلّمة، فقد أفاد ابن الأثير أنه يُروى بكسر النون، ويروى بضمها، كما نصَّ على ذلك أيضا البطليوسي، فالظاهر أن السهيلي لم يستظهر أقوال من تَقَدّموه.

٢- قول فاطمة رضي الله عنها: «يا حسنانُ، ياحُسَيْنَانُ» (النتائج: ٥٤).

استشهد السهيلي بهذا الأثر، ثم قال: هكذا روته الرواة برفع النون.

قال المحقق معلقاً عليه: انظر الروض الأنف ٢٧٩/٢.

قلت: الذي في الروض الأنف ١٤٠/٤ (دار المعرفة بيروت ط/٢) أن الهروي - وحده - قال ذلك في الغريبين.

وقد أورد الزمخشري هذا الأثر في الفائق ٣٧٨/٢ (باب الظاء مع اللام) دون تنصيص على حركة النون.

٣- قول ابن سلام لعثمان رضي الله عنهما: «أنا خارجًا أنفع مني لك داخلاً» (النتائج: ٤٠٤).

ولم يعلق عليه المحقق بشيء.

قلت: كذا ورد عند السهيلي شاهدا في باب الحال.

ولم أعثر عليه بهذه الرواية بعد طول بحث وتفتيش. ووقفت عليه في أسد الغابة ١٦٠/٣ في ترجمة ابن سلام، ضمن خبر، بالرواية التالية: «لما أُريد قتْل عثمان رضي الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرك. قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنّك خارجٌ خير إليّ منك داخل».

قلت: ولا شاهدَ فيه على هذه الرواية.

٤- قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تمرة خير من جرادة» (النتائج:٤٠٩).

سكت عنه المحقق فلم يعلق عليه بشيء.

قلت: أخرجه مالك في الموطأ كتاب الحج، باب فدية من أصاب شيئا من الجراد وهو محرم ٤١٦/١ (نشرة محمد فؤاد عبد الباقي)، وهو في مصنف عبد الرزاق ٤١٠/٤، والمحلّى ٢٣٠/٧ (ط / دار الآفاق الجديدة)، واستشهد به من النحاة ابن أبي الربيع السبتي في البسيط في شرح الجمل ٥٣٩/١، وابن هشام في المغني: ٦١٢ (دار الفكر: ط٥).

أقوال العرب:

لم يُعْنَ المحقق بتخريج مجموعة من أقوال العرب، ومما أمكنني الوقوف عليه:

١- «اذهب بذي تسلم» (النتائج: ٩٥).

هو في الكتاب ١١٨/٣، ١٢١، ١٥٨، والكامل للمبرد ١٣٥٣/٣، ونصه فيه: «افعل ذاك بذي تسلم». وجاء في نوادر أبي زيد: ٥٥٣، «ويقال: والله ما أحسنت بذي تسلم» أي بسلامتك، وما أحسنت بذي تسلمان وبذي تسلمون، وللمرأة بذي تسلمين، وللنسوة بذي تسلمن، والمعنى في هذا كله: بسلامتكما للاثنين، وبسلامتكم للجماعة.

٢- «كنا أهل ثُمِّه ورُمِّه «(النتائج:١٢٤).

قال المحقق: في اللسان: «قال أبو عبيد: المحدثون هكذا يروونه بالضم، ووجهه عندي بالفتح. والثّمّ: إصلاح الشيء وإحكامه، وهو والرمّ بمعنى الإصلاح».

قلت: قول أبي عبيد هذا في غريب الحديث له ٤٠٣/٤-٤٠٤، وروايته فيه: «كنا أهل ثُمّه ورمّه حتى استوى على عُمُمّه» هكذا يحدثونه: أهل ثُمّه ورُمّه - بالضم -، ووجهه عندي ثَمّه ورَمّه».

وينظر: الفائق ١٧٥/١، والأساس (ثمم).

٣- هو أحسن الفتيان وأجمله (النتائج:١٧٢).

قلت: هو في الكتاب ٨٠/١، ونصه فيه: «هو أحسن الفتيان وأجمله، وأكرمُ بنيه وأنبله». وينظر البسيط في شرح الجمل ٧٨٣/٢.

٤ -« اللهم اغفر لي أيها الرجل وارحمنا أيتها العصابة» (النتائج: ١٩٩).

قلت هكذا جاء عند السهيلي. والذي في الكتاب ١٧٠/٣، وأصول ابن السراج ٣٦٧/١، وأمالي ابن الشجري ٤١٨/١: « اللهم اغفر لنا أيتها العصابة»

٥- « إنها لإبلٌ أم شاء» (النتائج: ٢٦٠).

سكت عنه المحقق، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

قلت: هذا شاهد سَيَّار. ينظر الكتاب ١٧٢/٣، ١٧٤، وحروف المعاني للزجاج: ٤٨، ومعاني الحروف للرماني: ١٧٣، وأمالي ابن الشجري ١٠٨/٣ (نشرة الطناحي)، وأصول ابن السراج ٢١٣/٢، والصحاح (أم) ١٨٦٧/٥، والجني الداني: ٢٠٦، وشرح المفصل (التخمير) ٧٩/٤، ٨٠، ورصف المباني ١٨٠ (ط٢)، وشرح المفصل لابن يعيش ٩٧/٨.

٦- «حسبك ينم الناس» (النتائج: ٣٥٥).

قلت: هو في المسائل العسكرية، للفارسي: ١٢٧.

الشواهد الشعرية :

قال الشاعر (النتائج: ٣٤).

وفي الجهلِ قَبْلَ الموت موتٌ لأهله ... فأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإنَّ امرءاً لم يحيَ بالعلم مَيِّتٌ ... فليسَ له حتّى النشورِ نشور

قال المحقق: البيتان في الفِلاكة والمفلوكون، ولم ينسبا لأُحد.

قلت: هما أيضا في تفسير القرطبي ٨٧/٧، وعزاهما لبعض شعراء البصرة، وأنشدهما الماوردي في أدب الدنيا والدين: ٥١ (نشرة محمد فتحي أبو بكر)، وأفاد أنهما لبعض أهل العصر. والبيتَان كذلك بلا عزو في إضاءة الراموس لابن

الطيب الشركي ١٩٣/٢ ، ١٩٤ (منشورات وزارة الأوقاف المغربية).

٢- وأنشد السهيلي (النتائج: ٥٧).

كـأن صَـلا جَـهـيزَة حين تمشي حَـبَـابُ المَـاء يَـتَّـبِـعُ الحـبَـابَا

قال المحقق: رواية اللسان : كأن صلاَ جَهيزةَ حين قامَت

قلت : البيت كـذلك في التـهـذيب ١٠/٤ ، والروض الأنف ٢٤٨/٢ ، والتاج (حبب) ٢٢٤/٢ وهو في المستقصى ٧٨/١ ، واللسان (جهز)، والتاج (جهز) ٩٢/١٥ (ط/ الكويت) ، وروايته في المواطن الثلاثة الأخيرة :

كـأنَّ صـلا جَـهـيـزةَ حين قـامت حَـبـابُ الماءِ حـالاً بَعْـدَ حَـالِ

٣- وقال الشاعر (النتائج: ٥٧) .

تركتُ الرمحَ يعـمـلُ في صَـلاَه كـأنَّ سِنَانَه خُـرطومُ نَسْـرِ

قال المحقق : البيت في الكامل للمبرد ٦٧/١ .

قلت : البيت ليزيد بن سنان المرّي ، وهو سابع أبيات المفضلية ١٣ . ينظر المفضليات : ٧٠ (نشرة شاكر وهارون)، وهو بلا عزو في جمهرة ابن دريد ٨٩٧/٢ (نشرة البعلبكي)، ويروى: « يبرق» بدل « يعمل» .

٤- وجاء في الصفحة ٩٨ قَول الشاعر :

رأى الأمـرَ يُفْـضي إلى آخـرٍ فَـصَـيَّـرَ آخـرَه أوّلا

قال المحقق: ذكره صاحب العقد الفريد ٢٥٣/٢ في أبيات أربعة، قال: ولبعضهم ولم يُسَمِّه...

وقد ذكر ابن جني في مواضع من الخصائص أن أبا عليّ حَدَّثه به غير دفعة.

انظر ٢٠٩/١، ٣١/٢ ، ١٧٠ ، وانظر الأشباه والنظائر ٢٧٧/١ .

قُلتُ: البيت لمحمود الوراق كما في عيون الأخبار ٥٣/٣، ٥٤، وطبقات ابن المعتز: ٣٦٧ (ط/ ٣). وهو بلا عزو في سر صناعة الإعراب ٦٨٧/٢ (نشرة هنداوي) ، والمحتسب ١٨٨/١ ، وشرح المفصل ١٢٠/٥ . والغيث المسجم: ٤٤٩ ، ومحاضرات اليوسي ٢١٣/١.

٥- وجاء في الصفحة ١٤٩ قول الشاعر:

* حوراء عيناء من العين الحيرْ *

قال المحقق: البيت في شرح المفصل ١١٤/٤، وهو لمنظور بن مرثد الأسدي، وروايته

* عيناء حوراء من العين الحير*

قلت: جاء في إصلاح المنطق : ١٢٦- ١٢٧ ما نصّه : قال الأصمعي: أنشدنا أبو مهدي :

هل تعـرفُ الدارَ بأعلى ذي القـورْ قـد درَستْ غـيـرَ رمـادٍ مكفـورْ

مكتـئبُ اللون مَـروُحٌ ممطور أزْمـانَ عـيناءُ سـرورُ المسـرور

* عيناء حوراء من العِيْنِ الحير *

كان ابن السكيت ذكره قبلاً في الصفحة ٣٧، فقال:

أزمـانَ عـيناءُ سـرور المسـرور عـيناء حـوراء من العِين الحِـيـر

وينظر الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ١٢٠/١ (نشرة الضامن) ط/ العراق . واللسان (روح ، قور ، كفر) .

٦- وجاء في الصفحة ١٨٨ قول الشاعر:

* نَحُجُّ معًا، قالت: أَعامًا وقابِلَه *

قال المحقق: صدره:

* فقلت : امكثي حتى يَسارِ لعلّنا *

والبيت من شواهد الكتاب ٣٩/٢ ، ولا يُعرف قائله .

قلت: بل هو لحميد بن ثور ينظر ديوانه : ١١٧ ، وروايته فيه:

فقلتُ امكثي حتى يسارِ لوانُنا　　نحجّ فقالت لِي أعامٌ وقابلُ

والظاهر أن المحقق لم يطلع على بحث الدكتور رمضان عبد التواب الموسوم: « أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه» الذي نشره بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣٤ (ص ٢٠٥ - ٢٤٥/ ط ١٩٧٤) وأعاد نشره في كتابه «بحوث ومقالات في اللغة» (ص : ٨٩- ١٤٠)، وفي الصفحة ١١٧ منه تخريج البيت من ديوان حُميد، ومصادر أخرى. كما نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في المجلد ٤٩ سنة ١٩٧٤.

٧- وأنشد السهيلي (النتائج : ٢٠٩).

وأبيضَ كالمِخْرَاقِ...

قال المحقق : لم يقع لي البيت .

قلت : البيت بتمامه :

وأبيضَ كالمِخْراَق بلّيْتُ حَدّه　　وهبّته في الساقِ والقَصراَتِ

وهو لامرئ القيس . ينظر ديوانه : ٨٢ (نشرة أبي الفضل إبراهيم . ط٤).

وصَدْرُه بلا عزو في التهذيب (خرق) ٤٢/٧ ، واللسان (خرَق)، ووهم صانع

فهارسه فجعل صدر البيت عجزا في فهرس الأشعار.

٨- وفي النتائج : ٢٠٩ ، ورد الشاهد:

وأسمر خطي...

فقال المحقق: قال ابن الأنباري في شرح المفضليات ٧٣٤: «أنشدني أحمد والضبي للأسود بن يعفر :

وأســـمـــرَ خَطيّ كـــأنّ سِنانَه شـهـابُ غَـضَـا شـيـعـتـه فـتـلهّـبـا

والبيت في الأصمعيات ٢٦٦ منسوبا إلى ربيعة بن مقروم الضبي. وفي البحر المحيط ٣٣٢/٢ : وقال حاتم :

وأســمـــرَ خطيّـــا كـــأنّ كُـعــوبه نوى القسب قد أربى ذراعًا على العشر» .

قلت: الشاهد بروايته الثانية في اللسان (رمى) وعزاه لمن سماه أَوْسًا . فإن يكن قصدُه أوسَ بن حجر فليس في ديوانه ، وهو في اللسان ثانية (قسب) و(رمى) منسوبا لحاتم، وهو في ديوانه : ٤٦ ، وبلا عزو في البيان والتبيين ٢٥/٣ ، ونسب في سمط اللآلئ ٦٨٦/٢ لعتيبة بن مرداس، وفي حاشيته إحالة على مصادر أخرى نبّه عليها العلاّمة الميمني رحمه الله .

٩- وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج : ٢٢٥).

بالخـيـرِ خـيـرات وإنْ شـراً فـا ولا أريـد الـشـــــــــر إلا أنْ تـا

وعزاه المحقق للقيم بن أوس .

قلت : هو لنعيم بن أوس في العمدة ٥٢٧/١ (نشرة قرقزان)، واللسان (معي)، ولحكيم بن معيّه التميمي في المحكم لابن سيده ١٩٣/٢ ، واللسان ثانية (معي)، ونسبه القرطبي في تفسيره ١٥٥/١ لمن سماه زهيرا، فإن يكن مراده زهير بن أبي سلمى فليس في ديوانه.

١٠- وجاء في الصفحة ٢٦٣ قول الشاعر:

كيفَ أصبحتَ ؟ كيف أمسيتَ مما ... يُثْبتُ الودَّ في فؤاد الكريم

قال المحقق: انظر أمالي السهيلي: ١٠١ ، ١٠٢.

قلت : الشاهد بلا عزو في الخصائص ٢٩٠/١ ، وديوان المعاني ٥٧٠/٢ عن المبرد النحوي قال : أنشدني المازني عن أبي زيد ، وهو في شرح المرزوقي ١٤٠١/٣ ، ورصف المباني: ٤٧٨ ، والدر المصون للسمين الحلبي ١٧٦/٣ ، والأشموني ١١٦/٣ ، والمساعد ٤٧٣/٢ ، والبحر المحيط ٣٨٥/٢ دار الفكر ؛ ط٢ ، والهمع ١٤٠/٢.

وجاء في بعض هذه المصادر: «يزرع» مكان « يثبت»

١١- واستشهد السهيلي بالبيت الآتي منسوبا للأعشى (النتائج : ٢٧٠):

وسَخَّر من جِنِّ الملائك سبعةً ... قيامًا لديه يعملون بلا أجْرِ

قال المحقق : البيت في اللسان ، مادة « جنن» وفيه « تسعة» بدل «سبعة».

قلت : الشاهد في تفسير الطبري ٥٠٦/١ (ط/شاكر) وفيه تنصيص على أنه – للأعشى أعشى قيس بني ثعلبة البكري – وهو يذكر سليمان بن داود وما أعطاه الله ، وورد ضمن أبيات كالآتي :

ولو كان شيء خالدا أو مُعَمَّراً ... لكان سليمانُ البَريءُ مِنَ الدهْرِ

بَرَاهُ إلهي واصطَفَاهُ عِبادَه ... ومَلَّكَهُ مَا بَيْنَ ثُرَيَّا إلى مِصْرِ

وسخر من جن الملائك تسعَةً ... قِيامًا لديه يعملون بلا أجر

والشاهد في الأضداد لابن الأنباري : ٣٣٥ (نشرة أبي الفضل إبراهيم ط/ الكويت)، وهو للأعشى – بلا وصف – في المحرر الوجيز ١٧٩/١ (ط/

المغرب) ، والبحر المحيط ١٥٣/١ ، والخزانة ١٧٦/٦ (ط/هارون) ، وهو من شواهد الوزير اليمني في الطراز ٦٢/٢ (ط/ دار الكتب العلمية) وعزاه للأرحبي، وبلا عزو في الدر المصون ١٧٣/١ ، وتفسير القرطبي ١٩٥/١ .

١٢- وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج : ٢٨١).

* كُلاًّ بَلَوْت فلا النعماءُ تُبْطِرُني *

قال المحقق: البيت في الكامل للمبرد ١٦٤/١ غير منسوب، وعجزه:

* ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائها جَزَعا *

قلت: الشاهد لعبد العزيز بن زرارة الكلابي في معاني العسكري ٨٨/١ ، والوحشيات: ١٧٥ ، والحماسة البصرية ١١٦/١ ، والعقد الفريد ٢٩/٢ ، ٣٧٨/٣ ، والتذكرة السعدية ١٠٨ ، وهو له من قصيدة في البيان والتبيين ٥٤/٤ ، ولخلف الأحمر في سمط اللآلي: ٤١٢/٢ ، وله أيضا من قصيدة في أمالي الزجاجي: ٦٤ (نشرة هارون)، وللقيط بن زرارة في الفرج بعد الشدة ٥/٥ (نشرة عبود الشالجي) والأرج بعد الفرج للسيوطي: ٥٤.

١٣- وأنشد السهيلي للخثعمي (النتائج : ٢٨١):

بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنَا   على أنَّ قُربَ الدارِ خيرٌ من البُعد

قال المحقق: هو عبدَ الله بنَ الدمينة...، والبيت في ديوانه : ٨٢.

قلت: نسبه القالي في ذيل الأمالي والنّوادر: ١٠٤ ليزيد بن الطثرية ، وعزاه أبو تمام في وحشياته : ١٧٥ لعبد العزيز بن زرارة. وقد فاتَ العلاّمة أحمد راتب النفاخ – رحمه الله – ذلك فلم ينبه عليه في الهامش.

١٤- وفي صفحة ٢٩٣ ورد الشاهد :

يديتُ علي ابن حسحاس بن عمرٍو   بأسفل ذي الجِذَاةِ يدَ الكريم

وخرّجه المحقق من لسان العرب (جذا) و (يدي).

قلت : هو أيضا في أمالي ابن الشجري ٢٣٠/٢، وفي هامشه فضل تخريج فلينظر.

١٥- وجاء في الصفحة: ٢٩٩ كلام للسهيلي عن « الرِّزق - بفتح الراء - فقال : « كما جاء في الشعر من نحو قوله في عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

واقصد إلى الخير ولا تَوَقَّه وارزق عيال المسلمين رزْقه

وعلّق عليه المحقق بقوله: « هو عويف القوافي، من قصيدته التي يرثي فيها عمر بن عبد العزيز. والبيت في الكامل بتقديم العجز على الصدر ».

قلت: الظاهر أن المحقق انساق مع ما قال السهيلي، فتوهم أن البيت في رثاء عمر بن عبد العزيز . والصحيح أنه من قصيدة في رثاء سليمان بن عبد الملك. وإليك نص كلام المبرد:

«وقال عويف القوافي شعراً يرثي سليمان بن عبد الملك ويذكر عمر بن عبدالعزيز...» الكامل ٨٤٠/٢ (نشرة الدالي) .

١٦ - وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج : ٣٦٤) :

ثلاثةُ أحبابٍ فحبٌّ عَلاَقَة وحُبٌّ تِملاَّق ، وحبٌّ هو القتْلُ

قال المحقق في تخريجه : « البيت في مجالس ثعلب ٢٣/١ منسوبًا إلى أعرابي ، وفي شرح المفصل ٤٨/٦، ١٥٧/٩.

قلت : الشاهد بلا عزو في « ليس في كلام العرب .. » لابن خالويه : ١٣٩ (نشرة عبد الغفور عطار)، وعزاه المحقق إلى حنبل الطائي ، وهو بلا عزو في الدر المصون ٢١٠/٢، ونهاية الأرب ١٣٠/٢ ، وشرح المفصل (التخمير) ٧٦/٣ (نشرة عبد الرحمن العثيمين) ، والبحر المحيط ٤٥٦/١.

١٧- وفي الصفحة : ٣٨٥ جاء قول الشاعر :

* والشهرُ مثلُ قلامة الظفر *

وخرجه المحقق من التاج ونهاية ابن الأثير .

قلت : الشطر أيضا من شواهد الخطابي في غريب الحديث ١/ ١٣٠، أورده ضمن بيت، فقال :

قال الشاعر، أنشده الفقعسي :

ابدأن من نجـــدٍ على ثقـــة والشـــهـــر مـــثل قُـــلامَـــة الظُّفْـــر

وهو كذلك من شواهد القرطبي في تفسيره ٢/ ٢٩٣ ، ساقه ضمن بيتين ، كالآتي:

أخَـــوانِ من نجـــدٍ على ثقـــة والشـــهـــرُ مـــثلُ قُـــلامـــة الظُّفْـــر

حـــتى تكاملَ في اســـتـــدارته في أربع زادت علي عَـــشْـــر

١٨- وأنشد السهيلي قول الراجز (النتائج : ٣٩٢).

وكُـلّ شـيء قـــــد يحـبّ ولَـده حَـتّى الحُـبـارى فَـتَطيـر عَنَدَهْ

وخرجه المحقق من اللسان (عند) .

قلت : هو أيضـا في التـهـذيب (عند) ٢/ ٢٢٢ ، والمسـتـقـصي ٢/ ٢٢٧ ، وجمهرة ابن دريد ٢/ ٦٦٦ ، وتكَرّر الشاهد ثانية في اللسان (حَبَر) ، وورد في الموضعين الأخيرين مَثلاً على هيئة النثر.

نقول مختلفة :

زخر كتاب « النتائج » بنقول كثيرة ، اهتدى المحقق إلى تخريج أكثرها ،

وأعياه بعضها .

وممّا فاته :

١- قال السهيلي (النتائج : ٥٦).

«لو قلت : «مررت بزيد وأكرم الله عمراً لكان كَلاماً غَثّاً وقَوْلاً مُسْتَرَثّـاً » .

قال المحقق: كلام غَثّ رَثّ: سخيف . ولم أجد استفعل من الرثاثة.

قلت : هذا الذي لم يجده المحقق لا يأباه القياس، فقد يأتي « استفعل» بمعنى المجرد « فَعَلَ» نحو : « قَرَّ في مكانه واستَقَرَّ » و « مَرَّ واستمَر » ، فكذلك يجوز « رثّ واسْتَرَثّ » وينظر المغني في تصريف الأفعال للشيخ عبد الخالق عُضَيْمة : ١٣٣ (دار الحديث ط ٣)، وفي حاشيته مزيد توسع في المصادر.

٢- قول السهيلي (النتائج : ٢٤٦) : « ومكان مضبوب ومسبوع » من الضباب والسباع .

قال المحقق : لم أجد « مضبوبا ومسبوعا» فيما أتيح لي من كتب اللغة .

قلت : ورد في الاشتقاق لابن دريد : ٤٢٧ ما نصّه : « (السَّبيع) مثل المسبوع سواء، وهو الذي قد أكل السبع غَنَمه » .

وفي التاج (سبع) ٢٧٨/٢١ (ط/الكويت): « وَسُبِعَت الوحشية ، فهي مَسْبوعة » .

٣ - قال السهيلي : « ومن هذا الباب - المتقدم بالطبع - تقدم (العزيز) على (الحكيم)، لأنه عزّ ، فلمّا عزّ حكم ... (النتائج : ٢٦٨).

قلت : قوله : «لأنه عز فلما عز حكم » إشارة إلى خبر ساقه في شرح آيات الوصية : ٤٢ .

وأورده أبو حيان في البحر المحيط ٤٨٤/٣ (ط/ دار الفكر : بيروت . ط ٢)، ونصه فيه «روي أن بعض الأعراب سمع قارئا يقرأ (والسارق والسارقة) إلى آخرها، وختمها بقوله : «والله غفور رحيم» فقال : ما هذا كلام فصيح ، فقيل له : ليس التلاوة كذلك، وإنّما هي : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨]، فقال : بخ بخ، عزّ فحكم فقطع» .

٤ – وفي الصفحة ٣٢٥ عقد السهيلي فصلا في صيغتي « افعَلّ، وافْعَالّ» ، وذكر أن الخطابي زعم أن معنى «احْمرّ» مخالف لمعنى «احمارّ» ، وذهب إلى أن «افْعَلّ» يقال فيما لم يخالطه لون آخر، و «افعالّ» يقال لما خالطه لون آخر ...

قلت : أغفل المحقق عزو قول الخطابي إلى مصدره . وهو في غريب الحديث له ٢٤١/١ ، ونصه فيه : «فأما اللون الخالص كالحمرة والبياض ونحوهما فالفعل منه «احمرّ» ، و«ابيضّ» ...، هذا إذا أردت أنه قد تمكّنَ واستقر، فإذا أردت التغير والاستحالة قلت : «احمارّ» و «اصفارّ»!

وبعد، فهذا ما يسر الله تعالى منْ متابعة شواهد «نتائج الفكر» فعسى أن يفيد محققه من ذلك ويعمل على إخراج الكتاب في طبعته الثالثة إخراجا أقرب إلى الكمال، وتلك رغبته التي عبر عنها في مقدمة الطبعة الثانية .

* *

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين للمرتضى الزّبيدي، ج ٩ دار الكتب العلمية، ط: ١٩٨٩/١ .

٣ – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ج ١ تحقيق شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة ، ط ٨٨/١ .

٤ – إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . ج ٣ ، دار الندوة ، بدون تاريخ .

٥ – أدب الدنيا والدين للماوردي . تحقيق محمد فتحي أبو بكر . الدار المصرية اللبنانية . ط ١٩٩٢/٢ .

٦ – أساس البلاغة للزمخشري بعناية عبد الرحيم محمود . دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ .

٧ – أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير . ج : ٣ دار الفكر ، بيروت ١٩٧٩ .

٨ – أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه للدكتور رمضان عبد التواب، مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٣٤، ١٩٧٤. وفي مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . المجلد ٤٩ سنة ١٩٧٤ .

٩ – الاشتقاق لابن دريد . تحقيق عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ .

١٠ – الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني . ج : ٦ تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١٩٩٢/١ .

١١ – إصلاح المنطق لابن السكيت ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف مصر ، ط ١٩٥٦/٢ .

١٢ – الأصول لابن السراج ، ج : ٢ ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ .

١٣ – إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الشركي ، ج ٢ تحقيق عبد السلام الفاسي والدكتور التهامي الراجي الهاشمي ، منشورات وزارة الأوقاف

المغربية .
١٤ – الأضداد لابن الأنباري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الكويت ، ١٩٦٠ .
١٥ – أمالي الزجاجي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١٩٨٧/٢ .
١٦ – أمالي ابن الشجري (ج : ٢ ، ٣) تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، ط ١٩٩٢/١ .
١٧ – أمالي القالي . دار الآفاق الجديدة، بيروت .
١٨ – البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ج : ١ ، ٣) دار الفكر بيروت ، ط ١٩٨٣/٢ .
١٩ – بحوث ومقالات في اللغة للدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، ط ١٩٨٨/٢ .
٢٠ – البسيط في شرح الجمل لابن أبي الربيع السبتي ، تحقيق الدكتور عياد بن عيد الثبيتي ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ .
٢١ – البيان والتبيين للجاحظ (ج : ٣ ، ٤) تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر بيروت ، ط:٤ .
٢٢ – تاج العروس للزبيدي (الأجزاء : ٢ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢١) تحقيق جماعة من المحققين ، ط / الكويت .
٢٣ – التذكرة السعدية في الأشعار العربية للعبيدي، تحقيق الدكتور عبدالله الجبوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٨١ .
٢٤ – الترغيب والترهيب للمنذري ، ج ٤ بعناية مصطفى محمد عمارة ، مطبعة البابي الحلبي، ط ١٩٥٤/٢ .
٢٥ – التعريف والإعلام للسهيلي ، تحقيق عبد الله محمد النقراط ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي طرابلس ليبيا، ط ١٩٩٢/١ .
٢٦ – تفسير الطبري ، ج ١ ، تحقيق العلامة محمود محمد شاكر، دار المعارف ، مصر .
٢٧ – تفسير القرطبي (الأجزاء : ١ ، ٢ ، ٧) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢٨ – تهذيب اللغة للأزهري ، ج : ٢ – ٤ ، تحقيق محمد علي النجار وعبد الكريم العزباوي ، دار الكاتب العربي ، مصر ، ١٩٦٧ .
٢٩ – جمهرة اللغة لابن دريد ، تحقيق الدكتور رمزي منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط ١٩٨٧/١ .

٣٠ – جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين للمحبي ، دار الآفاق الجديدة ، ط ١٩٨١/١ .

٣١ – الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ورفيقه، دار الآفاق الجديدة، بيروت .

٣٢ – حروف المعاني للزجاجي ، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة . دار الأمل ، ١٩٨٦ .

٣٣ – الحماسة البصرية لصدر الدين البصري ، ج ١ ، تحقيق الدكتور مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ .

٣٤ – خزانة الأدب للبغدادي ، ج : ٦ . تحقيق عبد السلام هارون . الخانجي ، مصر ، ط ١٩٨٩/٢ .

٣٥ – الخصائص لابن جني ، ج ١ . تحقيق الشيخ محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٣٦ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (ج : ١، ٣)، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط ١٩٨٦/١ .

٣٧ – ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط ٤ .

٣٨ – ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار المعارف ، مصر .

٣٩ – ديوان حاتم الطائي ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ،. مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١٩٩٠/٢ .

٤٠ – ديوان حميد بن ثور ، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، دار الكتب المصرية (مصورة عن الطبعة الأولى) .

٤١ – ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٤٢ – رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ، تحقيق الدكتور أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط ١٩٨٥/٢ .

٤٣ – الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ، ج ١ ، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ، ١٩٧٩ .

٤٤ – الروض الأنف للسهيلي (ج : ٢ ، ٤) بعناية طه عبد الرؤوف سعد ، دار المعرفة ، بيروت ،

ط ٢ .
٤٥ – سر صناعة الإعراب لابن جني ، ج ٢ ، تحقيق الدكتور حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق، ط ١٩٩٣/٢ .
٤٦ – سمط اللآلي لأبي عبيد البكري ج ٢ ، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
٤٧ – سنن الترمذي ، ج : ٣ – ٤ تحقيق عبد الرحمن عثمان ، دار الفكر ، ط ١٩٨٣/٢ .
٤٨ – سنن الدارمي ، ج ٢ ، بعناية أحمد محمد دهمان ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٤٩ – سنن ابن ماجة ، ج ٢ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ب ت .
٥٠ – السهيلي ومذهبه النحوي ، الدكتور محمد إبراهيم البنا ، دار البيان العربي ، جدة ، ط ١ .
٥١ – شرح الأشموني على الألفية ، ومعه حاشية الصبان ، ج ٣ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٥٢ – شرح الحماسة للمرزوقي ، ج ٣ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١٩٩١/١ .
٥٣ – شرح السنة للبغوي (الأجزاء : ١ ، ١٠ ، ١٤) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ط ١٩٨٠/١ .
٥٤ – شرح المفصل لابن يعيش (الأجزاء : ٤ ، ٥ ، ٨) دار الطباعة المنيرية بمصر ، تصوير عالم الكتب ، بيروت .
٥٥ – شرح المفصل في صنعة الإعراب (التخمير) لصدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، (ج : ٤) ، تحقيق د . عبد الرحمن العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١٩٩٠/١ .
٥٦ – شعب الإيمان للإمام البيهقي . ج : ٤ – ٧ ، تحقيق أبي هاجر محمد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٩٠/١ .
٥٧ – الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري ، ج ٥ ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين بيروت .
٥٨ – صحيح مسلم ، ج ٤ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار التراث العربي ، بيروت .
٥٩ – طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ .

٦٠ – الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج : ٢ ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٥ .
٦١ – الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠ .
٦٢ – العقد الفريد لابن عبد ربه ، (ج : ٢ ، ٣) ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ .
٦٣ – العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد قرقزان ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٨ .
٦٤ – عيون الأخبار لابن قتيبة ، ج ٣ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
٦٥ – غريب الحديث للخطابي ، ج ١ ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٩٨٢ .
٦٦ – غريب الحديث لأبي عبيد ، ج ٤ ، ط ٢ ، تصوير دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٦ .
٦٧ – غريب الحديث لابن قتيبة ، ج ٢ ، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٧٧ .
٦٨ – الغيث المسجم في شرح لامية المعجم لصلاح الدين الصفدي ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥ .
٦٩ – الفائق في غريب الحديث للزمخشري (ج : ١ ، ٢) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ورفيقيه ، دار الفكر ١٩٧٨ .
٧٠ – الفرج بعد الشدة للتنوخي ، ج ٥ ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت .
٧١ – فهارس لسان العرب ، صنعة الدكتور خليل أحمد عميرة . أشرف على برامجه الدكتور أحمد الهيجاء . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١٩٨٧/١ .
٧٢ – الكامل في الأدب ، المبرد ، ج ٢ ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦ .
٧٣ – الكتاب لسيبويه ، ج ٣ ، تحقيق عبد السلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ .
٧٤ – كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية للسهيلي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا ، منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا ، ١٩٨٠ .
٧٥ – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ، نشرة

أحمد القلاس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١٩٨٨/٥ .

٧٦ – كنز العمال للتقي الهندي ، ج : ١ بعناية الشيخ بكري فياض والشيخ صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ .

٧٧ – لسان العرب لابن منظور (الأجزاء : ٤ ، ٥ ، ١٥) دار صادر بيروت .

٧٨ – ليس في كلام العرب لابن خالويه ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٩٧٩/٢ .

٧٩ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي (الأجزاء : ١ ، ٦ ، ٧) ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط ١٩٨٢/٣ .

٨٠ – المحاضرات في اللغة والأدب للحسن اليوسي ، ج ١ ، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٢ .

٨١ – المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ، ج ١ ، تحقيق الدكتور عبد الحليم النجار وآخرين ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة ١٣٨٦ هـ .

٨٢ – المحرر الوجيز لابن عطية ، ج ١ ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب .

٨٣ – المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ، ج ٢ ، ط البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ .

٨٤ – المحلى لابن حزم ، ج ٧ ، تحقيق أحمد شاكر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٨٥ – المسائل العسكرية للفارسي ، تحقيق الدكتور محمد الشاطر ، مطبعة المدني ، ط ١٩٨٢/١ .

٨٦ – المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ، ج ٤ . دار المعرفة ، بيروت .

٨٧ – المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ، ج ١ ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٧٧/٢ .

٨٨ – المسند للإمام أحمد بن حنبل (ج : ٢ ، ٤) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١٩٧٨/٢ .

٨٩ – مشكاة المصابيح للتبريزي ، ج ١ ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١٩٧٩/٢ .

٩٠ – مصنف بن أبي شيبة ، ج ٨ ، بعناية سعيد اللحام ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٩٨٩/١ .

٩١ – المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، ط ١٩٧٠/١ .

٩٢ – معاني الحروف للرماني ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٣ .

٩٣ – المغني في تصريف الأفعال للشيخ عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ، مصر ، ط ٣ .

٩٤ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق الدكتور مازن المبارك ورفيقه ، دار الفكر دمشق ، ط ٥ .

٩٥ – المفضليات للمفضل الضبي ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر.

٩٦ – الموطأ للإمام مالك بن أنس ، ج ١ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٩٧ – نتائج الفكر في النحو للسهيلي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام ، مصر ط ٢ .

٩٨ – نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، ج ٢ ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ .

٩٩ – النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد محمود الطناحي ورفيقه ، المكتبة العلمية ، بيروت .

١٠٠ – النوادر لأبي زيد الأنصاري ، تحقيق الدكتور محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨١ .

١٠١ – همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي ، تصحيح محمد بدر الدين النعساني ، دار المعرفة ، بيروت .

١٠٢ – الوحشيات – وهو الحماسة الصغرى – حققه عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر .

* * *

«رحلات»
حمد الجاسر للبحث عن التراث

عصام محمد الشَّنْطِي*

الشيخ حمد الجاسر من قمم المشتغلين بالتراث العربي ، ومن قمم مَن قدَّموا لهذا التراث خدمات جليلة .

علاقته بالمعهد ، منذ تأسيسه ، علاقة متينة ، تجاوزت الباحث الذي يطَّلع على مقتنياته ويصوِّر منها ، فهو عضو فاعل في مجلسه الاستشاري ، وقدَّم من خلاله للمعهد فوائد عظيمة .

لقد نال هذا العالِم الجليل ، في بداية هذا العام (١٩٩٦) ، جائزة الملك فيصل العالمية في أدب الرحلات . ووجب على المعهد أن يشارك في التهنئة والتكريم . وها هو يقدِّم لقرَّاء مجلته المتخصصة هذا البحث الذي كتبه الأستاذ عصام محمد الشَّنْطِي ، في جانب من جوانب رحلاته، إسهاماً متواضعاً لتكريمه .

---

* مدير المعهد الثاني ، سابقاً .

نعلم أن كتب الرحلات عند العرب ، يمكن تقسيمها عموماً إلى أقسام ثلاثة . الأول منها رحلات جغرافية يرصد العالِم فيها أحوالَ الناس والعمران . وثانيها رحلات بحرية رواها تجّار وملاّحون ، تضمنت معلوماتٍ مفيدةً عن البحار وأسماكها وأصدافها ، والأقوام الذين يسكنون على شواطئها . وثالثها رحلات برية تخترق الأمم والبلدان ، إسلامية وغير إسلامية ، عن طريق البر وفي القوافل . وهي رحلات كثيرة ، أشهرها رحلتا ابن جُبَيْر في العالم الإسلامي ، ورحلة ابن بَطُوطة وما توغل فيه من الأقطار النائية كبلاد البلغار والمغول والهند والصين(١) .

أما رحلات الشيخ حمد الجاسر – علاّمة الجزيرة العربية – فهي الأخرى متنوعة الأهداف ، ومختلفة الدواعي والمقاصد . فهي إما إلى بلاد عربية أو إسلامية ، أو أجنبية ، أُوروبية وأمريكية ، بقصد الاطلاع على التراث العربي متمثلا في مخطوطاته ، يصف ما يتخيره منها ، ويصوّر ما يستطيع . أو رحلات داخل بلاده من الجزيرة العربية ليحقق مواضع تاريخية ، أو أصول قبائل . أو رحلات للعلاج والاستشفاء ، عافاه الله وشفاه . وقد خصّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا لرحلاته من أجل البحث عن التراث ، دون الأهداف الأُخرى .

ولعلّي لا أُغالي إذا عددتُ هذا الكتاب من أنفع وأمتع ما صنّفه الشيخ المؤلف من كتب ، ونَشَرَه من بحوث ومقالات ، وما حقّقه من نصوص تراثية وعقّب عليها ، على كثرتها وتنوّعها . والحق أن كثيراً من مباحث هذا الكتاب كان قد نشره المؤلف منجّمًا في مجلته التراثية النفيسة «العرب» ، ثم نشرها مجمعة بين دفّتَيْ هذا الكتاب عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، وجاء في ما يزيد

(١) الرحلات ، د. شوقي ضيف ، ص ٥ – ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٧ م .

على أربع مئة صفحة من قطع فوق المتوسط ، منها نحو خمسين صفحة صنعها للفهارس ، فجعل الأول منها لموضوعات الكتاب ، والثاني لأسماء الأعلام ، أفراد وجماعات ، والثالث لأسماء الكتب ، والأخير لأسماء المواضع . ولا يخفى على الباحثين ما للفهارس من قيمة بالغة تكشف عن فوائد الكتاب ، وتسهل الانتفاع بها ، خاصةً ما يتعلق بالمخطوطات العربية التي اطلع عليها ، وأسماء مؤلفيها ، والمكتبات التي زارها ووجدها فيها .

ولا يبخس من قيمة الكتاب ، أو الحديث عنه ، أنه صدر في طبعته الأولى ، منذ ستَّ عشرةَ سنة . فالكتاب بجانب نفاسته وإمتاعه ، حافل بالفوائد الثرّة نحو موضوع عزيز وأصيل ، وهو البحث عن المخطوطات العربية ، والتنقيب فيها ، ووصفها ، واستخراج ما فيها من كنوز وذخائر ، خاصةً أن موضوع تغريب التراث العربي وبعثرة مخطوطاته خارج العالَمين العربي والإسلامي مازال قيد النظر، ويحتاج إلى مزيد من البحث والتقصّي والحصر . فهذا الكتاب من الكتب التي يَرجع إليها الباحث المتخصص في كلّ حين ، لأنه كالصُّوَّة أو المنارة على الطريق ، تهدي كلّ مسافر ، راكب وراجل .

لقد خصّ المؤلف هذا الكتاب برحلاته خارج الجزيرة العربية لمهمة جليلة ، فطاف في كثير من أقطار العرب ، وأقطار المسلمين ، والأقطار الأجنبية . وكان لا يخل بشدّ الرحال إلى كلّ صُقْعٍ من هذه الأصقاع ، فيه من المخطوطات ما يستحق أن يُشَدّ الرحال إليه ، وهو الشيخ المسنّ ، الذي أوصاه الأطباء ، منذ زمن، بألاّ يرهق عينيه بقراءَة الكتب ، فكيف بقراءَة المخطوطات والتمحيص فيها، وهي تحتاج إلى أناة وصبر ، وإلى عيون كعيون زرقاء اليمامة ، أو إلى عيون صقر على أقل تقدير . ولعلّ صنيعه هذا يذكرنا بما كان يفعله الأجداد الأوائل الذين

كانوا يَشدُّون الرحال ، ويطوفون الفيافي والقفار ، من أجل التحقق من حديث نبوي ، نصًّا أو سنداً ، أو شاهد لغوي ، أو خدمة عِلم من علوم العربية الأخرى في عصر التصنيف والتدوين . فضلاً عَمَّا كان يتكبده المؤلف في سفره من نفقات يدفعها من حرِّ ماله في سبيل هذا الهدف العلمي الرفيع ، مما يندر أن نلقاه عند القدامى والمحدثين .

(١)

نفائس المخطوطات ومشكلاتها :

من يقرأ هذا الكتاب النفيس ، يرى كيف أن المؤلف جاب أقطار الدنيا لهدف واحد ، وهو البحث عن المخطوطات العربية المبعثرة في أنحاءٍ شتّى من مكتبات العالَم ، لا يشغله عنها شاغل آخر . والخطاب الأول في الكتاب هو خطاب المخطوطات العربية ، والحديث عن نفائسها ومسائلها ومشكلاتها . وسنأتي في الكتاب إلى موضوعات أخرى طرقها المؤلف ، لكنها موضوعات ثانوية لا ترقى إلى رغبته الملحة في السفر وتحمّل المشاق في سبيل هذا الهدف . وبهذا يتطابق هدفه من هذه الرحلات مع تسمية كتابه : رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث .

ويتضح اهتمام المؤلف بالمخطوطات العربية في أكثر من موضع من الكتاب ، فحين يزور مدينة « بورصة » التركية ، يقول : لا أريد الحديثَ عن جمال هذه المدينة ، ولا عن حماماتها ومياهها الحارة ، ولا عن جبالها الشاهقة ... فالحديث عن المكتبات[1] . ويكرر مثلَ هذا القول حين يصل إلي مدينة « قونية »

(١) رحلات ، ص ١٥٨ .

التي عدّها من أجمل المدن التركية ، وأبهجها في النفس ، ولكنه مشغول عنها بما أتي من أجله[1] . أما أربه من لندن حين يزورها فمحصور - على حدّ قوله - في زيارة بعض المكتبات[2] .

وهو دائم التكرار في أن الغاية الأولى من رحلاته هي البحث عن المخطوطات العربية . فحين يزور من أوروبا هولندا ولندن وبعض المدن السويسرية وألمانيا وإيطاليا، يرغب بعض إخوانه أن يتحدث عن مشاهداته هناك ، فيضطر أن يسجِّل لمحات خاطفة عن رحلته الأُوروبية ، تأتي بعيدة عن الطرافة التي يرغبها الإخوان ، والتي اعتاد القارئ أن يجدها في أحاديث الرحالة إلى تلك البلاد . ويقطع بأن الغاية من رحلته تكاد تكون محصورة في البحث عن المخطوطات العربية ، وهذه غاية بعيدة - في رأيه - عن الإطراف والتشويق للقارئ العادي[3] .

ولم يعقه عن هدفه هذا ما كان يتحمل من مشاق ، فقد كان يقضي الساعات الطوال في التنقل من مطار إلى مطار ، ومن مدينة إلى أخرى . وكان يتعرض لمشقات أشدّ نَصَبًا وألمًا ، حين تكون المسافات طويلة . يسافر مرة من إستانبول إلى مدينة « قونية » عبر أنقرة ، فيقضي النهار وهزيعاً من الليل وهو في أكثر من « حافلة » إلى أن يصل إلى مراده . ويقضي مرة اثنتين وعشرين ساعة في القطار ساعيًا إلى مدريد من باريس ، بهدف التردد على مكتبة الإسكوريال التي تبعد عن مدريد نحو سبعين كيلاً . ويزورها أكثر من مرة ، ويَطَّلع على

(١) رحلات ، ص ١٩١ .

(٢) رحلات ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) رحلات ، ص ٢٠٧ .

كثير من مخطوطاتها ، ويصفها ، وينسخ منها ، ويعلّق على مادتها ، ويصوّر بعضها .

وكان حين يحطّ رحاله في مدينة ليطلع على مخطوطاتها ، يَسمع أن بمدينة أخرى مخطوطات ، ولم يكن في خطته زيارتها ، فيسافر إليها غير يائس من مظنة فائدة علمية يجنيها ، على أن يعود إلى إكمال مأربه الأول . قيل له ، وهو في الرباط مرة ، إن بمرّاكش مخطوطات ، فيسافر إليها ، يقول : « ولقد كانت رؤية هذه المكتبة [مكتبة ابن يوسف العامة] من أقوى البواعث لزيارة مرّاكش ، لعلّي أن أرى في مخطوطاتها ما أستفيد بمطالعته »[١] . وكان يصل ليلاً إلى بعض هذه المدن التي يزورها ، والمطر منهمر ، والبرد شديد ، فيقضي ساعات وهو يسعى ويشقى للحصول على غرفة في فندق ، يأوي إليها[٢] .

ويندر أن يظهر في كتابه ، وهو يشدّ الرحال للمخطوطات ، أنه جاء – بإزاء هذا الهدف الأول – للعلاج . فقد كانت المخطوطات تنسيه نفسه ، وتستنفد صحته وماله ، فيرهق من كثرة المطالعة والنّسْخ ، ويصرف الأموال في تصوير ما يريد منها . يقول في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا : « لم يعد لي أرب في المكتبة ، فقد أرهقتني كثرة المطالعة والنقل ، ولم يبق معي من النقود ما يزيد عن حاجتي في العلاج ، ولم أشاهد في الفهرس من أسماء الكتب التي أُتطلع إلى معرفة محتوياتها ما يغريني بمراجعة المكتبة . ولهذا قررتُ السفرَ إلى روما »[٣] .

(١) رحلات ، ص ٩٣ . وانظر ص ٧٨ .

(٢) انظر مثلاً في رحلات ، ص ١٦ وما بعدها .

(٣) رحلات ، ص ٣٤٤ ، وانظر ص ٣٣٦ .

على أنه أمكنني أن أحصر هذه الرحلات تاريخًا ، فأقدمها ممّا ظهر في الكتاب وقع في الربع الأخير من عام ١٩٦٠ م (١٣٨٠ هـ) ، وأحدثها وقع في صيف ١٩٧٣ م (١٣٩٣ هـ). بمعنى أن الزمن الذي قُطعت فيه هذه الرحلات نحو ثلاثة عشر عاماً . وليس من هَمِّي هنا أن أسرد المكتبات التي زارها في رحلاته . ولو فعلتُ لصنعت قائمة مطوّلة ربما تبعث على الإملال لغير المتخصص . فليس هذا مكانها من هذا العَرْض والتحليل . وسنأتي على ذكر بعضها في تضاعيف الحديث عن تفصيلات هذا الكتاب .

وحسبنا أن نعلم هنا أنه ما كان يسمع عن مدينة أو مكتبة تضم مخطوطات عربية إلاّ يسارع إليها . ويحدث أن يزور المدينة أكثر من مرة إذا ما أحسّ أن زورة واحدة لا تشبع رغبته في الاطلاع ، فيزور إستانبول ثلاث مرات لأنها تحوي من تراث العرب المسلمين ما لم تحوه مدينة غيرها ، يطوّف في مكتباتها ، وينقّب عن نفائسها . ومثلها باريس التي يزورها مرتين[1] ، ومكتبة الإسكوريال في إسبانيا التي يزورها مراراً في أعوام مختلفة[2] .

وبإزاء ما يعلمه المؤلف من إشكالية هامة من إشكاليات المخطوطات العربية المتعددة، وهي توزّعها في أنحاء شتى من العالَم ، دون أن نملك حتى الآن إحصاءً ، ولو مقرّباً ، عن أعدادها ، حرص المؤلف ، كلما تيسّر له ذلك ، على ذكر أعداد مخطوطات المكتبات التي يزورها ، ومن ثَمّ يفصّل في تاريخ هذه المكتبات ونشأتها ومصادرها[3] . وبهذا كان يُسهم في وضع لبنة – وإن

(١) رحلات ، ص ٣٢٠ .

(٢) رحلات ، ص ٣٢٥ .

(٣) انظر مثلاً في رحلات ، ص ١٢٤ وما بعدها .

كانت صغيرة – للوصول إلى حلّ هذه الإشكالية ووضوحها .

ومن الأمثلة على ذلك ما سجّله في كتابه من أن بالمكتبة السليمانية العامة في إستانبول ما يقارب عشرين ألف مخطوطة ، ويفصّل في مكونات هذه المكتبة وفهارسها ، ومدى قدرة هذه الفهارس على الكشف عن كنوزها . ويذكر ما ضُمَّ إليها من مكتبات أُخرى ، تقدر باثنتين وتسعين مكتبة ، ذَكر منها سبعًا وعشرين[1] . ومما يبيِّن أن دار الكتب الوطنية في تونس تحتوي على اثنتين وعشرين ألف مخطوطة ، منها مخطوطات الأحمدية والعبدلية وحسن حسني عبد الوهاب . وفي المكتبة الوطنية في الجزائر ١٩٨٧ مخطوطة موصوفة في فهرس مطبوع[2] . وفي مكتبة ابن يوسف العامة بمراكش نحو ١٦٠٠ مخطوطة .

وطبيعي أن تُفْضي هذه الإشكالية إلى إشكالية أزلية كبرى للمخطوطات العربية ، وهي قضية تغريب التراث العربي ، وانتقال آلاف مخطوطاته إلى غير أماكنها الأصلية من العالَمين العربي والإسلامي ، واستقرارها في عالَمين غريبين عنهما ، هما العالَم الأُوروبي والأمريكي . فحين يزور مكتبة جامعة ليّدن في هولندا تثور في نفسه إشكالية التغريب متمثلة في قضية الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني الشهيرة ، الذي باع مخطوطات عربية إلى مكتبة بريل . وقد وضع لها المستشرق كارلو لندبرج فهرساً يقع في ١٨٣ صفحة ، يصف فيه ٦٦٤ مخطوطة ، وقد طبع في ليدن سنة ١٨٨٣م[3] . وظلت هذه القضية في فكره ، وظلّ يلاحق محاولة حصوله على كراسة طبعت قديماً عن زيارة الشيخ

(١) رحلات ، ص ١٢٥ – ١٢٨ .

(٢) رحلات ، ص ١٩ .

(٣) رحلات ، ص ٢١٣ .

أمين هولندا ، وحضوره مؤتمر المستشرقين أثناء انعقاده سنة ١٨٨٣م (١٣٠٤هـ)[١] .

كما ظلَّ - من ناحية أُخرى - يلاحق انتقال بعض نسخ المخطوطات من المشرق العربي إلى مغربه ، ومن ثَمَّ إلى أوروبا . فهذه مخطوطة « الحماسة البصرية » القابعة في مكتبة دير الإسكوريال في إسبانيا ، وجد فيها ما يدل على أنها كانت في شمال بلاد العرب ، ثم انتقلت إلى غرب البلاد ، فالمغرب الأقصى ، ومنه نُهبت فيما نهب من الكتب المغربية في البحر المتوسط ، واستقر قرارها في هذا الدير[٢] .

ويلمس المؤلف إشكالية حادّة ثالثة من إشكاليات المخطوطات العربية ، وهي أن معظمها حتى الآن في المكتبات العامة لم يتم إلاَّ فهرسة جزء بسيط منها ، فضلاً عَمَّا في المكتبات الخاصة . ولو سَلِمت هذه الفهارس أو القوائم المصنوعة مما وقعت فيه من خلط وخطأ لكان الأمر هيناً . فقد عانى المؤلف منها كثيراً ، واتضحت شكواه وضوح الشمس في ضحى يوم صائف . وربما تتوجه معاناته أكثر ما تتوجه إلى فهارس المكتبات التركية . يقول في هذا الصدد : « وينبغي أن يلاحظ كلّ مَن يزور إحدى المكتبات في البلاد التركية عدم الاعتماد على الفهارس فهي كثيرة الأخطاء »[٣] . ويكرر عدم ثقته في هذه الفهارس في أكثر

(١) رحلات ، ص ٣١٣ .
(٢) رحلات ، ص ١٦٢ . وانظر أيضا ص ١٦٩ ، ٣٣٥ .
(٣) رحلات ، ص ٢٠٢ .

من موضع . فحين يزور مكتبة « نور عثمانية » في إستانبول ، يقول : « ولها فهرس مطبوع ، غير أنه لا يصحّ الاعتماد عليه ، وكثيراً ما تتفق فهارس مكتبات إستانبول على الغلط »[1] . وتخرج دائرة عدم ثقته في فهارس تركيا إلى فهارس المخطوطات العربية عموماً .

وتتعاظم هذه المشكلة عنده نظراً لاتساع أُفقه ، ورحابة معارفه في التراث العربي . وتتنوع الأوهام في هذه الفهارس تنوعًا عجيبًا . فحينًا توضع المخطوطة في غير موضعها عند التصنيف . فمثلاً مخطوطة « محاسن المساعي ، في مناقب الأوزاعي » ، وضعت في فهرس مكتبة نور عثمانية في التصوف ، لا في التاريخ والتراجم[2] . وكتاب « خلاصة الوفاء » من حقه أن يوضع بين كتب الجغرافية ، لكنه وضع في الفهرس بين كتب « السِّيَر وقصص الأنبياء » . وكذا كتاب «أُسْد الغابة» الذي ينبغي أن يجعل ضمن كتب التاريخ والتراجم[3] .

ومن أنواع أخطاء الفهارس نسبة المخطوطات إلى غير مؤلفيها ، مما يكثر وقوعه في فهارس مكتبات إستانبول[4] . ومن أمثلة ذلك أن مخطوطة « غلطات العوام » منسوبة في الفهرس إلى ابن الجوزي ، ولكنه بعد مطالعته إيَّاها تبيَّن له أنها للسيوطي[5] .

ونوع ثالث من أوهام الفهارس التركية مما يشمل عنوان المخطوطة ومؤلفها ،

---

(١) رحلات ، ص ١٧٨ . وانظر أيضاً ص ١٥٤ .

(٢) رحلات ، ص ١٧٨ .

(٣) رحلات ، ص ١٥٥ .

(٤) رحلات ، ص ١٥٥ .

(٥) رحلات ، ص ١٤١ .

كأن يُذكَرَ الاثنان بصورة غير صحيحة . ففي فهرس مكتبة السلطان أحمد الثالث في إستانبول مخطوطة « فتوح اليمن للوزير إبراهيم سنان باشا » . وبعد اطلاع المؤلف عليها تحقق أنها « الفتوحات العثمانية ، للأقطار اليمنية » ، وهي نسخة ثانية من كتاب « البرق اليماني في الفتح العثماني » لقطب الدين النهروالي المكي الحنفي ، المتوفى ٩٨٨ هـ . وهي نسخة نفيسة لأنها كتبت في حياة المؤلف .

ونوع رابع من الأوهام ، وهو المتعلق بالمجاميع ، الذي يضم المجلد منها كتابين أو أكثر . فيكتفي المفهرس بذكر اسم الكتاب الأول ، دون تسجيل عناوين الباقي منها وأسماء مؤلفيها(١) .

وهذا كله يدل على جهل المفهرس جهلاً شديداً بالتراث ، وعلى قلة هذه الفئة من المفهرسين الأكفاء ، وفقداننا لأمثالهم . وأمام قصور هذه الفهارس يحسّ المؤلف أن الباحث يحتاج إلى طول وقت ، وشدة تعمّق ، وصبر وجلد ، وهي أمور – على حدّ تعبيره – لا تتاح لكلٍّ إنسان .

ونعثر في كتابه على إشكالية رابعة من إشكاليات المخطوطات العربية ، وهي تعرضها للتلف من أكل أَرَضة ، وطمس رطوبة ، الأمر الذي يدعو إلى الاهتمام بسرعة الترميم الفني ، والتصوير ، قبل استفحال هذا التلف ، أو قبل السطو عليها . يقول في مخطوطة اطلع عليها : « وقد أفسدت الرطوبة جلّ صفحات القسم الأخير من الكتاب ، بحيث لا يمكن قراءتها بسهولة . وعبثت العثة بورق الكتاب ، فأصبح مهلهلاً ، ثم رُقع جميع الورق بورق شفاف »(٢) .

(١) رحلات ، ص ١٢٩ .

(٢) رحلات ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضاً ص ٢٨٥ .

ويلقى مخطوطة في مكتبة أيا صوفيا بإستانبول ، وهي : تصحيح التصحيف ، وتحرير التحريف ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَدي ، المتوفى ٧٦٤ هـ ، وهي بخطه . وما يلبث أن يضع يده على هذه النسخة النفيسة ، ويستبشر بعلوّ قيمتها ، إلاّ أن تتبدد في نفسه هذه الفرحة منقلبة إلى أسف وحسرة ، لأنه اكتشف أن النسخة قد سطت عليها يدٌ أثيمة ، فنزعت أكثرها ، بحيث لم يبق من الكتاب إلاّ من حرف الألف إلى نهاية حرف الزاي ، في تسعين ورقة[(١)] .

والمؤلف بدرايته الفذّة بالمخطوطات العربية ، وبسعة خبرته حولها ، يفتح عيون الخريجين من الشباب العرب الذين لديهم استعداد للتوجه إلى التراث ، والنظر في المخطوطات اختياراً وتحقيقًا ودرسًا ، إلى مسائل لا يعرفها المبتدئ في هذا الميدان ، وبهذا يعلّمهم دروسًا نافعة فيه . ومن الدروس الأولى اهتمامه بالنُّسَخ الأُم النفيسة ، وبرصد السماعات على العلماء ، وذكر التملكات والخطوط المسجلة على المخطوطة من قِبَل علماء معروفين[(٢)] . ويتعقب في النسخ المخطوطة النسّاخين العلماء ، ويهتم بجمع تراجمهم وتنقلاتهم من أجل العلم إلى دمشق، ثم إلى مصر وغيرها ، ويذكر مؤلفاتهم[(٣)] .

ويعرّفنا بالمجاميع من المخطوطات ، وهي التي تحتوي على أكثر من مخطوطة أو رسالة . ويلتقط بحسّه التراثي العالي ، النفيسَ منها . يطلع في الخزانة العامة بالرباط على مخطوطة « الرحلة إلى بيت الله الحرام » لأبي مَدْيَن بن أحمد الدرعي ، المتوفى ١١٥٧ هـ . وهي ضمن مجموعة . وقد كتبت قبل وفاة

(١) رحلات ، ص ١٤١ .

(٢) رحلات ، ص ١٥٩ ، ١٦٢ ، ٣٣٤ .

(٣) رحلات ، ص ٢٤٨ .

مؤلفها بعام واحد[١]. ويصور من مكتبة الجزائر الوطنية رسالة بعنوان : حكم قناديل المدينة ، للفيروزآبادي ، وهي مكتوبة سنة ٨١٦ هـ ، أي بعد وفاة مؤلفها بثلاث سنوات[٢]. وبهذا ينبه إلى أهمية المجاميع والتنقيب فيها مخطوطة مخطوطة، ورسالة رسالة .

ويعرّفنا أيضًا بأهمية نسخة المؤلف المهداة إلى سلطان أو وزير ، أو غيرهما . وقريب من هذا الباب يعرّفنا ببعض مصطلحات التراث كمصطلح النسخة الخزائنية التي كتبت برسم خزانة ملك أو أمير ، فتزيَّن طُرَّتها ، وتزخرف وتزوّق ، ويكتب فيها اسم مَن كتبت النسخة له . وكان قد اطلع على نسخة خزائنية من كتاب « الممالك والمسالك » ، لأبي عبيد البكري ، كتبت برسم أحد أمراء المماليك في مصر[٣].

ويولي عنايته بفروق النسخ حيث تكون هذه الفروق في المادة نقصاً أو تماماً. يقارن في هذه الحالة بين نسخة وأخرى في بلد آخر كان قد رآها وسجّل ملاحظاته عليها . والعجيب أن ذاكرته تتسع لكثير من هذه الفروق فيستطيع أن يقرر أن نسخة مكتبة كذا هي من أجود نسخ الكتاب[٤]. نراه يكشف في الخزانة العامة بالرباط عن نسخة نادرة من « الحماسة » ، للأعلم الشَّنْتَمَري ، فيطالعها ويقارن بينها وبين نسخة المكتبة الوطنية في تونس ، ويربط بينهما بعد أن يقوم

---

(١) رحلات ، ص ٧٨ .

(٢) رحلات ، ص ٢٠ .

(٣) رحلات ، ص ١٨٨ ، وانظر ص ١٣١ .

(٤) رحلات ، ص ١٦١ .

بوصف النسختين[1] . والأعجب من هذا قوة ذاكرته وكثرة محفوظه ، فما إن يسمع من عالم عن نسخة من مخطوطة لابن خَلْدون من كتاب « العبر » فيها زيادات على المطبوعة تتعلق بتاريخ البربر ، حتى يذكر له فائدة عظيمة ، وهي أن نسخة من الكتاب محفوظة في مدينة صوفيا (بلغاريا) تحتوي على بضعة عشر فصلاً ليست في المطبوعة[2] .

وتطول خبرة المؤلف ، وتتسع دائرة معارفه في التراث اتساعًا عظيمًا ، فنرى منه عجباً حين ينقِّب في مخطوطة ، فيكشف عن جديدها ، أو يعرف مكنونها ، أو يصحح خطأها دون الرجوع إلى مصدر من المصادر . ولا شك في أن مثل هذه الثمار ، هي حصاد سنين من القراءة والاطلاع والدرس . وينفع هذا كدرس خصوصي مجاني للناشئة ليتحققوا من صحة المثل القائل : مثلما يزرعون يحصدون .

ويشيع في الكتاب أمثلة كثيرة من هذا القبيل يتضح فيها أن مغاليق المخطوطات قد فتحت لهذا العالِم . ونجتزئ هنا ببعض الأمثلة . يطلع على مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية العامة في تونس ، موسومة بـ « التحرير فيما وقع بين الفرزدق وجرير » . فيكشف عن أنه كتاب « النقائض » لأبي عُبيدة مَعْمَر بن المُثنّى . وجاء أحدهم واختصره وجرّده وسمّاه بهذا الاسم الآنف الذكر[3] .

---

(١) رحلات ، ص ٧٤ ، ١٠٣ – ١٠٥ .

(٢) رحلات ، ص ٣١٤ .

(٣) رحلات ، ص ١١٣/١١٤ .

ويستطيع أن يصحح أسماء مؤلفات مثبتة على المخطوطات خطأ ، فكتاب «اقتضا الوفا بأخبار دار المصطفى » ، يصححه باسم : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، وهو كتاب للسمهودي[1] . ويصحح أسماء مؤلفين أيضًا ، ففي مخطوطة محفوظة في مكتبة أيا صوفيا في إستانبول مثبت عليها اسم « جمال الدين أبو أحمد يعقوب بن أبي بكر الطبراني » ، فيصوبه بالطبري[2] . وتسوقه المعرفة إلى ملاحظات دقيقة واجتهادات متميِّزة . يقول بعد الاطلاع على مخطوطة : « ويظهر أن الناسخ يمني ، فهو يُعنى بضبط بعض أسماء البلدان اليمنية »[3] .

ومن دروسه التي لا تتوفر إلاّ لمن طالت خبرته وعظمت معرفته ، درايته بحيل الورّاقين وتزويرهم . نراه في كتابه بصيراً بهذه الحيل دون أن تنطلي عليه . اطلع على مخطوطة وقد كُتب في طُرّتها أنها نقلت من المسودة قبل تحريرها وترتيبها... كتبها مؤلفها . ويدقق في العبارة ويلاحظ أن عابثًا كشط كلمة «قبل » كشطاً خفيفًا ، وكتب مكانها « بعد » ليبرز هذا العابث الذي فعل هذه الفعلة أن نسخته تتصف بالكمال والندرة[4] . وفي مخطوطة أخرى ناقصة ، يطلع عليها، تعبث بها يدُ عابث فتضيف نحو سطر بكتابة حديثة ، لتبدو النسخة كأنها كاملة[5] .

على أن الدرس الأكبر الذي يوجهه للناشئة من الشباب المتحمس لاقتحام

(١) رحلات ، ص ٧٩ .

(٢) رحلات ، ص ١٤٨/١٤٩ .

(٣) رحلات ، ص ١٨٨ .

(٤) رحلات ، ص ١٧٣ .

(٥) رحلات ، ص ١٥٢ .

ميدان التراث العربي ، ألاّ ينظروا إليه – بإزاء حماستهم له – بعين التقديس المطلق ، بعيداً عن النقد أو التصفية . فالمؤلف برغم ما نرى فيه من شغف كبير بالتراث ، وتقدير عظيم له ، تلقاه غير متوانٍ عمّا فيه من خرافات لا يصدقها ذو عقل . فهو ينفي قبول ما قرأه في كتاب « الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحرا » ، للزياني ، المتوفى ١٢٤٩ هـ ، من خرافات كثيرة ، منها أن « الكُسْكُس » ، وهي من المأكولات المغربية الشعبية ، اخترعه طبيب الجان لنبيّ الله سليمان ، لمّا حصل له السهر والأرق ، فصنعه له ، ولما أكله نام[1] . والعجيب أن هذا الكتاب من الكتب التي لها قيمتها في المغرب ، وقد نشرته وزارة الأنباء في منشورات « لجنة إحياء التراث القومي » .

وكذلك حين يطالع مخطوطات في خواص الأحجار والمعادن يراها تعجّ بالتخريف . وهذه المؤلفات على قلتها بين كتب التراث العربي ، حشيت بالخرافات ، لا يُستثنى منها – في رأيه – إلا بعض مخطوطات البيروني والهَمْداني وابن ساعدة الأنصاري . وضرب من الأمثلة على ما استنكره من تخريف هذه الكتب نصّاً نقله إلينا ، يقول فيه : «باب حجر فيلقوس : هو كثير التلون ، ويلمع بالليل كالمرآة ، ما كان بموضع إلاّ هرب منه الجن والوحش ، وسائر الهوام »[2] .

ويطلع على مخطوطة في مكتبة علي أميري بإستانبول ، المحفوظة فيها برقم ٢٥٢٨ ، وهي « نسيم الصّبا ، ونديم الصّبا » ، لإبراهيم بن يوسف المهتار ، من شعراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري ، ويقرأ فيه ، في الورقة الحادية عشرة

---

(١) رحلات ، ص ٨٩ . ونص الزياني من كتابه في ص ٢٨٠ .

(٢) رحلات ، ص ١٨٨ .

منها قصيدة فرج بن سعد الطائي التي خاطب بها الجنّ ، بعد أن طرقته ليلاً ، فسألته عن شيء من غريب اللغة ، بشعر قالوه ، فأجاب على كل بيت بمثله . فلا يتردد الشيخ المؤلف بحكمه العادل ، أن « هذا من خزعبلات العرب »[1] .

ولا شك في أن مثل هذا الفكر المستنير يجعلنا نعتقد أن المؤلف لا يعدّ التراثَ ذا قدسية مطلقة ، وأنه بمنأى عن النقد . وهي دعوة منه صريحة على أن هذا التراث لا يخلو من شوائب ، لابدّ من تصفيته منها ، وإقصائها عنه .

وكان يقف في مكتبة من المكتبات على مئات منها ، فلا يطلب الاطلاع عليها كلها ، لا لضيق الوقت فحسب ، بل كان بعينه الباصرة يترك ما ليس فيه كبير فائدة ، ويتوجّه إلى النوادر منها[2] . وواضح من كتابه أنه كان يتوجّه بالاهتمام من حيث الموضوعات إلى المخطوطات التي تتعلق بتاريخ العرب وأنسابهم وجغرافية بلادهم[3] . ويتوجّه بصفةٍ خاصة إلى تاريخ الحجاز وجغرافيته[4] . ومن هنا كان ينفذ باهتمامه إلى المخطوطات التي تذكر طريق الحج، لأنها عنده جديرة بالدراسة ، لا لصلتها بالمشاعر المقدسة فحسب ، بل لتعلقها بجغرافية بلاده وتاريخها ، ولحاجة بعضها إلى التصحيح والتحقيق[5] .

ولهذه الأسباب والتوجّهات اهتم بمخطوطات الرحلات المغربية التي تتعلق بالحج ، وبالحجاز على وجه الخصوص . وقد وجدها وفيرة في مكتبات المغرب الأقصى ، لأن علماء المغرب بزّوا المشارقة في هذا الفن . وكان حريصًا على أن

---

(١) رحلات ، ص ١٤٦ .

(٢) رحلات ، ص ٢٩٢ ، وانظر ص ١٣٣ .

(٣) رحلات ، ص ٧٩ ، ٢٢٠ .

(٤) رحلات ، ص ٢٦٤ .

(٥) رحلات ، ص ١٦٨ .

يصوّر منها كلما تيسّر له ذلك ، أو يسجّل فوائدها عنده على أقل تقدير[١] . وقد اتصل اهتمامه بتاريخ جزيرة العرب وبالرحلات إليها ، أن اهتم بالحصول على بعض المؤلفات المتأخرة المطبوعة المتعلقة بهما . فيستقصي ، وهو في باريس ، عن هذه المطبوعات ، خاصةً رحلة شارل هوبر والكتاب المتعلق بآثار الحجر[٢] . وفي لندن يهتم بمؤلفات فلبي ، ورحلَتَيْ دوتي Doughty وبركهارت Purkhardt[٣] .

ولم يهمل شعر العرب ، فكان يطلب للاطلاع والاختيار والتصوير دواوين الشعراء من النسخ النادرة ، أو الدواوين غير المتداولة ، أو للمغمورين منهم ، كالذي وجده من نسخة ديوان ابن الحكاك ، الشاعر المكي المغمور[٤] .

ومن المدهش حقّا أن يزوِّد المؤلفُ القارئَ بمعلومات فلكية طيبة . ومهما كانت هذه المعلومات ، فإنها تدل على سَعَة اطلاعه ، وعلى تنوع معارفه[٥] .

والحق أنه في كتابه يكشف لنا بوضوح عن مجمل طريقته ومنهجه في اختيار المخطوطات والموضوعات أمام هذا الكم الهائل منها في المكتبات . يقول : « ومما ينبغي ملاحظته أنني في حديثي عن المكتبات لا أتعرض لوصف ما فيها من نسخ للكتب المشهورة المطبوعة أو المخطوطة ، التي تكثر نسخها في المكتبات الأخرى . ولهذا تقلّ المخطوطات التي أشير إليها أو أصفها . وينصبّ حديثي في

(١) رحلات ، ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) رحلات ، ص ٣١٢ .

(٣) رحلات ، ص ٢٣٣ .

(٤) رحلات ، ص ٣٣٤ .

(٥) رحلات ، ص ٢٩٣ .

كثير من الأحيان على المؤلفات النادرة التي لها صلة بتاريخ بلادنا (جزيرة العرب) ، أو أدبها أو جغرافيتها ، في العهد القديم ، مما هو غير معروف »[1] .

وطبيعي أن نجده على اهتمام بما يُعَدّ من مكملات موضوع المخطوطات العربية ، وهو حرصه على اقتناء كتب التراث المطبوعة ، والعناية بمراكز الدراسات العلمية واللغوية والجامعات المعنية بالتراث نصاً ودرساً ، وما تُصدره من مجلات وبحوث ودراسات . ويحرص على زيارتها ، ويذكر سنة تأسيسها وتطوّرها. ومما زاره - على سبيل المثال - المركز الإسلامي الثقافي في مدريد ، ويسأل عن منشوراته وبحوثه ومجلته الأكاديمية[2] .

(٢)

الاستشراق والمستشرقون :

وحين نخرج من دائرة المخطوطات العربية الواسعة ، نراه يدخل في دائرة أصغر ذات علاقة وثيقة بالتراث العربي وتحقيقه ، وهي دائرة المستشرقين . فقد كان لهذا العالم صلة ببعضهم ، وله رأي سديد في غاياتهم وأعمالهم ، ودورهم في خدمة التراث وتحقيقه ودراسته ، وما وقعوا فيه من أخطاء .

وكان حريصاً على أن يزور مراكز الاستشراق والجامعات والمعاهد التي تعنى بنشر النصوص العربية والدراسات حولها . فحين يصل إلى هولندا يسارع إلى

---

(١) رحلات ، ص ١٤٨ .

(٢) رحلات ، ص ٣٤٥ .

زيارة مدينة ليّدن ، لأنها من أهم مراكز الاستشراق في أُوروبا . ففيها مطبعة بريل ومكتبتها التي تعدّ أكبر مطبعة أصدرت ، ومازالت، تصدر نوادر كتب التراث العربي . ومن أهم ما أخرجته « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث » ، و « دائرة المعارف الإسلامية »[1] .

ويزور معهد الشرق للدراسات الإسلامية والعربية في روما ، ومكتبة المجمع العلمي الإيطالي ، ومؤسسة المستشرق الإيطالي الأمير كَايْتَانِي للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته ، الواقعة في داخل المكتبة[2] .

كما كان حريصًا على أن يلتقي بالمستشرقين في بلادهم ، أو في مؤتمراتهم ، كالمؤتمر الذي عقد في جامعة السوربون في صيف عام ١٩٧٣م[3] .

وممن التقى بهم في مدينة ليّدن المستشرق الهولندي بروخمن الذي يجيد اللغة العربية، وألّف كتاباً عن « الشريعة الإسلامية في مصر الحاضرة » . وتحدث الشيخ حمد معه عن العرب وآثارهم ، وعن الاستشراق والمستشرقين في هولندا .

وقد زار بصحبة بروخمن بيت المستشرق الهولندي المعروف سنوك هر غرونيه، الذي أُضيف منزله إلى جامعة ليّدن ، وأصبح تابعًا لقسم الدراسات الشرقية . وكان سنوك قد أتى إلى مكة متنكراً في زيّ حاج وتسمّى باسم « عبد الغفار » ، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . وأقام في مكة خمسة أشهر ونصفًا ،

---

(١) رحلات ، ص ٢١١ ، وانظر ص ٣٨ .

(٢) رحلات ، ص ٢٧٢ ، ٢٨٤ .

(٣) رحلات ، ص ٢٩٦ .

وألّف عن تاريخها وعادات أهلها وجغرافيتها كتاباً له شهرة كبيرة عند المستشرقين[١] .

وممن التقى بهم في إيطاليا ، في أواخر عام ١٩٦٠ م[٢] ليفي دِلا ڤيدا الذي يلقبه بشيخ المستشرقين في بلاده . وكان عمره آنذاك يقارب الثمانين عامًا بحساب السنين القمرية . وبيّن المؤلف بهذه المناسبة شيئًا من إنتاجه ودراساته . والتقى في روما بالمستشرق غِبْرِيِلّي وهو شيخ في سنّ الخامسة والستين[٣] .

ولقي أيضًا ماريا نالّينو الإيطالية ، وهي ابنة المستشرق المعروف كارلو نالّينو . ولها دراسات عربية ، وهي التي جمعت شعر النابغة الجعدي ونشرته مع دراسة وتعليقات عليه[٤] . وجيوفياني أومان المشتغل بتحقيق كتاب الإدريسي في الجغرافيا ، ولورا فيشيا فاغليري[٥] . وكان في حديثه معهم جميعًا يدل على عالِم ذي باعٍ طويل في تتبع إنتاجهم ، ودراية عميقة بمؤلفات العرب ومخطوطاتهم وتراثهم[٦] .

ويشيد بأخلاق بعض المستشرقين وتقبلهم للنقد والانتفاع به بصدر رحب ، وهو مدعاة عندهم للتواصل والتوادّ ، بينما لا يحتمل بعض علماء العرب نقد أعمالهم ، وتكون عندهم مدعاة للكراهية والعداوة . يقول إن المستشرق الألماني

---

(١) رحلات ، ص ٢١١ .

(٢) رحلات ، ص ٢٧٣ .

(٣) رحلات ، ص ٢٨٣ .

(٤) رحلات ، ص ٢٧٢ .

(٥) رحلات ، ص ٢٨٥ .

(٦) رحلات ، ص ٢٧٥ .

رودلف زلهايم حين حقق كتاب « نور القبس »[1] جرى التعارف بينهما بعد أن نشر المؤلف كلمة عن ذلك العمل في مجلته التراثية « العرب » أوضح فيها ملاحظات تتعلق بالكتاب ، فكان هذا سبب التعارف والتواصل بينهما ؛ بينما كانت كتاباته – على حدّ قوله – عن بعض المطبوعات التي يقوم بها بعض الأساتذة والإخوان من العرب سبباً للقطيعة ومدعاة للوقيعة أيضاً[2] .

وبإزاء أخلاق المستشرقين الحميدة التي تتقبل النقد وتنتفع به وتقدّره ، أشاد بما لبعض فضلائهم من آثار معروفة نافعة في مجال التراث ، من أبرزها توجيه الدراسات التاريخية والأدبية واللغوية توجيهاً جديداً ، أمدت الثقافة العربية بحيوية وثروة ، واتخاذ طريقة جديدة في إحياء التراث العربي تسهّل للباحث الاستفادة منه بأسهل الطرق ، والاهتمام بصنع فهارس شاملة للمخطوطات العربية في مكتبات بلاد الغرب ، ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات ، وعناية كثيرين منهم بدراسة تاريخ العرب من خلال آثارهم ، والتنقيب عنها ، ورحلاتهم في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية وغيرها .

غير أنه ينبّه إلى إن الدافع لكل ما تقدم لا يخفى على أحد . لقد كانت هذه الوسائل ، في أول الأمر ، بهدف السيطرة على الشعوب بأي نوع من أنواع السيطرة ، سياسية أو فكرية أو دينية . ثم اتجه بعض أولئك المستشرقين – وقليل ما هم – وجهة أخرى هي الوجهة العلمية الخالصة ، بعد أن تطورت الحياة وتغيرت أساليبها ، وانتفضت الشعوب انتفاضة القوة والعلم . ووجد بين العرب

---

(١) نور القبس المختصر من المقتبس ، للمرزباني – اختصار الحافظ اليغموري – ط . فيسبادن ، ١٩٦٤ م .

(٢) رحلات ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

أنفسهم من العلماء من لا يقل معرفة وسعة اطلاع عن كبار أولئك العلماء منهم ، بل يفوقهم بفهمه لكثير من أحوال أمته . ومن هنا يصحّ القول – عنده– بأن دور المستشرقين قد انتهى ، ولا يعني هذا إنكار ما لفضلائهم من الفضل وسعة العلم والتجرد من كلّ غاية تنحرف عنه[1] .

وبجانب هذا التحذير حول نشأة الاستشراق ، فإنه لا يغْفَلُ أيضًا عن سلبيات بعض هؤلاء المستشرقين ، فهو ينقد بحوث مؤتمرهم الذي عقد في باريس في صيف عام ١٩٧٣ م ، ويصفها بالضعف عامةً. كما يبدي استغرابه من شدة عناية بعضهم بدراسة اللهجات العربية ، وتوجيه بعض طلابهم من العرب لدراسة هذه اللهجات . ويظن أن مثل هذا التوجه ليس للفائدة التي يمكن أن تتحقق من دراسة اللهجات من الناحية اللغوية الصرفة . ويقيم الدليل على هذا الشك بأنهم يطلقون على بعض لهجات الشعوب التي تجمعها لغة واحدة ، لغة بدلاً من لهجة ، فيقولون – مثلاً – اللغة المصرية ، والحقيقة أنها لهجة ، وليست لغة[2] .

وتعقّب أخطاء المستشرقين في ما صنعوا من فهارس المخطوطات العربية ، والتي يقول إننا نأخذها عنهم دون تمحيص وتدقيق ، ويضرب على ذلك بعضَ الأمثلة[3] .

(٣)

الآثار والحركة الثقافية :

وإذا خرجنا من دائرة علاقة المؤلف بالمستشرقين وتقييمه لإنجازاتهم في

(١) رحلات ، ص ٣١٧ – ٣١٨ .

(٢) رحلات ، ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٣) رحلات ، ص ٢٢١ .

التـراث ، دخلنا في دائرة أصـغـر ، وهي دائرة الآثار . ولـم يكن هذا في الغـالب هدفه ، بل كان يتوجه إليها إذا ما أحسَّ في رحلة من رحلاته أنه يملك وقتًا فارغًا ، أو لا يُمَكَّن من الاطلاع على المخطوطات ويصـوِّر منهـا . يذهب لزيارة بعض معالم باريس الأثرية حين يخفق في تصوير المخطوطات من المكتبة الوطنية فيها ، لكثرة طلبات التصوير من أساتذة الجامعات وغيرهم[1] . ويزور الأمـاكن الأثرية في داخل دير الإسكوريال في إسبـانيا حين يذهب مرة متـأخـراً فيلقى المكتبة مغلقة[2] . ويزور متحف الأمة في برلين الشرقية ، ويشاهد فيه آثاراً شرقية قديمة[3] .

وفي طليطلة بعد أن يصف موقعها وجمالها ، يشاهد قصرها الأثري العظيم، ثم متحفها ، وبعض آثارها الأخرى ، ويتفحص نقوش أبنيتها التي كتبت بخط كوفي وغيره من الخطوط . ويزور مسجداً من مساجدها القديمة ، ويفصِّل في وصفه[4] .

ويهـتم بآثار إستـانبـول من قصـور ومتـاحف . ويشـاهد فيـهـا آثاراً من عـهـد الأمويين والقرن الثاني الهجري . ويمرّ بمساجدها المشهورة الكثيرة ، ويَلْفِت نظرَه بناؤها وعمرانها وفنيتها وزخرفتها وخطوطها من الداخل .

وفي مدينة مراكش يزور مسجدَها العظيم ، الكتبية[5] ، وقصرَ البَدِيع من آثار

---

(١) رحلات ، ص ٣٢٣ .
(٢) رحلات ، ص ٣٢٥ .
(٣) رحلات ، ص ٢٦٦ .
(٤) رحلات ، ص ٣٢٦ .
(٥) رحلات ، ص ٩٨ .

دولة السعديين ، التي حكمت مراكش حقبة من الزمن ، ولا يهتم بقبور السلاطين ، ولا يعبأ بزيارتها . ويسأل عن قبر القاضي عياض (المتوفى ٥٤٤هـ) ، وهو من علماء المغاربة المرموقين ، فلا يعرفه مرافقه[١] . وملاحظتنا العامة على رؤيته هذه الآثار ، وعلى ما كان يشاهد من مبانٍ في أقطار المغرب العربي ، قديمها وحديثها ؛ أنه كان دقيقَ النظر ، دقيق الملاحظة فيما يرى ويشاهد ، وكأنه اكتسب هذه الصفة من همّه الأول ، وهو التدقيق في المخطوطات كشفاً واطلاعاً ووصفاً وتحقيقاً ودرساً .

ولم يهمل المؤلف في رحلاته الحركة الثقافية في بعض بلاد العرب ، خاصةً أقطار المغرب العربي ، فهو يقرر أن الصلة الثقافية بينها وبين المشرق العربي صلة واهنة ، بل معدومة ، بسبب الحدود بينهما . وكثير من القيود والتعقيدات والأحوال السياسية ، الأمر الذي جعل الفكر العربي في دائرة ضيّقة ، والنشاط الثقافي بينهما مقطوعاً .

ويذكر في هذا المجال المؤسسات الثقافية ومدى نشاطها في نشر الكتب العربية[٢] . ويشير إلى المجلات الثقافية والصحف التي تصدر عن تلك الأقطار ، ويعلق على بعض مقالات تلك المجلات ، ويتابع تطور الفنون الأدبية كالقصّة والمقال الأدبي[٣] .

(٤)
المجتمع الأوروبي والعربي :

ولا نعدم في هذه الرحلات ، برغم بعدها عن هدفه الأول ، إعجابه بمظاهر

(١) رحلات ، ص ٩٣ .

(٢) انظر، على سبيل المثال، ما ذكره من مؤسسات المغرب الأقصى ، في رحلات، ص ٤٤ – ٥١.

(٣) رحلات ، ص ٣٣ وما بعدها .

التقدم الحضاري في أُوروبا وغيرها ، وما شاهده فيها من أنظمة وإنجازات إدارية ناجحة . مع ما نجده من نظرات ثاقبة ، ونقدات صائبة في صميم حياتهم الاجتماعية . يدخل مدينة فرانكفورت (ألمانيا) لأول مرة فيندهش ويقول : «أبرز مظهر لفت نظري في هذه المدينة محطة سكة الحديد التي يتفرع منها عشرات الخطوط الحديدية ، والحركة الهائلة في تلك المحطة»[1] .

وفي إستانبول يُعجب بشباب تركيا المنهمك بالقراءَة والدرس . فقلَّ ما كان يزور مكتبة فيها إلاّ يجد الأمكنة المخصصة للمطالعة مزدحمة بالشباب من فتيان وفتيات ، يُشَاهَدون منهمكين في المطالعة أو النَّسْخ[2] .

ولكنه لم ينبهر ، ولم يعشَ بصره بهذا التقدم الأُوروبِي ، فيرصد بعضَ سلبيات حياتهم مما لا يرضى عنه . فهو في الوقت الذي يعجَب بالتقدم في ألمانيا ينقد الحياة السياسية فيها ، ويؤاخذهم لعلاقتهم بإسرائيل ، وما دفعوه لها من تعويضات[3] .

ويتغلغل في عادات الأُوروبيين في بلادهم ، ويبدي رأيًا مخالفًا فيما يقال عن حسن معاملتهم وأمانتهم ونظافتهم . ويضرب الأمثلة من مدينة لَيْدن بهولندا[4] ، ومن سكان باريس ولندن من طبقات الشعب ، ومن حياتهم العامة . يشكو من زيادة الحساب في مطعم ، ومن قلة النظافة في مطعم آخر . ويشاهد

---

(١) رحلات ، ص ٢٥٨ .

(٢) رحلات ، ص ١٣٦ .

(٣) رحلات ، ص ٢٦٠ .

(٤) رحلات ، ص ٢١٦ .

فأرة على مقربة من سور حديقة صغيرة تقفز أمام ابنته ، مع كثرة القطط والكلاب . ولا يعجبه من عاداتهم ما كان يراه في الصباح الباكر من قيادتهم لكلابهم يطلقونها في الشوارع تفعل ما تشاء[1] .

ويكشف عن رأيه هذا بصراحة ، يقول : « وليس صحيحًا ما يقال عن نزاهة الأُوروبيين وغيرهم ، ولا عن حسن معاملاتهم على الإطلاق »[2] . ويكرر هذا الرأي بقوله : « توهمت – وخطأ ما توهمته – أن ما يقال عن نزاهة الغربيين في معاملاتهم كان حقًا »[3] . والحق أنه لا يخصّ الأُوروبيين دائمًا بهذه الصفات ، وإنما يعيدها إلى طبيعة الإنسان حيث كان ، يقول : « فالمرء لا يعدم في أية بقعة من بقاع الأرض ، مَن يحاول خديعته وغشّه »[4] .

وكانت بعض هذه المشاهد والنقدات في المجتمع الأُوروبي وغيره ، تعيده إلى واقع بلاده العربية ليقارن فيها أوضاعاً بأوضاع . ويسجّل ما في أقطار العرب من سوء الإدارة ، وسوء المعاملة والخدمات لمواطنيها وزوّارها ، وقلة الأمانة وطلب الهدايا والرِّشوة . ويحزّ في نفسه ما وَجَد عليه شباب العرب من ظروف سيئة . ويلاحظ كثرة المقاهي في الأقطار العربية ، وازدحامها بروّادها من الشباب العاطل عن العمل[5] .

---

(١) رحلات ، ص ٢٩٣ .

(٢) رحلات ، ص ٣٢٣ .

(٣) رحلات ، ص ٣٢١ .

(٤) رحلات ، ص ٣٢٣ .

(٥) رحلات ، ص ٢١ ، ٤١ ، ٢٩٨ .

(٥)

آراؤه وطباعه :

ونعلم من الكتاب بعض آرائه ومعتقداته في مسائل دينية ، وإقباله على العلم، وخدمة أصدقائه في سبيله ، وتعليقات علمية في اللغة والأنساب والجغرافيا لا تخلو من فوائد .

ويدهشنا ما له من أفكار متقدمة ، وآراء جريئة . وهو إيمانه بأن يتجه رسم الكلمة العربية عند كتابتها على نحو ما نقرأها . ويدعم رأيه هذا بما وجده في نصوص العلماء المتقدمين من أقوال تدل على كتابة الكلمة كما تُقرأ ، فالقواعد الإملائية – هذه – وسيلة لصحة القراءة ، وليست غاية[1] .

وقد أخذ يطبق هذا الرأي في كتابته بجرأة واقتدار . فهو يكتب اسمَيْ ابنتيه سَلْوَا ومُنَا ، وكذلك الاسم يَحْيا ، بألفات ممدودة ، مع علمه بالقاعدة السائدة التي ترسمها بألفات مقصورة ، ولكنه يؤثر كتابتها كما ننطقها ، رفعًا للخطأ ، ودفعًا للَّبس عند قراءتها . ويشيع هذا التطبيق العملي لقاعدته بهذه الصور الجديدة في أكثر من موضع من كتابه[2] . ولا شك في أنه لو أخذنا بهذه القاعدة على إطلاقها لحللنا كثيراً من صعوبات الكتابة العربية ، وسهّلنا الأمر على أطفالنا وناشئتنا على وجه الخصوص .

والعجيب أننا نجد المؤلف في كتابه – وهو صاحب هذا الرأي الأصيل –

---

(١) رحلات ، ص ٢٣١ .

(٢) انظر رحلات ، ص ٢٣١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ . ويُذكَر أنه بقي على هذا الرأي إلى يومنا هذا ، بل وسَّع تطبيقه وأمثلته وشواهده في مجلته الغرَّاء « العرب » . انظر المجلة ، العدد ٣، ٤ (معًا)، رمضان – شوال ١٤١٦هـ / شباط – آذار ١٩٩٦م ، ص ٢٦٣ وما بعدها .

حين ينقل نصاً من نصوص المخطوطات يرسم بعض كلماتها برسمها القديم على نحو ما يجد صورتها الإملائية في النص . وردَ مثل هذا في أكثر من موضع من الكتاب مثل كلمة إسماعيل التي يرسمها بدون ألف بعد الميم[1] . والمؤلف سيّد مَن يعلم أن من أُسس قواعد تحقيق النصوص أن تُكتب الهيئة الإملائية لكلمات النص بصورتها الحديثة على نحو ما نكتب في الوقت الحاضر . ولا تختلف مناهج التحقيق الحديثة ، مهما تنوعت ، في هذه القاعدة . ولا نجد مَن يتشدّد بالرسم القديم إلاّ حين يَكتب الآيات القرآنية . كما لا نجد فائدة تذكر في إبقاء النصّ على رسمه الأول ، خاصة لو وضعنا نصب أعيننا التوجّه إلى مطابقة الكتابة باللفظ ، آخذين بقول المؤلف إن القواعد الإملائية وسيلة لصحة القراءَة وليست غاية .

وله رأي موفّق في التصوف المنحرف ، والذي هو أقرب إلى الخمول منه إلى الحياة ، ويهاجم زوايا الذِّكْر . فالمؤلف ، بجانب أنه رجل دين وعلم ، رجل دنيا وعمل . يؤمن بقوة الأُمة في كلِّ زمان حتى تستطيع أن تشق طريقها في حياة مِلْؤُها التقدم بالعلم والعمل ، بعيداً عن الخرافات .

في معرض حديثه عن القرن الحادي عشر الهجري في الوطن العربي ، الذي عَمَّـهُ الركود الفكري آنذاك ، يعيد سبب ذلك إلى شيوع ظاهرة التصوف ، التي هي – في رأيه – ظاهرة أقرب إلى الخمول منها إلى الحياة[2] . وفي تضاعيف

(١) رحلات ، ص ٢٤ .

(٢) رحلات ، ص ٥٣ .

تعليقاته على النشاط الثقافي في بعض البلدان العربية ، ينقد تصوف ابن عربي ، لأنه يدعو للخنوع والاستكانة ، ويقارنه بشيخ الإسلام ابن تيمية – وهو عدو التصوف المنحرف – الذي كان يدعو للقوة . وينهي تعليقه هذا برأي سديد ، بقوله : « وما أحوجنا إلى القوة في كلّ زمان »(١) .

ولا شك في أن الشيخ حمد متأثر بتوجّه ابن تيمية ، المتوفى ٧٢٨ هـ ؛ وتلميذه ابن قيِّم الجوزية ، المتوفى ٧٥١ هـ ، في موقفهما الشديد من الصوفية المنحرفين عن جادة الإسلام الصحيح ، والبعيد عن منهج القرآن الكريم(٢) . وطبيعي أن يحمل المؤلف – وهذا رأيه – على زوايا الذِّكْر مما له صلة بالتصوف، يقول : « وزوايا الذِّكْر أفضل منها المساجد التي أَذِن الله أن تُرفعَ ويُذكَر فيها اسمه»(٣) . ومن هذا القبيل نعرف رأيه في إقامة المساجد على القبور ، والبناء عليها وتزويقها وزخرفتها والكتابة عليها ، كلها من الأمور المحرّمة . ويَذكر هذا في أكثر من موضع(٤) .

وكان محبا للعلم ، والحديث في موضوعاته . وكان ينغمس في حديثه مع العلماء ويستمتع به ، وينسيه هذا صخب الحياة في المدن الأوروبية الكبرى . فينعم مع عالمين عربيين التقى بهما بحديث مطوّل في أغوار التاريخ . ويمضي – كما يقول – سويعات سعيدة بهذا الحديث بعيداً عن مباهج باريس ومفاتن

---

(١) رحلات ، ص ٥٥ .

(٢) مدارج السالكين ، لابن قَيِّم الجوزية ، ٧/١ ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

(٣) رحلات ، ص ٧٥ . وعبارته إشارة إلى الآية ٣٦ من سورة النُّور .

(٤) رحلات ، ص ٩٢ ، ١١٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

الحياة فيها[(١)] . وفي تونس يلتقي بالأصدقاء من المشتغلين بالتراث فتنحصر أحاديثه معهم فيه ، وفيما يتصل به ؛ ويسترسل استرسالاً يجعله لا يشعر بمرور الوقت حتى ينتصف الليل[(٢)] . وكان بجانب ذلك متواضعاً تواضع العلماء ، لا يأنف – وهو العالِم – أن يسأل علماء البلاد التي يزورها عن فائدة يفيد منها ، أو عن نسخ مخطوطة ، أو عن نسبتها لمؤلفيها[(٣)] .

ومن باب حبه للعلم ، وحديثه عنه ، اهتم بالغ الاهتمام بأصدقائه وتلاميذه من المشتغلين بالتراث ، وكان وفيّا لهم ، كريماً معهم و في فكره دائمًا أخبارهم العلمية وما يحتاجون إليه من نسخ المخطوطات . وكان في تجواله للبحث عنها يصوِّر ما يحتاجه ذلك الصديق ، أو أحد التلاميذ ، دون أن يكون قد طلبه منه ، ويهديه المصوَّرة دون مقابل . أو كان – على أقل تقدير – يكتب إلى الصديق أو التلميذ بفائدة وجدها ، وهو يعلم أنها تهمّه ، أو يبعث إليه بخبر عن نسخة عثر عليها ، أو ملاحظة يفيد منها[(٤)] .

ويذهب كرمه العلمي ، ورغبته الجامحة في خدمة العلم إلى أبعد من هذا ، فيطلع في مكتبة أيا صوفيا بإستانبول على مخطوطة « العلل ومعرفة الرجال » للإمام أحمد بن حنبل . وكان الجزء الأول منه قد صدر في أنقرة محققًا عن هذه النسخة الوحيدة . ولاحظ أن صعوبة قراءتها قد أوقع المحققَيْن في كثير من التحريف . ويعلم أن من هذا الكتاب قطعة محفوظة في دار الكتب الظاهرية

(١) رحلات ، ص ٣١٩ .

(٢) رحلات ، ص ١٠٦ .

(٣) رحلات ، ص ٢٤٥ .

(٤) انظر رحلات ، ص ٢٦ ، ٩٥ ، ٣٣١

بدمشق ، فيبعث إلى صديقه هناك ليرسل إليه صورتها ، ويقوم هو بدوره فيدفعها إلى المحققّين ليستعينا بها في تقويم معوج الجزء المطبوع(١) .

ونلقى في كتابه تعليقات متناثرة ، وخواطر عابرة مبثوثة تأتي مناسبة لمقتضى الحال . وفي هذه التعليقات فوائد لغوية مما يدخل في علوم اللسانيات ، منها ما يشير إلى نطق بعض الحروف في الأقطار العربية ، ويقارنها بنطقها كما رصدت في كتب التراث(٢) . ومن هذا الباب اللغوي يعجبه استعمال المغاربة لكلمة «الحافلة» ، ويقصدون السيارة الكبيرة لنقل المسافرين ، ويبادر في استخدامها في كتاباته . يقول في هذا الصدد : «وهو اسم عربي اختير ليحل محل كلمة (أوتوبيس) أو (لوري) في بعض البلاد العربية . وليت اسم الحافلة يستبدل بذينك الاسمين ، فهو أجمل منهما وأسهل نطقاً»(٣) .

وفي الكتاب فوائد في الأنساب حول آل الطبري وآل ظهيرة ، وهم من علماء مكة المعروفين . وفوائد جغرافية حين يذكر سوقاً من أسواق مكة ، وحين يسمّي المدن الكبرى بالمغرب الأقصى ، وعدد سكانها(٤) . وفوائد اقتصادية تكشف عن أحوال البلاد في هذا الميدان(٥) .

ويتضح في ثنايا الكتاب ميوله الوطنية وأخلاقه وطباعه ومسلكه مع الناس . كان انتماؤه العربي ظاهراً ، فحين يمرّ به شاب مغربي كان قد تعرّف إليه في

---

(١) رحلات ، ص ١٤٩ .

(٢) رحلات ، ص ٣٠ .

(٣) رحلات ، ص ٨٤ .

(٤) رحلات ، ص ٩٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٥) انظر مثلاً رحلات ، ص ١٢ .

باريس ، يقول : «مرّ بنا أخونا العربي المغربي»[1] ، فهو يحرص على ذكر صفة الشاب المغربيّ العامة ، وهي انتسابه إلى العرب . ويتضح انتماؤه هذا أكثر حين يزور الجزائر ، فيحزن لتغلغل اللغة الفرنسية فيها[2] . ويبتهج حين يراها تسير قدماً نحو عروبتها وإسلامها ، وتبعد عن المظهر الفرنسي ، متجهة إلى المظهر العربي . وينشد أبياتاً يحفظها للإمام المصلح عبد الحميد بن باديس ، يقول فيها[3] :

شَعْبُ الجزائر مسلمٌ ... وإلى العُروبَة يَنْتَسِبْ
مَنْ قال : حاد عَنَ أَصْلِه ... أو قال ذابَ ، فقد كَذَبْ
أو رامَ إدْماجًا لَه ... رامَ المُحَالَ من الطَّلَبْ

ومن طباعه أنه يغلب عليه الانقباض عن الناس ، والرغبة في عدم مخالطتهم . يقول ذلك بنفسه : «يغلب على طبعي الانقباض وعدم الرغبة في مخالطة الناس»[4] . ولهذا اتصف أيضا بخفة الظلّ ، وأبعد ما يكون عن الثقلاء . وكان لا يحب أن يثقل في رحلاته على أحد من معارفه ، فيخفي اسمَ الفندق الذي يقيم فيه ليتجنب إشغاله أو الاستجابة لإكرامه في طعام أو غيره . ولم يكن يستجيب إلاّ عند الضرورة القصوى ، أو للتخلص من عتاب[5] .

ومن صفاته اللازمة له أنه كان فكه الروح ، لا يفقد هذه الروح في أحلك الأوقات وأضيقها . وكان يبتدع صوراً مضحكة ولو كانت على نفسه ، وكأن

(١) رحلات ، ص ٢٩٤ .

(٢) رحلات ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) رحلات ، ص ٢١ .

(٤) رحلات ، ص ٢٥١ .

(٥) رحلات ، ص ٢٩ ، ٦٦ ؛ وانظر أيضاً ص ٣٤٤ .

طبعه الفكه يغلبه فلا يضيع الفرصة لقولها . وتظهر مثل هذه المواقف الساخرة في أكثر من موضع من كتابه ، وكأنها تجيء تخفيفاً لجدية الموضوع الأول فيه، وتحمل كثيراً من معاني شخصيته البسيطة المتواضعة ، البعيدة عن كلّ تعقيد . يقول حين لم يستطع الحصول في لندن بعد مشقة وطول عناء إلاّ على غرفة صغيرة في فندقٍ ، ذات سرير صغير : «فرميتُ بجسمي فوق ذلك السرير القصير، وتقرفصتُ فيه – مع قِصَري –، فاستغرقت في نوم عميق حتى الساعة السابعة[1] » .

ويستعد لحضور مؤتمر المستشرقين في باريس ، في يومه الأول ، فيرتدي حُلّة جديدة ، وكان حذاؤه قديماً ، كالح اللون ، يبدو كجلد الأجرب . يقول في هذه الهيئة المتناقضة : «وكنتُ من تأثير ما أحسست به من عدم التناسق في لباسي أنْ صِرْتُ أُركز نظري في أحذية مَن أُشاهده في الطريق ، لعلّي أرى مَن يماثلني . وكنتُ أتصوّر أن كلّ إنسان يقابلني يفعل فعلي . بلغنا مكان الاجتماع . ولحسن الحظ لم أجد واحداً ينظر إلى وجهي فضلاً عن قدمي ... كل واحد منهم مشغول بشأنه»[2] .

ويرسمه رسّام في مطعم بباريس ، ويهديه الرسم ، فلما رأى صورته تداعى إلى ذهنه قصة الجاحظ والصائغ والشيطان[3] . وفي موقف آخر يستحضر في ذهنه قصة مشهورة لجحا ، وغيرها[4] .

---

(١) رحلات ، ص ٢١٩ .

(٢) رحلات ، ص ٢٩٦ .

(٣) رحلات ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٤) رحلات ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ؛ وانظر ص ٤٠ .

(٦)

أسلوبه وأدبه :

أما أُسلوبه حين يكتب ، فهو أُسلوب أديب ، تأتي ألفاظه عفوية ، لا يقصد اختيارها أو انتقاءها ؛ وعباراته سلسة تأتي من باب السهل الممتنع . وأكثر ما يظهر أسلوبه الأدبي في الوصف المبثوث في تضاعيف الكتاب ، ونراه ينمُّ حينئذٍ عن أديب حقًا . كان يحسن الوصف فيما يرى في رحلاته من مدن ومشاهد ، وهو وصف واقعي بعيد عن الوصف الخيالي الممجوج . ويأتي وصفه عامًا مقتضباً حيناً ، وملمًا شاملاً أقل اقتضاباً حيناً .

ومن أوصافه العامة شديدة الإيجاز ، قوله : « مدينة الإسكوريال من أجمل المدن وأنظفها ، فهي واقعة في سفح جبل ، وتحيط بها الحدائق ، وفيها مطاعم نظيفة ، وأخرى شعبية »[١] ، ومثله وصفه من الطائرة غرب أوروبا وشمالها وصفًا عامًا بعبارات موجزة ، يقول : «تكاد المناظر التي يشاهدها راكب الطائرة ... تكون متشابهة . أراضٍ منبسطة ممتدة امتداد النظر ، مكسوة بالنبات ، وجبال قليلة الارتفاع ، وتلال مستطيلة ، وأنهار وبحيرات وأودية»[٢] .

وأجمل من هذا حين يصف الطريق إلى مطار فرانكفورت في ألمانيا ، بشيء من البسط ، بقوله : «ومرت الثلاث الساعات كلمح البصر . فقد كان الجو صافيًا ، والبصر يمتد إلى نهايته ، متنقلاً بين غابات كثيفة بالأشجار الباسقة ، وتلال مكسوة بالنباتات المختلفة الألوان ، وأودية تزدان بانسياب المياه في أغوارها .

---

(١) رحلات ، ص ٣٢٦ .

(٢) رحلات ، ص ٢٧١ .

وحقول منسقة ، وقرى صغيرة وكبيرة منتشرة بمبانيها الجميلة في سفوح التلال وفي أعاليها»[1] .

ولعلّ من أجمل أوصافه للمدن والمشاهد ، ما وصف به مدينة مرّاكش بقليل من التفصيلات ، نجتزئ منها بهذا القدر ، يقول : « مرّاكش – خارج المدينة القديمة – فسيحة الأرجاء ، كثيرة الميادين والحدائق ، واسعة الشوارع التي تزين جوانبها الأشجار الكثيرة ، ومنها ما هو مثمر كشجر النارنج ، وتكثر [أشجار] النخيل عند مدخلها ، ولكنها من النوع الذي لا يثمر . وقلّ أن يرى المرء بيتًا لا حديقة له ، ومع قربها من الجبال فهي شديدة البرودة ، وأسواقها رطبة بسبب كثرة الحدائق بداخلها . ومع ذلك فقد شاهدت السقّاء بقربته يرش أرض السوق الكبير في المدينة القديمة »[2] .

وأكثر ما يميز كتاباته كثرة محفوظه من الأشعار والأمثال . ويأبى محفوظه من الشعر إلا أن يبدو للقارئ في كل موقف ومناسبة . كان يركب «الحافلة» إلى مدينة مراكش ، فتثير مشاهد الطريق أشجانه ، فيرى المنظر يشابه بلاده لولا خصوبة هذه الأرض . ولكنه يتحسّر – وهو ابن الصحراء – على صحراء الجزيرة العربية التي أوشكت مظاهر البداوة أن تزول منها ، بسبب الجفاف وقلة الأمطار[3] . وينشد حينئذٍ إطراء أبي العلاء المَعَرّي البداوة ، وهي أبرز مظاهر الصحراء ، بقوله :

(١) رحلات ، ص ٢٥٨ .

(٢) رحلات ، ص ٨٧ .

(٣) رحلات ، ص ٨٦ .

الموقـــــدون بنجــــد نارَ باديةٍ لا يحضرون، وفَقْدُ العزِّ في الحضرِ

وينشد كذلك قول أبي الطيب في جمال فتيات الصحراء :

أَفْدِي ظباءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحواجِيْبِ

(٧)

خاتمة :

وهكذا أتينا على هذا الكتاب النفيس عرضًا وتحليلاً . وليس لي عليه إلاّ مأخذان ، أو عتابان . الأول ما يصادفه القارئ من أخطاء مطبعية بين الحين والحين . ولعلّ هذا قد جاء من أحد تلاميذ أو مريدي الشيخ الجليل الذي نهد بتصحيح تجارب الطباعة ، فقام ببعض واجبه . وهو أمر - على كلّ حال - هيّن يمكن تداركه في طبعة مقبلة .

أما العتاب الثاني ، فهو متعلق بما جاء على غلاف الكتاب من أنه الجزءُ الأول . وبهذا يتضح أنه طال الانتظار للجزء الثاني ، الذي نتمنى أن نراه في وقت غير بعيد ، شريطة أن يكون أيضاً في رحلاته العلمية للانتفاع به على نحو ما انتفعنا بهذا الجزء . وقد كان هدفي من هذا العرض إظهار ما حواه من فوائد لا حصر لها ، مع تكريم متواضع للمؤلف لقاء ما قدّم من جهد كبير في سبيل خدمة التراث العربي .

* * *



قواعد النشر

* تنشر المجلة المواد المتعلقة بالتعريف بالمخطوطات العربية ، والنصوص المحققة ، والدراسات المباشرة حولها ، والمتابعات النقدية الموضوعية لها.

* أن لا تكون المادة منشورة في كتاب أو مجلة أو غيرهما من صور النشر .

* أن تكون أصيلة فكرة وموضوعا ، وتناولا وعرضا ، تضيف جديداً إلى مجال المعرفة التي تنتمي إليها .

* تستهل المادة بمقدمة في سطور تبين قيمتها العلمية وهدفها . وتقسم إلى فقرات ، يلتزم فيها بعلامات الترقيم التزامًا دقيقًا ، وتضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأمثال المأثورة والنصوص المنقـولة ضبطاً كاملاً ، وكذلك ما يشكل من الكلمات .

* يلتزم في تحرير الهوامش التركيز الدقيق ، حتى لا يكون هناك فضول كلام ، وترقم هوامش كل صفحة على حدة ، ويراعى توحيد منهج الصياغة.

* تذيل المادة بخاتمة تبين النتائج ، وفهارس عند الحاجة .

*في ثبت المصادر والمراجع يُكتب اسم المصدر أو المرجع أولاً ، فاسم المؤلف ، يليه اسم المحقق أو المراجع أو المترجم في حال وجوده ، ثم اسم البلد التي نشر فيها ، فدار النشر ، وأخيراً تاريخ الصدور .

* أن لا تزيد المادة عن ٣٥ صفحة كبيرة (١٠ آلاف كلمة) . وتدخل في ذلك الهوامش والملاحق والفهارس والمصادر والمراجع والرسوم والأشكال وصور المخطوطات .

* أن تكون مكتوبة بخط واضح ، أو مرقونة على الآلة الكاتبة ، على أن تكون الكتابة أو الرَّقْن على وجه واحد من الورقة ، وترسل النسخة الأصلية إلى المجلة

* يرفق المحقق أو الباحث كتابا مفاده أن مادته غير منشورة في كتاب أو مجلة أخرى ، وأنه لم يرسلها للنشر في مكان آخر .

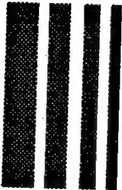
* تراعي المجلة في أولوية النشر عدة اعتبارات ، هي : تاريخ التسلم وصلاحية المادة للنشر دون إجراء تعديلات ، وتنوع مادة العدد ، وأسماء الباحثين ما أمكن .

* يبلّغ أصحاب المواد الواردة خلال شهر من تاريخ تسلمها ، ويفادون بالقرار النهائي بالنشر أو عدمه خلال فترة أقصاها ستة أشهر .

* تعرض المواد على محكّم أو أكثر على نحو سري ، وللمجلة أن تأخذ بالتقرير الوارد إليها ، أو تعرض المادة مرة أخرى على محكم آخر ، أو تتبنى قرارا بالنشر إذا رأت خلاف ما رآه المحكم ، وليس عليها أن تبدي أسباب عدم النشر .

* إذا رأت المجلة أو المحكم إجراء تعديلات أساسية أو تحتاج إلى جهد ووقت على المادة فإنها تقوم بإرسالها إلى صاحبها ، وتنتظر وصولها . فإن تأخرت تأجل نشرها .

* تمنح المجلة مكافأة مادية بعد النشر .



ثمن النسخة :

* **داخل مصر** : عشرة جنيهات .

* **خارج مصر** : خمسة دولارات أمريكية .

(شاملة نفقات البريد)

المراسلات : ص ب ٨٧ ـ الدقي ـ القاهرة ـ ج ٠ م ٠ ع ٠

الهواتف : ٣٦١٦٤٠٢ ، ٣٦١٦٤٠٣ ، ٣٦١٦٤٠٥ .

الفاكس : ٣٦١٦٤٠١ .

المقر : ٢١ شارع المدينة المنورة (نهاية محيي الدين أبو العز) .